

أدب

لا مذكرات

أندريه مالرو

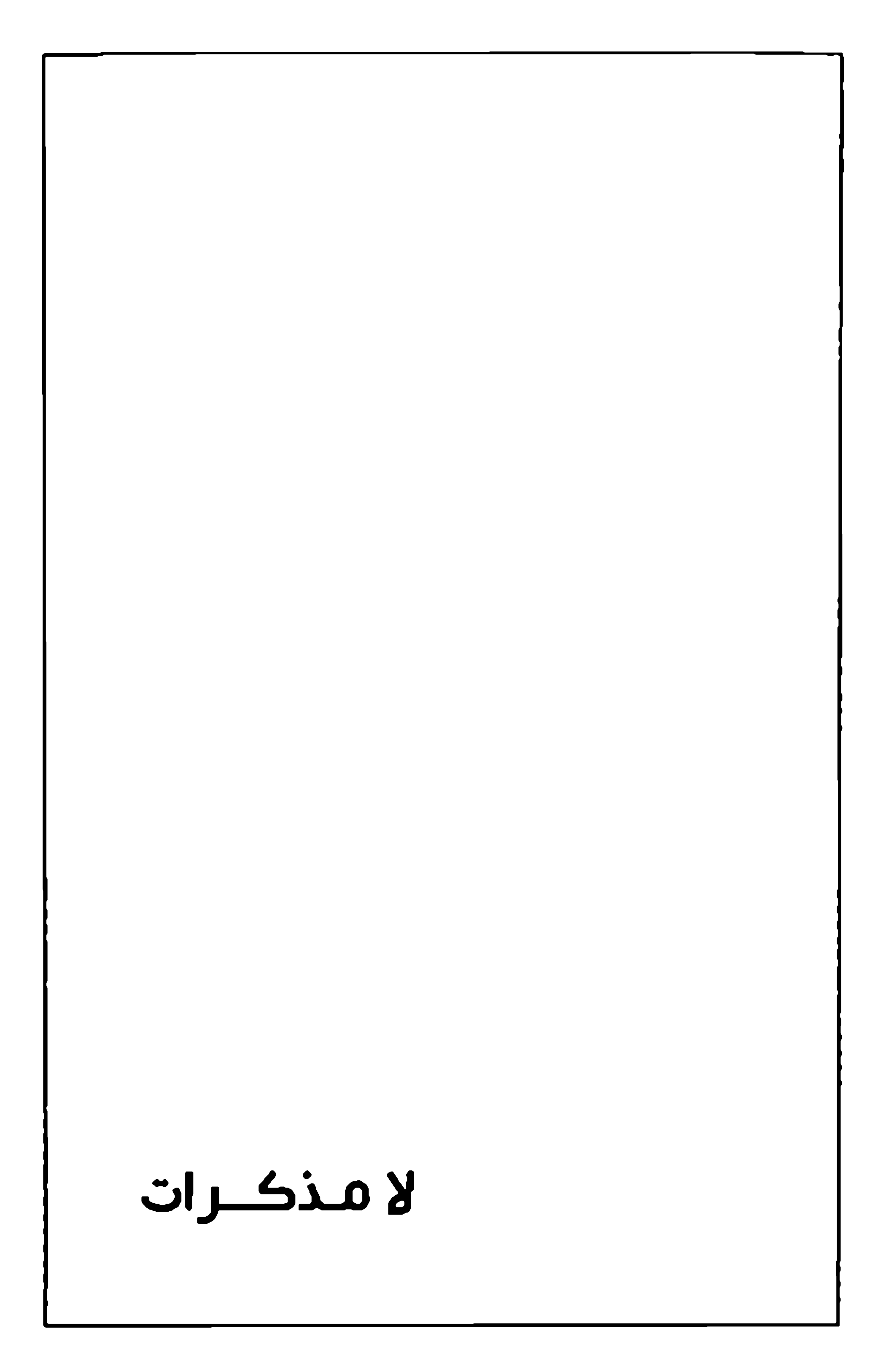


ترجمة

فؤاد حداد



الهيئة المصرية العامة للكتاب


لا مذكــرات



تنفيذ

الهيئة المصرية العامة للكتاب

لا مذكــرات

أندرية مالرو

ترجمة: فؤاد حداد



مالرو، أندرية، ١٩٠١ ـ ١٩٦٧.
لا مذكرات / مالرو أندرية، ترجمة فؤاد حداد
.ـ القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب،٢٠١٢
٢٤٠ص،٢٤سم
تدمك١ - ١٥٣ - ٢٠٧ - ٩٧٧ - ٩٧٨
رقم الإيداع بدار الكتب ٤١٦٩/٢٠١٢
I.S.B.N 978-977-207-153-1
ديوى٨٤٣

توطئة

مشروع له تاريخ

مشروع «القراءة للجميع» أى حلم توفير مكتبة لكل أسرة، سمعنا به أول مرة من رائدنا الكبير الراحل توفيق الحكيم.

وكان قد عبر عن ذلك فى حوار أجراه معه الكاتب الصحفى منير عامر فى مجلة «صباح الخير» مطلع ستينيات القرن الماضى، أى قبل خمسين عامًا من الآن.

كان الحكيم إذًا هو صاحب الحلم، وليس بوسع أحد آخر، أن يدعى غير ذلك.

وهو، جريًا على عادته الخلاقة فى مباشرة الأحلام، تمنى أن يأتى اليوم الذى يرى فيه جموعًا من الحمير النظيفة المطهمة، وهى تجر عربات الكارو الخشبية الصغيرة، تجوب الشوارع، وتتخذ مواقعها عند نواصى ميادين المحروسة، وباحات المدارس والجامعات، وهى محملة بالكتب الرائعة والميسورة، شأنها فى ذلك شأن مثيلاتها من حاملات الخضر وحبات الفاكهة.

ثم رحل الحكيم مكتفيا بحلمه.

وفى ثمانينيات القرن الماضى عاود شاعرنا الكبير الراحل صلاح عبد الصبور التذكير بهذا الحلم القديم، وفى التسعينيات من نفس القرن، تولى الدكتور سمير سرحان تنفيذه تحت رعاية السيدة زوجة الرئيس السابق. هكذا حظى المشروع بدعم مالى كبير، ساهمت فيه، ضمن من ساهم، جهات حكومية عدة، وخلال عقدين كاملين صدرت عنه مجموعة هائلة من الكتب، بينها مؤلفات ثمينة يجب أن نشكر كل من قاموا باختيارها، إلا أنه، للحقيقة ليس غير، حفل بكتب أخرى مراعاة لخاطر البعض، وترضية للآخر، ثم إن المشروع أنعش الكثير من متطلبات دور النشر، بل اصطنع بعضها أحيانًا.

وبعد ثورة ٢٥ يناير والتغيرات التى طرأت توقفت كل الجهات الداعمة لهذا المشروع الثقافى عن الوفاء بأى دعم كانت تحمست له عبر عقدين ماضيين، سواء كانت هذه الجهات من هنا، أو كانت من هناك.

ولم يكن أمام اللجنة إلا مضاعفة التدقيق فى كل عنوان تختار، وسيطر هاجس الإمكانات المحدودة التى أخبرتنا بها الهيئة فى كل آن.

والآن لم يبق إلا أن نقول بأن هذه اللجنة كانت وضعت لنفسها معيارًا موجزًا:

جودة الكتاب أولاً، ومدى تلبيته، أولاً أيضًا، لاحتياج قارئ شغوف بأن يعرف، ويستمتع، وأن ينمى إحساسه بالبشر، وبالعالم الذى يعيش فيه.

واللجنة لم تحد عن هذا المعيار أبدًا، لم تشغل نفسها لا بكاتب، ولا بدار نشر، ولا بأى نوع من أنواع الترضية أو الإنعاش، إن لم يكن بسبب التربية الحسنة، فهو بسبب من ضيق ذات اليد.

لقد انشغلنا طيلة الوقت بهذا القارئ الذى انشغل به قديمًا، مولانا الحكيم.

لا نزعم، طبعًا، أن اختياراتنا هى الأمثل، فاختيار كتاب تظنه جيدًا يعنى أنك تركت آخر هو الأفضل دائمًا، وهى مشكلة لن يكون لها من حل أبدًا. لماذا؟

لأنه ليس هناك أكثر من الكتب الرائعة، ميراث البشرية العظيم، والباقى.

رئيس اللجنة

إبراهيم أصلان

الفيل احكم الحيوانات ، وهو القادر من دونها جميعا على ان يتذكر حيواته السالفة ، ولهذا فهو يطيل التروى متفكرا فيها .

« من سفر بونا »

- ١ -

١٩٦٥
فى عرض بحر كريت

هربت عام ١٩٢٠ ، مع القس الذى اصبح فيما بعد راعيا لمنطقة الفركور . والتقينا بعد الهروب بوقت قليل فى قرية من اقليم الدروم كان هو قسيسها وكان يمنع اليهـود ، عن يمين وعن يسار ، شهادات تعميد بمختلف التواريخ ولايشترط الا ان يعمدهم فعلا ويقول : «لابد ان يبقى من ذلك شىء ما ٠٠٠ » ولم يزر باريس أبدا ، فقد أنهى دراساته اللاهوتية فى ليون ٠ وكنا نتابع الحديث الذى لا ينتهى ، حديث الذين يلتقون فى شذا القرية ليلا ٠

ـ منذ متى تتلقى الاعتراف ؟

ـ حوالى خمسة عشر عاما ...

ـ ماذا علمك الاعتراف عن البشر ؟

ـ أنت تدرى أن الاعتراف لا يفيدنا بشىء ، فما ان أبدأ فى تلقى الاعتراف حتى اصبح شخصا آخر ٠ هى نعمة الله ٠ ولكنى ٠٠٠ اقول لك أولا : ان الناس اتعس كثيرا مما نظن ٠٠٠ ثم ٠٠٠

ورفع ذراعى حطاب فى الليل المرصع بالنجوم :

ـ ثم ان خلاصة كل شىء ، أن ليس هناك اشخاص كبار .

وقد مات فى مذبحة جليير .

●

قد لايكون تأمل الانسان للحياة ـ الحياة فى مواجهة الموت ـ الا تعميقا لاستفهامه . لا اقصد ان يقع الانسان قتيلا فهذا ليس بسؤال امام كل من قدر له ان يكون شجاعا وهو قدر مألوف ، ولكننى اقصد الموت الذى يرف رفيفا حول كل ماهو اقوى من الانسان ، فى الشيخوخة بل

في تحول صور الأرض (فالأرض يوحي بالموت خمودها الألفي كما يوحي به مايطرأ عليها من تحول ولو كان من صنع الانسان) ، واقصد بالذات مالاسبيل الى علاجه : مقاله انك لن تستطيع ان تعلم ماكان يعنيه كل هذا. فامام هذه المسالة ماذا يهمني مما لايهم غيري انا ؟ كل الكتاب الذين عرفتهم تقريبا يحبون طفولتهم ، وانا اكره طفولتي . واذا كان خلق النفس هو ان نرتاح الى هذا المكان الذى يخلو من الطرق ويدعى الحياة ، فما أقل واسوأ ماتعلمت أن اخلق نفسي . لقد عرفت أحيانا كيف اعمل ، ولكن ما اهمية العمل ، الا اذا ارتفع الى مصف التاريخ ، تكمن فيما يفعله الانسان لافيما يقوله . انا لايتملكني الاهتمام . فالصداقة التى لعبت دورا كبيرا فى حياتي لم تركن ابدا الى الفضول . وانا على وفاق مع قسيس جليل ــ اما هو فكان يؤثر الا يكون هناك اشخاص كبار : لأن الاطفال قد كتب لهم الخلاص . . . لماذا اتذكر ؟

لأني ، وقد عشت فى المجال القلق ، مجال الذهن والتخيل ، مجال الفنانين ، ثم فى القتال ثم التاريخ ، وقد عرفت وأنا فى العشرين ، آسيا التى كان احتضارها مازال يلقى الضوء على مايعنيه الغرب ، قد لاقيت مرارا ــ تارة متواضعة وتارة متالقة ــ هذه اللحظات التى يتبدى فيها لغز الحياة الأساسى لكل منا ، كما يتبدى لكل النساء تقريبا امام وجه طفل ، ولكل الرجال تقريبا امام وجه ميت . وفى كل مايجتذبنا ،بمختلف اشكاله ، وفى كل مارايته يصارع ضد الاذلال ، بل فيك انت ياعذوبة الحياة نتساءل ما الذى تفعلينه فوق الأرض ، كانت الحياة ولا تزال ، شبيهة فى ذلك بآلهة الديانات الغابرة ، تبدو لى أحيانا كأنها كلمات موسيقية مجهولة .

وعلى الرغم من ان شبابى قد عرف الشرق شبيها بعربى عجوز يسير على حماره ، بينما يغط العالم الاسلامى فى نومه الذى لايقهر ، فقد اصبح المئتا الف من سكان القاهرة اربعة ملايين ، وبغداد تستبدل الزوارق البخارية بقوارب البوص والقار التى كان فلاحوها البابليون يصطادون بها ، وتاهت ابواب طهران المطعمة بالفسيفساء فى غبار المدينة ، كما تاهت بوابة سان دينيس . امريكا تعرف منذ زمن بعيد المدن التى اطلقوا عليها اسم الفطريات (١) ، ولكن هذه المدن لم تكن تمحو حضارة اخرى ولم تكن ترمز الى تحول صور الانسان .

الكل يعرف ان الأرض لم تتغير فى مدى قرن واحد ، مثلما تغيرت فى هذا القرن (الا بالتخريب والعمار) . لقد عرفت العصافير الصفرة

---

(١) المدن التى يتكاثر عدد سكانها بنسبة ١٠٠٪ او يزيد كل عام .

التى كانت تنتظر الاومنيبوس عند القصر الملكى ورايت القومندان جلين الخجول الجذاب بعد عودته من رحلة الفضاء ، وعرفت مدينة موسكو الترية ورايت برج جامعتها يرتفع مثل ناطحة سحاب مدببة . وكل مايخطر فى البال من صورة امريكا القديمة حين نرى قطارها الصغير المصقول بمدخنته كزهرة التيوليب : على رصيف محطة بنسيلفانيا ، ثم كل مايتداعى الى الذهن من امريكا الجديدة ، لدى ناطحة سحاب «البان امريكان» . كم من القرون مضت لم تهز العالم فيها ديانة كبرى ؟ هذه اول حضارة تستطيع أن تعم الأرض كلها ، ولكنها لاتستطيع ان تبتكر لنفسها المعابد والقبور .

●

كان الذهاب الى آسيا يعنى فيما مضى ، التغلغل البطىء فى المكان والزمان متزاوجين . الهند بعد الاسلام ، والصين بعد الهند . والشرق الأقصى بعد الشرق ، وسفن السندباد مهجورة بمنأى من مرفأ هندى عند هبوط المساء ، وبعد سنغافورة ، عند مدخل بحر الصين ، قوارب الجونك الأولى ، مثل الديدبان .

واعود الآن ، بأمر من الاطباء ، الى هذا التغلغل البطىء ، وأتطلع الى الاضطراب الذى امتلأت به حياتى الدامية المهدرة مثلما اضطربت به آسيا ، قبل أن التقى من جديد ، فيما وراء المحيط . بطوكيو حيث ارسلت يوما تمثال فينوس ، وكيوتو التى لايمكن التعرف عليها . «ونارا» سليمة تقريبا على الرغم من معبدها المحروق ـ فيما مضى وصلت اليها بعد يوم بالطائرة ـ والصين التى لم أرها من جديد . - على امتداد الأفق ، ترامى المحيط ، يغطيه الثلج : بلا اخاديد . . . « لقد استرجعت امام البحر الجملة الأولى من روايتى الاولى ، وعثرت فى المركب على لوحة البرقيات التى الصق عليها منذ اربعين عاما : نبا عودة آسيا الى التاريخ: «تقرر اعلان الاضراب العام فى كانتون» .

●

فبماذا تجيب حياتى على هذه الآلهة التى تغرب ، وهذه المدن التى تقوم ، وعلى ضجيج العمل الذى يلطم الباخرة وكأنه هدير البحر الخالد ، وعلى آمال راحت عبثا واصدقاء قتلوا ؟ هذا هو الوقت الذى بدا فيه أبناء عصرى يقصون حكاياتهم الصغيرة .

فى عام ١٩٣٤ ، وفى شارع «فيوكولومبيه» : كان بول فاليرى يحدثنى عرضا عن جيد ، فسألته : « لماذا ، ما دمت لا تبالى بانتاجه » ،

ترفع كتابه . حديث مع رجل المانى الى هـذه المكانة العالية ؟ ، قال : « ماذا ؟ » واعدت تذكيره ... « نعم ، آه ! لا بد أن فيه ثمـة توفيقا فى صرف الماضى المصدرى !...» ثم اردف بالوقار النـبى الذى كان يمزج به لهجته ولكنة الأعيان : «انا احب جيد ، ولكن كيف يستطيع المرء أن يتخذ من بعض الشباب حكما على افكاره ؟ ثم ماذا ؟ أنا أهتم بالاستنارة ولا اهتم بالصدق . والناس على كل حال ، يضربون به عرض الحائط». وهكذا كانت تنتهى فى كثير من الأحيان ، الآراء التى يراها - وفقا لعبارة اوسكار وايلد - صالحة للحديث .

ولكن مايسميه جيد بالشباب ؛ لم يكن مقتصرا دائما على الشبان ، كما ان سواد المسيحية لم يقتصر دائما على المؤمنين . الشيطان يحب الجماعات ، ويحب التجمعات اكثر ، والعظمة ايضا . لقد عشت حتى الثلاثين من عمرى بين اناس كان الصدق وسواسهم ؛ لأنهم يرون فيه عكس الكذب ، ولأن الصدق (وهم من الكتاب) قد اصبح ، منذ روسو ، مادة ممتازة للأدب . ويجب ، ان نضيف الى ذلك ، التبرير العدوانى الذى يتمثل فى قول بودلير : «ياأيها القارىء المرائى ، ياشبيهى ، ياأخى ...» فالأمر لايتعلق بمعرفة الانسان ، أيا كانت هذه المعرفة ، فلابد دائما ابدا من كشف النقاب عن سر من الأسرار ، لابد من الاعتراف . لقد كان الاعتراف المسيحى فدية الغفران وسبيل التوبة . والموهبة غير الغفران ولكن مفعولها لايقل عمقا . لو فرضنا أن «اعتراف ستافروجين» هو فى الحقيقة اعتراف دستويفسكى ، اذن لقد حول الحادثة الشنيعة الى تراجيديا ؛ وحول دستويفسكى الى ستافروجين ، الى بطل من اختراع الخيال - وهذا التحول تعبر عنه أروع تعبير ، كلمة : بطل . ليس من الضرورى تحوير الوقائع : فالمذنب يتم خلاصه ، لا لانه يفرض علينا قبول اكذوبة ؛ ولكن لأن مجال الفن غير مجال الحياة . وصمة «روسو» المتكبرة لاتقضى على وصمة «جان جاك» المثيرة للرثاء ، ولكن تحجوها وعدا بالخلود . هذا التحول ، وهو من أعمق التحولات التى يمكن للانسان أن يبدعها . هو التحول من مصير يخضع له الى مصير يتحكم فيه .

انا اعجب بالاعترافات التى نسميها مذكرات ، ولكنها لاتشد جل انتباهى . بقى أن تحليل الفرد ؛ فوق مايحدثه فى نفوسنا عندما يصدر من فنان عظيم ، يغذى فعلا من افعال الذهن كنت شديد الاهتمام به ايام حديثى مع فاليرى : أن يختصر الانسـان الى أدنى حد ممكن نصيبه من الكوميديا . وعندئذ ينبغى لكل انسان أن ينتصر على دنيا رومانسية يسبح فيها ولايتملكها ، ويشتد هياجه كلما طرحت للبحث والتساؤل ،

دنيا يقوم عليها جانب من المسرح الكوميدى هو الذى نرى فيه شخصيات من « لابيش » تخلف شخصيات من « موليير » والخطيب الساخط عند فكتور هوجو ، الذى يقدم باسلا على مصارحة الملك بحقيقته ـ شخصية قد لعبت دورا متصلا ولا طائل من ورائه) فى سياسة أمم البحر المتوسط ولكن الكفاح ضد الكوميديا يبدو كأنه كفاح ضد النقائص ، فى حين أن وسواس الصدق يبدو كأنه يطارد سرا ·

لقد تبوأ الفرد في المذكرات المكانة التي نعرفها ، منذ ان اصبحت اعترافات . والمذكرات التى كتبها القديس «أوغسطين» ليست اعترافات البتة ، وهى تنتهى الى رسالة فى الميتافيزيقا · ولا يمكن أن يفكر أحد فى ان يطلق صفة الاعترافات على مذكرات سان سيمون ، فهو يتحدث عن نفسه ليثير الاعجاب · وقديما طلب الانسان فى الأعمال العظيمة التى يلتيها الرجال العظام ، ثم طلب فى الأعمال السرية التى ياتيها الافراد . (خاصة وأن الأعمال العظيمة كانت عنيفة فى كثير من الأحيان . والأخبار المنثورة قد ابتذلت العنف) . ومذكرات القرن العشرين ذات طبيعتين فهى من ناحية ، شهادة عن الأحداث . مثل مذكرات الجنرال ديجول عن الحرب ، واعمدة الحكمة السبعة : تؤرخ للسعى وراء هدف كبير . وهى من ناحية أخرى · الاستبطان الذى يراد به دراسة الانسان . وكان جيد آخر ممثليه المشهورين . ولكن مؤلف «أوليس» ومؤلف «البحث عن الزمن المفقود» قد استخدما شكل الرواية . ان «المستبطنين المعترفين» قد غمروا من طبيعة اعمالهم . ذلك ان اعترافات كاتب المذكرات مهما بلغت قدرته على التحدى والاستفزاز تبدو الآن واهية طفلية ، أمام المسوخ التى طلعت بها علينا استكشافات التحليل النفسى ، حتى عند اولئك الذين ينازعون فى نتائجها . ان مرض العصاب يعود من مطاردة الاسرار بصيد اوفر عددا واوقع نبرة . ان «اعتراف ستافروجين» يدهشنا اقل مما يدهشنا « الرجل ذو الفئران » لفرويد ، ولا يفضله الا بنبوغ العبقرية .

ولو أنه لم يعد هناك من يؤمن بأن الصورة الذاتية ، بل الصورة ، لم يكن من همها الا أن تحاكى نموذجها ، منذ تماثيل النحاتين المصريين حتى اللوحات التكعيبية ، فمازلنا نعتقد ان الصورة الأدبية أفضل كلما زادت شبها وتزيد شبها كلما ابتعدت عن العرف الذى توافق عليه الناس، هذا هو التعريف الذى يقترحه أصحاب المذاهب الواقعية التى بنيت فى معظم الأحيان لمواجهة المذاهب التى تدعو الى ابتغاء المثل الاعلى ، والتى انتجت فى اليونان وفى عصر النهضة فنا من اعظم فنون اوروبا · أما المذهب

الأدبي الذى يدعو الى ذات المثل الأعلى فليس بينه وبين ليوناردو دافنشي او ميخائيل أنجلو ، صلة من القربى الا في شخصيات المآسى . غير ان « حياة القديس لويس » لجوانفيل ومراثي بوسويه ، تضارع بلا أدنى شك، رسوم الشخصيات الواردة في يوميات الأخوين جونكور ، وذلك على الرغم من أن بوسويه وجوانفيل كانا يرميان الى ضرب المثل والقدوة الحقيقية في المقام الاول وقبل كل شيء ؟ اشك في أن يكون المنشور الركيك الذى حرره ميشيليه عن « نابليون » أقرب الى الحقيقة من الرثاء الرائع الذى جاء في كتابه عن «جان دارك» . نحن نعرف لستندال حساسيته الشديدة وتأثره بـ «الوقائع الصغيرة الحقيقية» ، لم لايكون التأثر بالكبيرة ؟ أفلا يعدل التعبير عن نابليون بطل أوسترليتز ، الحديث عن ولوعه بتلطيخ وجه ملك روما بالمربى ؟ وقد يكون لانتصاره في مارينجو أسباب تختلف طبيعتها عن خيانة جوزفين . مالهم يظهرون الوقائع الكبيرة ، ثم يلفظونها احتقارا للعرف ، ثم لايعترفون الا بالوقائع الصغيرة ... من المتفق عليه أن حقيقة انسان ما ، هي أولا مايخبئه . لقد نسبت الى جملة جاءت على لسان بعض شخصاتي : « الانسان هو مايفعله ! » . هو بالتأكيد ليس ما يفعله فقط ، لقد كانت هذه الشخصية ترد على أخرى تقول : «ماهو الانسان ؟ انه كومة صغيرة بائسة من الاسرار ...» ان القيل والقال يعطينا بأرخص الأثمان ، البروز الذى نتوقعه من اللامعقول . واعتمادا على دراسة اللاشعور ومجاراة لعلم النفس التحليلي خلطنا بين مايخبئه الانسان ، وليس في الغالب الا داعيا للرثاء ، وبين مايجهله عن نفسه . ولكن جوانفيل لم يكن يزعم انه يعرف كل شيء عن القديس لويس ، ولا عن نفسه أيضا . وكان بوسويه يعرف الكثير عن كونديه الأكبر ، فربما كان قد تلقى اعترافه ، ولكنه عندما تحدث عنه أمام الموت ، علق قليلا من الأهمية على ماكان يسمى حينذاك بالنقائص . وبالمثل فعل جوركي في حديثه عن تولستوى .

كان جوركي يشعر في شبابه ، بالحاجة الى أن يتبع بعض الناس سرا ، ليجعل منهم شخصيات في رواياته (وكذلك بلزاك) . وهكذا تبع تولستوى في غابة اياسنايا بوليانا . « توقف العجوز عند فسحة من الأرض أمام صخرة ملساء ، عليها سحلية تنظر اليه . قال تولستوى « قلبك ينبض بالحياة والشمس جميلة . انت سعيدة ...» وبعد فترة من الصمت ، قال جادا : «... اما أنا ، فلا ...» .

كنا قطعنا شجرة صغيرة ، هذه العادة الغريبة كانت تسبق وجبة الغذاء عند جوركي . واستبانت طلعته ، وقد غطى رأسه بطاقيته الترية

الصغيرة ، على اتساع خلفية البحر الاسود ، واستمر فى ذكر الشيخ العجوز «عبقرى الأرض الروسية» ، فى غابته ، أمام الدواب تنصت اليه ، وكأنه أورفيوس فى الثمانين .

لم يكن الصدق دائما هدفا لذاته . وقد سبق لكل من الديانات العظمى ان جعلت من الانسان شيئا «معطى» ، انما تتكاثر المذكرات عندما يبتعد الاعتراف . شاتوبريان يجرى حوارا مع الموت ، وربما مع الله ، أما مع المسيح ، فكلا بالتأكيد . وما ان يغدو «الانسان» موضع بحث لا موضع كشف والهام ـ ذلك لأن كل نبى يكشف عن الاله يكشف عن «انسان» فى نفس الوقت ـ حتى يزيد الاغراء باستهلاكه : والرأى اذ ذاك أن معرفتنا بالانسان تكون افضل كلما زادت المذكرات او اليوميات من عدد صفحاتها . ولكن الانسان لايبلغ الى قرارة الانسان ، هو لايصيب صورته فى منبع المعارف التى يكتسبها ، بل يصيب صورة من نفسه فى المسائل والقضايا التى يطرحها . والانسان الذى سنجده هنا هو ذلك الانسان الذى يتآلف مع المسائل التى يطرحها الموت عن معنى العالم .

وهذا المعنى لايواجهنى بالسؤال فى اى مكان ، بالح مما يواجهنى امام بلاد تتغير ، مثل مصر والهند ، عند مقابلتهما بالمدن المهدمة . لقد رايت المدن الالمانية تغطيها الاعلام البيضاء (ملاءات معلقة فى النوافذ) او رايتها مدكوكة بالتمام ، وشاهدت القاهرة وقد انتقل تعداد سكانها من ۲۰۰ر۰۰۰ نسمة الى ٤ ملايين ، بمساجدها وقلعتها ومدينة الموتى واهرامها فى البعيد ، وشاهدت نورمبرج خرابا حتى انه يتعذر على الانسان أن يهتدى الى ميدانها الكبير . الحرب تستجوب ببلاهة ، والسلام بالغاز وقد يكون الانسان فى مجال القدر والمصير ، اكبر بتعميق اسئلته من الانسان باجاباته .

فى الابداع الروائى ، وفى الحرب ، وفى المتاحف الحقيقية والخيالية ، وفى الثقافة ، وربما فى التاريخ ، وقعت على لغز اساسى ، صادفته تبعا لأهواء الذاكرة التى لا تبعث الحياة فى تسلسلها الأول . هى كواكب تظهر فى المنسلك ، تضيئها شمس لاترى ، فتبدو كأنها تعد لتكوين مجرة جديدة . بعضها ينتمى الى المخيلة ، وكثير منها الى تذكار ماض يبزغ من الظلمات مثل ومضات البرق ، او يكون على ان اجمعه صابرا : ان اعمق لحظات حياتى لاتسكن فى ولكنها تساورنى تارة وتفر اخرى . لايهم . ان بعض أحلامنا ، لاتقل معنى امام المجهول ، عن ذكرياتنا . فأنا استعيد هنا بعض المشاهد التى حولتها فيما مضى الى رواياتى . كثيرا ما تكون مرتبطة بالذكرى روابط متشابكة ، وربما تشابكت فى المستقبل بطريقة

ادعى الى الحيرة والجوى . لقد نقلت المشـــهد التـالى من «اشـــجار الالتنبيرج» وكان مطلع رواية أتلفت الجستابو من صـــفحاتها أكثر مما استطيع معه ان اعيد كتابتها · وكان عنوانها «الصراع مع الملاك» · وهل اداب الآن فى غير هذا ؟ الانتحار ، انتحار أبى ، وهذا الجد جدى ، قد صور الفولكلور العـائلى بلاشك ، من ملامحه · كان تاجر سفن ، وقد اخذت منه ملامح اشد شبها لتصوير جد البطل فى رواية «الطريق الملكى» واستمرت اساسا مشهد موته مثل شيخ من الفيكينج . وعلى الرغم من انه كان اشد افتخارا بشهادته كأوسطى فى صـناعة البراميل ، منـه باسطوله الذى فقده كله تقريبا فى البحر ، فقد كان متمسكا بالابقاء على شعائر شبابه ، وقد فتح جمجمته بضربة بلطة . وهو ينهى بصورة رمزية وفقا للتقاليد تمثال مقدمة مركبه الأخيرة . وهذا الفلامنكى من ابناء دنكيرك قد اصبح الزاسيا ؛ لأن أول غارات الألمان بالغاز قد حدثت على نهـر الفستول فكانت تفرض على شخصية خدمت فى الجيش الألمانى عام ١٩١٤ وهذه العنابر التى يعبر فيها البهلوانات بين جذوع اشجار الصنوبر .هى العنابر التى كانت تنشر فيها القلاع لتجف . وقد احتلت الغابة مكان البحر . ولم اكن اعرف شيئا عن الالزاس . لقد عملت . لخمسة او ستة اسابيع ، عسكرى سوارى فى ستراسبورج ، فى ثكنات نابليون الثالث الصفراء ، فتولدت غاباتى من الذكرى المبهمة التى بقيت لى من غابة سانت أوديل أو مرتفعات كوينسبرج ، وشخصيات الرواية تدعى «بيرجيه» لأن هذا الاسم ، تبعا لنطقه ، فرنسى او جرمانى · ولكنه اصبح اسمى لمدة سنتين : استخدمه بعض الأصدقاء فى المقاومة لتسميتى ، فبقى لى . وقد دعانى الالزاسيون لأقود لواء الالزاس ــ لورين ، وخضت معارك دانمارى بعد أيام من وفاة زوجتى الثانية فى عيادة كائنة فى شارع الألزاس ــ لورين بمدينة بريف · وزوجتى الثالثة كانت تقطن فى شارع الالزاس ــ لورين بتولوز . ولا استطرد . فهناك شوارع كثيرة بهذا الاسم فى فرنسا .

لم ينتظرنى الناس ، ليعلموا ان فكتور هوجو كتب مسرحية «ماريون ديلورم» من قبل ان يلتقى بجوليت دروبه . ولاشك ان الاسباب التى حملت فكتور هوجو على كتابة « ماريون » قد جعلته أشد تعاطفا واحساسا بحياة جوليت دروبه . ولكن هل يمكن تفسير هذه الاعمال الخلاقة التى تحمل الارهاصات ، بأن فيروس الحلم عند «الحالمين فى عز النهار» يدفع أيضا الى العمل ، كما يؤكد ت.أ. لورانس ؟ فماذا لو انتفى العمل ولم نجد غير هذه الابيات المتنبئة التى كان كلوديل يلتقطها جزءا ؛

والتى انذر فيها بودلير وفرلين بما وقع لهما من كوارث ؟ «ابحرت روحى الى اهوال الغرق ...»

ان لواء الألزاس–لورين هو الذى استعاد سانت أوديل ، والكولونيل بيرجيه هو الذى ذهب ليسترجع ، فى اقبية كوينسبرج ، هيكل جرونوالد ... والمركب التى أكتب فيها هذه الكلمات تدعى « كمبوديا » ، والألم الانسان اللذى تحس به شخصية «زمن الاحتقار» أثناء هروبها ، يشبه الألم الذى سببه لى صفر حذائى عندما هربت بعد ذلك بسبع سنوات . لقد كتبت كثيرا عن التعذيب ، ايام ان كان لايلقى الاهتمام ، ومررت بعد ذلك قريبا منه . ان همنجواى ، عبر المنحنى الذى مضى به شابا يعشق المراة التى تكبره سنا ، ثم المراة التى تصغره ، حتى انتهى به الىالكولونيل الستينى خليل الفتاة الشابة ، ان همنجواى ، عبر ضروب شتى من العجز والانتحار – لم ينقطع عن استشفاف مصيره . وماذا عن شامفور ؟ وموباسان ؟ وبلزاك ؟ كتب نيتشه السطر الاخير فى «المعرفة المرحة» : « هنا تبدأ المأساة » ، بضعة أشهر قبل ان يلتقى بلوسالومى .– وزرادشت .

ان مايهمنى فى أى انسان كان ، هو الحال الانسانية . ويهمنى فى الانسان العظيم وسائل عظمته وطبيعتها ، وفى القديس طابع قداسته . وبعض الملامح التى تعبر عن صلة خاصة بالعالم ، أكثر مما تعبر عن الطابع الفردى .

كان الأدريون يعتقدون بان الملائكة تلقى على كل ميت هذا السؤال «من اين جئت ؟» سيجد القارىء هنا ماكتب له البقاء . وان كان علينا احيانا ، كما قلت ، أن نذهب للبحث عنه . لاتستريح الآلهة من المأساة الا بالهزل ، ان الصلة التى تربط بين الياذة والأوديسة وبين ماكبث وحلم ليلة صيف هى الصلة التى تربط بين المأساوى ومجال جنى أسطورى. اذهاننا تبتكر شخصية القط الذى يلبس الحذاء والرجل الحوذى الذى يتحول عند السحر الى ثمرة من ثمار القرع ، لأنه لا المتدين ولا الملحد يرضيان تماما بالمظهر . وأسمى هذا الكتاب «لامذكرات» لأنه يجيب على سؤال لاتطرحه المذكرات ، ولا يجيب على الأسئلة التى تطرحها ، ثم لأنك تلقى فيه وجودا مرتبطا بالمأساوى فى كثير من الاحيان ، وجودا لايمكن رفضه ، متسللا مثل قط يعبر فى الظل : وجود «الفرفلى» (١) وهى كلمة قد نعشتها دون ان أعلم .

---

(١) يستخدم مالرو هذه الكلمة ومشتقاتها فى هذا الكتاب بمعنى : العجيب ، والمستغرب، والغريبى ، وتقانين الصدف .

كان يونج ، عالم التحليل النفسانى ، فى بعثة عند هنود المكسيك الجديدة ، وسألوه عن حيوان عشيرته . أجابهم بأن سويسرا ليس لها عشائر ولا طواطم . وبعد أن انتهى الحديث غادر الهنود القاعة عن طريق سلم خشبى نزلوا عليه كما نهبط الدرج : وظهرهم الى السلم . ونزل يونج مثلنا ، ووجهه الى السلم . ووقف الزعيم الهندى يشير فى صمت الى «دب بيرن» المطرز على سترة زائره : الدب هو الحيوان الوحيد الذى ينزل ووجهه الى جذع الشجرة او الى السلم ...

أشجار التنبرج

- ١ -

الزاس
١٩١٣

كان والدى قد عاد من القسطنطينية منذ اقل من أسبوع . وعلى رنين الجرس قبل البكور وغبش الظلام يسود الغرفة التى لم ترفع ستائرها بعد ، سمع والدى خطوات الخادمة تتجه نحو الباب ، ثم تقف ، ودون أن ينبس الشخص الذى دق الجرس بكلمة ، أخذت تردد فى صوت حزين « مسكينة يا جان ! .. مسكينة يا جان ! .. »

وكانت جان تخدم عند جدى .

وسادت فترة من الصمت تعانقت خلالها المرآتان ، وأصغى والدى الى صوت عربة يتلاشى فى الفجر ، وقد أدرك ما حدث . ودفعت جان الباب فى بطء ، وكأنها منذ حين ، اصبحت تتخوف من كل الغرف .

وسألها والدى : ــ انه لم يمت ؟

ــ لقد نقل الى المستشفى يا سيدى .

●

وصف لى والدى لحاد ريخباخ وقد غاص فى الحفرة الى منتصف قوامه ، وهو ينصت برأسه المرفوع ، فى رائحة الحجر الرملى المتوهج فى حمأة الشمس ، الى احد أعمامى يقول له : هيا يا فرانز ، بسرعة ! فهو واحد من العائلة ! وكان لنا فى الناحية ما يقرب العشرين من أبناء الأعمام ، وكان الشبه مذهلا بين هذا اللحاد وجدى الميت .

وكان والدى يقول : ــ لقد سمعت كثيرا من السخافات حول موضوع

الانتحار · ولكنني لم اجد ابدا أمام رجل قتل نفسه في ثبات ، شعورا آخر غير الاحترام · هل الانتحار من اعمال الشجاعة أم لا ، سؤال لا يطرح الا على الذين لم يقتلوا أنفسهم ·

وكان معظم اعمامي وآباء أعمامي لم يتقابلوا منذ سنوات ، فقد فرقهم أكثر من صروف الحيـــاة ، التعارض القائم بين الذين تقبلوا الســـيطرة الالمانية وبين الذين رفضوها _ على أن هذا التعارض لم يصل ابدا الى حد القطيعة . وقد اصبح الكثير منهم يقطنون فرنسا . ويتلاقى الجميع عند عمي متياس الذي كان يعاون جدي في ادارة مصنعه · ومن دون الجميع ، لم يحضر والتر ، عم والدي · هل كان حقا في الخارج لبضعة أشهر · لقد كان على شقاق مع أخيه ديتريش منذ خمسة عشر عاما · ومهما قيـــل عن قسوته وعناده فلم تكن تقاليده لتقبل له أن يحمل الضغينة بعد الموت ولكنه تغيب ، وكان هـذا الغيـاب يقوى من الهيبـة المقوتة التي احاطت بشخصه دائما ومازالت تحيط · وقد ذكره جدي بتحامل اشد _ وبالحاح أشد أيضا _ من سائر اخوته · ولكنه قد عينه (كما عين والدي) ليقوم على تنفيذ وصيته ·

وكان والدي لا يعرفه · وكان والتر لا يستطيع أن يتقبل أي فرد في عائلته لا ينقاد له الانقياد الواجب لمشيخة القبيلة ، فلم يكن مكروهـا ولكن محاطا بالاحترام الذي يرتبط بشهوة السلطة عندما تمارس هـذه السـلطة دون كلل على مدى اربعين عاما · ولم ينجب أبنـاء ، فقرب اليه احد أبناء عمومتي ، وتعلق به ولكن في شدة وصرامة : قبل أن يبلغ الولد سن الثانية عشرة ، كان يحرر له كل صـباح ورقات قصـيرة يملؤهـا بارشـادات اشـبه بالأوامر ، ويلزمه بالرد عليها قبل اوان الذهاب الى المدرســـة · وفي سن العشرين قرر ابن عمي ، بعد مناقشة حول احـدى الفتيات ، أن يرحل ·ولم يرق هذا العم والتر ، رغم توسلات زوجته ، ولم يرد على رسائله ابدا · واصبح ابن العم الذي كان يحـلم أن يجعل منه خليفته ، ملاحظ عمال ، ولم يكن والتر يتحدث عنه ابدا ، وكان اخـوته يجدون في حزنه الذي لايخفي عليهم مايكفي من الانسـانية ليروا لزاما عليهم أن يعجبوا بافتقاد والتر لكل انسـانية سواها .

والحق انهم كانوا جميعا على استعداد ، اذا تجاوزت تصرفات أخيهم ما يمكن احتماله ، أن يقولوا : «ان المعجزة ألا يكون أسوأ من ذلك ، مع المرض الذي أصيب به ! » فقد كان يبدو في كل صـوره ، واقفا يخفي عكازيه وراء معطف طويل : كانت قدماه مشـلولتين ·

وتوالت كبد الألزاس السمنة بعد الجنبرى والسمك ومعها رحيق التوت حتى أوشكت وجبة المأتم ان تنقلب الى مهرجان · ان الآلاف المؤلفة من السنين لم تكف الانسان ليتعلم النظر فى الموت · وكانت رائحة الصنوبر والصمغ تدلف عبر النوافذ الصيفية ومئات الاشياء من الخشب المصقول تجمع فى ماض واحد من الذكريات والأسرار أيام الطفولة التى قضاها الحاضرون فى مزرعة العائلة وبين غاباتها ، وكانوا ، كلما عادوا الى الحديث عن جدى ، غرقوا فى الاحترام الودود الذى أتاح لهم الموت أن يبدوه دون تحفظ نحو الشيخ البرجوازى الثائر الذى جاء انتحاره المستعصى على التفسير وكأنما هو تتويج خفى لحياته ·

وكان جدى متقدما فى السن ، عندما منحت الكنيسة ، مقابل فدية عادلة ، بعض التيسيرات فى قواعد الصيام ، فثار ثورة ضارية واحتج لدى قسيسه وكان ينشر عليه حمايته لأنه عمدة ريخباخ · (أمر لا يمكن اقتلاعه : فى هذه المنطقة التى تغطيها كلها آثار « الغابة المقدسة » من العصور الوسطى ، لا تزال البلدة تمتلك ضياعا عمومية واسعة · ويدخل منها فى زمام ريخباخ أربعة آلاف هكتار تأتى بمعظم موارد بلديتها · وكانت مواهب جدى المهنية فوق النزاع) · « ولكن يا سيدى العمدة ، ألا ينبغى لقسيس صغير ان ينحنى امام القرارات الرومانية ؟ ــ سأذهب اذن الى روما » .

وحج الى هناك على قدميه · وكان رئيسا لعدة جمعيات فسمح له بمقابلة البابا · ووجد نفسه مع قرابة العشرين من المؤمنين فى احدى قاعات الفاتيكان · ولم يكن خجولا ، ولكن البابا كان البابا ، وجدى رجلا مسيحيا : لقد ركعوا جميعا ومر عليهم البابا فقبلوا مركوبه ، ودعوا بعد ذلك للانصراف :

واعاد عبور التيبر ، يتملكه سخط مقدس ، يتراقص فى سورته منتهكو الحرمات من قصاد السبيل ، والظل اللامبالى على الشوارع الخالية من الارصفة ، والعمدان العتيقة ، ومحلات الحلوى ذات المخمل العنابى ، وهرع الى حقائبه ودفس فيها ملابسه ، واستقل أول قطار ·

وعند عودته ظن أصدقاؤه البروتستانت أنه على استعداد للتحول اليهم ·

ــ لا يغير الانسان دينه فى مثل سنى !

ومن ذلك الوقت ، انفصل عن الكنيسة ولكنه لم ينفصل عن المسيح ، فكان يحضر القداس كل يوم أحد خارج البناء ، واقفا وسط

القريص فى ركن يتلاقى فيه الحاجز الخلفى بالصحن ، يتابع الصلاة بذاكرته ، مصغيا ليلتقط عبر الزجاج رنين الجرس الصغير الذى يعلن عن صعود المسيح • وازداد صممه شيئا فشيئا وخشى أن يفوته السمع فكان يقضى عشرين دقيقة راكعا فى قريص الصيف أو وحل الشتاء • وتحدث خصومه فى سلامة عقله ، ولكن ليس من اليسير النيل من مثابرة لا تلين ، وكان الجميع يرون فى ذلك الشخص ذى اللحية البيضاء والردينجوت ، الراكع فى الوحل تحت مظلته ، فى نفس المكان وفى نفس الساعة ولنفس السبب طوال سنوات ، رجلا على حق أكثر منه رجلا مطيورا • والألزاس تنعطف للايمان وكان لها حينذاك أسباب قوية لتعطف بالمثل على الاخلاص•

ولكنه قد احتاج الى كل الثقة التى يتمتع بها وكل النجاح الذى يدير به مصنعه (الاعتقاد بجنون المغلوبين هو الأكثر) ليتقبل الناس عواقب مغامرته الرومانية • وكان عقد الايجار بين الجالية اليهودية ومالك البيت الذى اتخذت منه معبدا ، قد انقضى أجله ، ورفض المالك أن يجدده ولم يكن هناك من يريد أن يؤجر بدله • واقترح جدى على مجلس البلدية تاجير أحد المبانى العامة فووجه بمعارضة صريحة •

ـ لاحظوا يا سادة أن هذا الأمر غير عادل •

صمت حازم ، وعناد الزاسى لا يقل عن عناده • كان تقريبا معاديا للسامية ، ولكنه فى نفس الليلة استدعى الحاخام ووضع تحت تصرفه بالمجان جناحا من هذا البيت الذى تعرت فى سقفه عروق الخشب ، وازت جذوع الأشجار خلف بوابته الهائلة المصنوعة بحدائد من طراز أيام لويس السادس عشر ، حيث كان أعمامى ينتهون الآن من عشائهم الحبى •

وحدثت له نفس المغامرة مع سيرك متجول رفض المجلس أن يمنحه الحق فى نصب خيامه على أراضى ريخباخ فاستقبله جدى فى مغلق الخشب الممتد خلف البيت •

وراح أعمامى أمام الأكواب المضلعة ورحيق التوت•فى هذيان اخوى يذكرون الليلة المشهودة التى ذهبوا فيها صحبة ليفكوا الحيوانات ، وفتح ميتاس الباب السرى النفيس المدهون بالزيت فخرج الفتيان ، هذا على الحمار العالم ، وهذا على الحصان المدرب • وهذا على الجمل ، والذى فوق الفيل • ولم تكترث الحيوانات بصيحات اصحابها الجدد وانطلقت هاربة الى الغابة ، واستلزم الأمر اعلان التعبئة فى القرية ليعيدوا الى العمدة ابناءه محملين بالمخالفات •

وعليها ، حبس جدى أولاده عند مرور السيرك التالى ، ومنع القادمين نفس الضيافة ·

وفى البيت الواسع الذى تكومت كراكيب « شركة الهند » فى مطارحه الصيفية المغلقة ، على صوت صراصير المناشر ، كانت احدى فرق السيرك قد نسيت ببغاء خضراء · ولقنها جدى ـ وقد يكون على سبيل السخرية ـ اربع كلمات : « افعل ما يجب عليك » · فاذا عوقب أحد الأولاد ، بدت كازيمير ـ الببغاء ـ وكأنها ادركت حقيقة الذنب ، حتى اذا اقترب منها الولد ، صاحت به وهى تخفق بجناحيها : « افعل ما يجب عليك ا افعل ما يجب عليك ! » ويرمقها الولد بنظرة من طرف عينه ويذهب ليعود بالمقدونس وهو سم للببغاوات · اما هذه الببغاء فكانت تأكله وتزداد سمنة حتى انتهى بها الأمر الى حب المقدونس ·

كم من امسيات صيف نامها هذا الفناء وقد تباطأ صوت المناشير وضاعت رائحة الخشب الساخن ،وعبر به خلسة يهود مذهبون مثل يهود رمبراندت أو بهلوانات يربطون الدببة أو البعض من حيوان القنفر يفر هاربا بين الأكوام الشاهقة من جذوع الأشجار · ومنذ أن جاءوا بجثمان جدى الى هنا ، والببغاء التى ما زالت حية تتطاير متثاقلة وقد تحررت من علاقتها ، عبر الغرف المظلمة ، ومثل أرواح الموتى تنبح فى المكان الموحش : « افعل ما يجب عليك ! » ·

لم يكن جدى قد أخطأ : فان وارث صرامته الآمرة كان هو بالفعل أخوه الغائب والتر ·

كان أعمامى ، تجارا ورجال صناعة ، يحترمون فيه الأستاذ الكبير (ربما كان والدى وحده يبث فيهم عندئذ نفس القدر من التبجيل) · بعد أن عمل مؤرخا لفترة من الزمن لم فيها نجمه وكان جديرا بأن يسطع لو لم يكن الزاسيا ، نظم ولتر « محاورات التنبرج » الشهيرة التى لم يدع اليها اى واحد من المحتفلين فى ريخباخ بمهرجانهم الجنائزى ، والتى عظمت فى عيونهم هيبتها الاجتماعية · وكان منظما عنيدا وماكرا بلا شك فجمع الاعتمادات اللازمة لشراء دير التنبرج التاريخى على بعد كيلو مترات من سانت اوديل · وكان يجمع فيه كل سنة عددا من زملائه البارزين وزمرة من مثقفى كل الاقطار وأنبغ تلاميذه القدامى · ومن هذه المحاورات نشأت بعض كتابات ماكس ويبر وستيفان جورج وسوريل ودوركهايم وفرويد · واخيرا ـ الأمر الذى لايخلو من اهمية وتجلة عند والدى ، كان والتر فيما مضى صديقا لنيتشه ·

شخصية غريبة تلوح بين ذكرى نيتشة والنوادر المتداولة على المائدة.
لقد تجرأ على أن ينظم بعد أجادير مناقشة حول « الأوطان فى خدمة الفكر» ولكن كل واحد من اخوته (ومن ابناء اخوته بالأكثر) كان يذكر أنه وهو طفل — وكان ذلك بين ١٨٥٠ — ١٨٦٠ والألزاس لاتزال تابعة لفرنسا — اجاب على فضولى يسأله عما « ينوى أن يفعله فى المستقبل » :

« — ساعمل فى الأكاديمية الفرنسية — وماذا تفعل هناك ؟ — سيكون هناك السيد فكتور هوجو والسيد لامارتين والسيد كوفييه والسيد بلزاك .. — وأنت ؟ — أنا ، سأكون وراء القمطر . — وماذا تفعل وراء القمطر ؟ — انا ؟ سأقول لهم : أعيدوا ! » .

وكان والدى يزعم ان مدينة التنبرج قد ولدت من هذا الحلم القديم الذى لم يتحقق للأسف .

وفى الأسبوع التالى ، وصلته رسالة من والتر . لقد عاد الى التنبرج ليدير فيها محاورة وهو ينتظر والدى هناك .

كانت مكتبة التنبرج رائعة . عمودها المركزى يدفع عاليا بقباب العصور الوسطى الى الظل حيث تتوه الكتب ، فلم يكن يضىء القاعة الا مصابيح كهربائية مثبتة تحت العيون . ويأتيها الليل من طاقة زجاجية واسعة . وتتناثر هنا وهناك صور لتولستوى ونيتشه وفى احدى الخزائن رسائله للعم والتر ، وصورة لمونتانى ووجوه مصبوبة لباسكال وبيتهوفن (سيدان من العائلة ، هذا ما خطر على بال والدى) . وفى كشك عريض كان عمى ينتظره خلف مكتب على هيئة مائدة المطبخ ، تعمد وضعه فى مكان منعزل ، واقامه فوق منصة خشبية بارتفاع درجة لتسمح له أن يطل على محدثه من عل : هكذا كان فيليب الثانى . من خلوة شامخة البؤس ، ينظر بازدراء الى فناء قصر الاسكوريال .

عندما توقف القطار لمح والدى والتر على الرصيف : ان لم يكن يعرفه فقد كان يعرف عكازيه . وكان منتصب القوام ، مع مريدين الى جانبه ، ينظر الى قدوم والدى بالسكون الغريب الذى كان يخلعه على عاهته . وقد تميزت مع الوقت ، ياقة عالية جدا ورباط عنق صغير اسود ، تحت معطف « الماكفرلان » البايرونى الخفيف الذى يخفى ساقيه ، وثبتت نظارة ذهبية فوق الأنف المهشم مثل ميخائيل أنجلو — ميخائيل انجلو فى ختام حياة جامعية طويلة .. وتم الترحيب فى أحسن اسلوب ، ثم بعد الترحيب مباشرة .

– القيام فى الساعة الثامنة ·

ولدهشة والدى ، سارا على الأقدام · وتبعهما المريدان · وامتدت أشجار الصنوبر تحت السماء فيخطوط مهيبة وراحت ريح الصيف الردىء تدفع أمامها بنسالة داكنة من السحاب ، وتتوالى خطوات الخيل ويصدر من العربة التى تتبعهم أزيز مكتوم · وكانت كل هذه الأصوات والمناظر تتفق ومشية العكازين الصامتة وقد غلفت كعوبهما بالمطاط ، وعلى بعد اربعمائة متر امامهم وعند النقطة التى تتجه اليها خطوط الوادى الداكنة ظهر لهم الدير أخيرا ، فى بهائه المكتل الصـــارم · ومد والتربرجيه ذراعه اليمنى وقد اعتمد على عكازه الأيسر وقال : « هذا هو » ثم أردف ، متواضعا : « جرن ، جرن ليس الا » ·

وأخذ يردد « جرن ·· » محتقرا أن يتلقى أى رد · واخيرا ، ركبوا العربة ·

●

كان والتر يتأمل الصور المضاءة بالكاد وصفوف الكتب الغارقة فى الظل ، وكأنه ينتظر من صومعة الفكر هذه ان تنزل النعمة على والدى · وكان الضوء ينير وجهه من أسفل فيزيد من طابع الرسوم المبدئية فى سحنته، كان قد وضع نظارته، وبفضل الضوء الخفيض الذى يبرز النتوءات تبدى على وجهه محيا اخيه الميت · هذا هو الرجل الذى أراده جدى، بعد خمس عشرة سنة من القطيعة ، ليقوم على تنفيذ وصيته – والمجلات التى تتحدث عن دور والدى فى الشرق ، قد اشتراها من أجل أن يرسلها اليه ·

قال والتر : « لقد كنت احب ديتريش » ، كمن يمنح شرفا ، ولكن بدون عاطفة ·

وكان في صوته كما كان فى نظرته ، شىء غالب ، وكأنما هو يخشى ان تلزمه اقواله او كان مايوشك ان يقوله لايكاد يلهيه عن تأملاته · ومع ذلك ، فقد كان يسأل :

– بلغنى انه كان قد أعد سما ، ليستخدمه اذا اتضح أن الفيرونال ·· بلا فائدة ؟

– كان المسدس تحت الوسادة ، وصمام الإمان منزوع .

واقفا كل اسبوع ، طوال سنوات ، فى نفس الساعة ، وفى نفس المكان خارج الكنيسة ...

اوشك ان يتكلم ، ثم سكت . ثم استقر أخيرا على أن يقول :

ــ هل انت فى وضع يمكنك من ان تنورنى ــ اقول فقط : تنورني ــ عن الأسباب التى ربما دفعت ديتريش الى هذا .. الحادث ؟

ــ كلا .

« بل ينبغي على أن اجيبك : بالعكس ، ففى اليوم السابق على ليلة وفاته ، تناولنا العشاء معا ، وجرتنا الصدفة الى الحديث عن نابليون . وسألنى بشيء من التهكم : « اذا استطعت ان تختار لك حياة ، فاية حياة تختار ؟ ــ وانت ؟ «اطرق بعض الوقت ثم قال فجاة بلهجة جادة : «والله ومهما حدث ، فلو كان على أن احيا مرة أخرى ، لما رغبت فى حياة غير حياة ديتريش برجيه .. »

وكرر والتر فى صوت بين بين :

ــ لما رغبت فى حياة غير حياة ديتريش برجيه .. »

« من المحتمل ان يظل الانسان متشبثا بنفسه بعمق ، بينما هو قد انفصل عن الحياة .. »

واتى من الخارج تصايح الدجاج الأبله فى المساء الممطر ، ومد والتر يده نحو أبى متسائلا :

ــ اليس ثمة ما يحملك على الاعتقاد بانه خلال اليوم التالى وقع .. حادث .. ؟

ــ ارى انتحاره كامنا فى قوله « مهما حدث » .

ــ ولكنك لم تتوجس شيئا ؟ (اقول فقط : تتوجس .)

ــ كنت مقتنعا بأن الذين يتحدثون عن الانتحار لا يقتلون أنفسهم .

وكان والدى يفكر فى مرارة ، بأنه كان اشد أهل الدنيا سرورا واعتزازا بسويعات نجاحه .

وتمتم والتر بلهجة من يسترجع الذكرى ، والضوء الخفيض يزيد من سكون فمه :

ــ ولو انه يحدث أن نتعرف على الموت عندما يكثر من الالمام .

ـ لم أكن قد رأيت رجلا تعلقت به يموت ٠

ـ ولكن هذا الشرق ٠٠ العنيف ، المضطرب ٠

ـ أنا قادم من آسيا الوسطى ٠ حياة المسلمين صدفة فى القـــــدر الكونى : انهم لا ينتحرون ٠ قد رأيت كثيرا منهم يموتون ٠ ولكن الذين رأيتهم يموتون لم يكونوا أصدقائى ٠

كانت قطرات المطر فى الخارج تطقطق على شجر السياج، وفى فترات منتظمة ، قطرة أثقل ، تسقط من بعض المواسير ، فترن ، قال والتر دون أن يرفع صوته :

ـ عندما كنت طفلا ، كنت أفزع من الموت فزعا شديدا . كل سنة بعد ذلك قربتنى منه زادتنى استهزاء به ٠٠ « مساء الحياة يحمل مصباحه معه » هكذا قال جوبير على ما أظن ٠

كان والدى متأكدا من أن والتر يكذب ، فقد أحس بمس الفزع ٠ قال والتر :

ـ لماذا أبدى ديتريش رغبته فى أن يدفن دفنة دينية ٠ فهذا غريب ـ أقول فقط : غريب ـ ولا يتفق مع الانتحار ٠ ولم يكن يجهل أن الكنيسة لاتقبل الجنازة الدينية للمنتحرين الا اذا افترضت فيهم عدم المسئولية ٠

كانت تبدو عليه الغيرة من التصميم الذى مات به أخوه ـ وفى نفس الوقت الافتخار ٠

ـ ولم يكن عدم المسئولية من طباعه ، ولكنه على كل حال كان يرفض الكنيسة ، لا شعائرها ٠ وتردد ، ثم واصل :

ـ أظن ما قد جرى كان أليما حقا ٠ أنت تعرف أن الوصية كانت مختومة ٠ وقوله :

« ان ارادتى قطعا هى أن أدفن بطريقة دينية » ، كتب على ورقــــة منفصلة ، وضعت بجانب فراشه على المائدة التى وجد فيه الاستركنين ٠ ولكن هذه الجملة كانت فى البدء : ان ارادتى قطعا هى الا أدفن بطريقة دينية ، ثم شطب أداة النفى ، بعد تحويرات عديدة ٠٠ ولا شك أنه لم يكن يقوى على أن يمزق الورقة ويكتب من جديد ٠

ـ الخوف ؟

ـ أو نهاية التمرد : الخشوع

ـ وعلى كل حال ، ما الذى يمكن أن نعرفه أبدا ؟ اذا أردنا جوهر الامور ، فكيان الانسان فيما يخبئه ٠

وهز والتر كتفيه وقارب بين يديه ـ مثل الاطفال عندما يكومون الرمال :

ـ كومة صغيرة بائسة من الأسرار ٠

اجاب والدى :

ـ الانسان فيما يفعله ٠

كان يسخطه ، بتكوين مزاجه ، ما يسميه « علم النفس سرا » كما يقول « السرقة نشلا » ٠ لو فرض أن انتحار جدى « كان له سبب » ، فان هذا السبب ، وان يكن اتفه الأسرار وأبعثها على الحزن ، اقصر فى معناه من السم او المسدس ـ ومن التصميم الذى اختار به أن يموت ميتة تشبه حياته ٠

وعاود الكلام بلهجة أكثر اعتدالا : ـ فى ظل السر يسهل جدا ان يتساوى الرجال ٠

ـ اجل ، انت ما يسمونه فيما أظن رجل نضال ٠

ـ ليس النضال هو الذى جعلنى ادرك أن الانسان ، إذا اردنا جوهر الأمور ، كما تقول ، هو فيما يتجاوز اسراره ٠

وتراءى له السرير فى غرفة الموت ، قلبه رجال المستشفى الذين حضروا لحمل الجثمان ، وأعادت جان تسويته على فزع ، والتجويف الذى يشبه الأثر الذى يحدثه النائمون ، كانت الكهرباء لا تزال موقدة وكان أحدا لم يجرؤ ـ ولا هو نفسه ان يطرد الموت بأن يرفع الستائر ٠ وفى الخزانة المفتوحة كانت توجد شجرة من شجر أعياد الميلاد تكثر فيها الشموع الدقيقة ٠٠ وعلى المائدة وضعت منفضة بها ثلاثة أعقاب ٠ كان جدى قد دخن اما قبل أن يتناول الفيرونال واما قبل أن ينام ٠ وعلى طرف المنفضة نملة تجرى ٠ تابعت سيرها فى خط مستقيم وتسلقت المسدس الموضوع هناك ٠ وفيما عدا بوق سيارة بعيدة وحنطورا يخب فى الشارع ، لم يكن والدى يسمع غير صوت ساعة الحائط الصغيرة التى لم تتوقف بعد يسمع ايقاعها اللامبالى ٠ ومثله فوق البسيطة كلها ، يمتد آليا وحيا ، نظام طوائف الحشرات ، تحت الحرية البشرية ولغزها الخفى ٠ كان الموت هناك ، وكان معه ضوء المصابيح الكهربائية المقلق عندما نستشف

من خلف الستائر وجود النهار ، وكان هناك الأثر الذى لا تدركه العين ويخلفه الذين يحملون جثمان الموتى · ومن جانب الأحياء كان يأتى صوت البوق المستمر ، وخطوة الحصان المبتعد ، وصيحات عصافير الصباح ، واصوات بشر مكتومة اجنبية · فى هذه الساعة ، الى كابل والى سمرقند تسير قوافل الحير ، حوافرها ودقاتها ضائعة فى الملل الاسلامى ·

المغامرة الانســـانية ، الأرض · وكل ذلك ، مثل قدر والده الذى انقضى ، كان من الممكن أن يكون غير ما كان ·· واحس شيئا نشيئـــا باحساس مجهول يكتنفه ، كما اكتنفه من قبل ، فوق المواقع المرتفعة فى ليالى آسيا ، حضور المقدس ، بينما كانت تخف من حوله وتخفق باجنحتها الخافتة ، أطيار البـوم الصــغيرة فى صمت وسكون ·· وكما اعترته ، الا أن احساسه الآن أعمق بكثير ، الحرية المفزعة ذات أمسية بمارسيليا اذ كان ينظر الى الظلال وهى تسيل وسط رائحة هشة من السجائر والأبسنت ـ اذ كانت أوروبا غريبة عليه جدا ، ينظر اليها كما لو كان قد تحرر من الزمن فنظر الى ساعة من الماضى البعيد تسيل بموكبها الشاذ المقحم ·هكذا كان الآن يشعر بان الحياة كلها أصبحت شيئا مقحما ، والفى نفسه فجاة وقد تحرر منها ـ غريبا عن الأرض ومندهشا بها من حيث لايدرى ـ كما أدهشه هذا الشارع حيث كان بنو قومه ، بعد أن عاود العثور عليهم ، يسيلون فى العشب الأخضر ·

وقام أخيرا فرفع الستائر · وفيما وراء اللوالب العتيقة فى الباب الحـديدى الرحيب ، كانت الأوراق يانعة الخضرة مثلما هى فى مطـــالع الصيف ، والى أسفل قليلا يبدأ النبت الداكن ويستمر الى خطوط الصنوبر التى تكاد تكون ســوداء · وكان ينظر الى التكاثر اللانهـائى لهذا المنظر المبتذل · ويستمع الى الوشوشة الطويلة لبلدة ريخباخ وهى تصحو ، كما كان وهو طفل ينظر فى أبراج السماء الى الأصغر فالأصغر من النجوم حتى ترهق عيناه · ومن تواجد الناس الذين يمرون هناك ، مسرعين فى شمس الصباح متشابهين ومختلفين مثل أوراق الشجر ، بدا له كان سرا ينبثق ، سرا لا يصدر فقط من الموت الذى ما زال متربصا فى ظهره ، سرا أقل انتماء للموت منه الى الحياة ، سرا لم يكن ليكون أقل روعة فى النفس لو أن الانسـان كان خالدا ·

قال والتر : ـ لقد عرفت ·· هذا الاحساس ـ ويبدو لى أحيانا أنه سيعاودنى عندما أكون عجوزا ·

كان والدى ينظر الى هـذا الرجل فى الخامسة والسبعين من عمره

يقـول : « عندما أكون عجوزا ·· » وثبت والتر نظرته في عيني والدي ورفع يده :

ـ بلغني انك فيما مضى قد خصصت بعض محـاضراتك الدراسية لصديقي فريدريك نيتشة ، لدى هؤلاء ·· الأتراك · كنت في تورينو ـ في تورينو ، صدفة ·· ـ عندما علمت أنه قد أصيب هنـاك بالجنون · ولم أكن قد رايته ، فقد وصلت لتوي · واخطر « أوفريك » ، فسقط ، اذا أمكن القول ، من بازل الى منزلي : كان عليه أن يصطحب المسكين على وجه السرعة ، وهو لا يملك المـال اللازم لشراء التذاكر · مثلما يحدث دائما ! أنت ·· تعرف وجه نيتشه · (أشار والتر الى الصورة خلفه) ولكن الصور الفوتوغرافية لا تنقل نظرته : كانت ذات رقة أنثوية ، رغم شوارب ·· البعبع · هذه النظرة لم يكن لها وجود عندئذ ··

كان رأسه لا يزال بلا حراك ، وصوته لا يزال ينسحب الى الوراء ـ كأنه يتكلم لا لوالدي ولكن للكتب والصور الشهية المعلقة في الظل ، وكأنما ليس هناك من هو جدير تماما بأن يحدثه فيفهم ؛ أو بالأحرى كان الذين يمكن ان يحـدثهم فيفهموا له ينتمون جميعا الى زمن آخر ، وكأنما ليس هناك اليوم من يرضى أن يفهمه ، كأنما لايتكلم الا بدافع من الأدب والسأم والواجب · كان في موقفه كله ، نفس التواضع المتكبر الذى يعبر عنه مكتبه الصغير المرتفع أكثر من اللازم ·

ـ عندما صاح أوفريك ، وهو مضطرب : «فريدريك !» عانقه المسكين ثم سأله بعـد ذلك توا ، بصـوت شارد : « هل سمعتهم يتحـدثون عن فريدريك نيتشه ؟ » وأشار اليه أوفريك مرتبكا ، قال : « أنا ؟ لا ، أنا عبيط ·· »

وكانت يد والتر لا تزال مرفوعة ، تقـلد اشـارة أوفريك · وكان والدي يحب نيتشه أكثر من اي كاتب آخر ، لا للدعـوة التي بشر بها ، ولكن لما يجده فيه من سخاء في الذكاء لا نظير له ، فكان يسمع ، وهو غير مستريح ·

ـ ثم تحـدث فريدريك عن الاحتفـالات المشهودة المعـدة له · بالحسرة !·· لقد أخذناه معنا · ولحسن الحـظ كنـا قد التقينا بصديق لأوفريك ، طبيب أسنان اعتاد معاملة المجانين ·· ولم يكن تحت يدي كثير من المال ، فاضطررنا الى أن نركب في الدرجة الثالثة ·· ومن تورينو الى بازل سفر طويل · والقطار مدروز بالفقراء وبالعمال الايطاليين · ولم يخف

عنا أصحاب الغرفة التي استأجرها فريدريك انه عرضة لنوبات الهياج .
واخيرا عثرنا على ثلاثة أماكن . وظللت واقفا في الطرقة . وجلس اوفريك عن يسار فريدريك ، وميشير طبيب الاسنان عن يمينه ؛ وجلست بقربهم فلاحة ، كانت تشبه اوفريك ، لها مثله وجه جدة .. وفي سلتها دجاجة تخرج راسها بلا انقطاع ، والمراة تعيدها . شيء تفلت منه الأعصاب ، اقول ـ تفلت الأعصاب . فما بالك برجل .. مريض ! كنت اتوقع حادثة يؤسف لها .

« وخاض القطار في نفق سان جوتار وكان قد تم انشاؤه حديثا . وكان عبوره عندئذ يستغرق خمسا وثلاثين دقيقة ـ خمسا وثلاثين دقيقة ـ وكانت عربات الدرجة الثالثة بلا اضاءة . وعلى الرغم من ضجيج حديد القطار كنت أسمع ضربات منقار النجاج على عيدان السلة ، واترقب . ما العمل اذا ووجهنا بأزمة تقع في هذا الظلام ؟ »

وفيما عدا الشفتين الرقيقتين تتحركان بالكاد، ظل وجهه كله ساكنا في الضوء المسرحي المحيط به ؛ ولكن تحت صوته الذى توقمه القطرات المتساقطة من السطوح ، كان يزدحم كل ما يكمن في بعض الأحزان من ثار ونقمة .

ـ وفجاة ـ انت .. لا يغيب عنك أن كثيرا من نصوص فريدريك كانت لاتزال مجهولة ـ ارتفع صوت في سواد الظلام ، فوق جلبة عجلات القطار . كان فريدريك يغني ـ بنطق سليم وهو الذى كان يتهته في حديثه ـ كان يغني قصيدة مجهولة منا ، وكانت قصيدته الأخيرة «البندقية» . انا لا احب موسيقى فريدريك . فهي شيء لا يذكر . ولكن هذا الغناء كان .. يا الهي ! وفيما وسنيا .

« وقد انتهى من غنائه قبل أن نغادر النفق بوقت غير قصير . وخرجنا من الظلام فاذا بكل شيء مثلما كان من ذى قبل . مثلما كان من ذى قبل .. كل ذلك قد حدث .. اتفاقا .. أما فريدريك فأدعى الى القلق ، من جنة . كانت هي الحياة ، اقول فقط : الحياة .. كان ثمة حدث فريد في غاية الغرابة : كان الغناء بمثل قوة الحياة . لقد اكتشفت شيئا . شيئا هاما . ففي السجن الذى يقول عنه باسكال ، توصل البشر الى ان يستخلصوا من أنفسهم اجابة تفعم بالخلود الطاغي ، اذا أمكن القول ، كل الذين يستأهلون الخلود . وفي هذا القطار .. »

وللمرة الأولى اتسعت اشارته بعض الشيء ، وقد اتاها لابيده ولكن بقبضته ، كمن يمسح بالاسفنجة سبورة سوداء .

ـ وفى هذا القطار ، وفى بعض الأحيان بعد ذلك ، أقول فقط : فى بعض الأحيان ·· بدا لى كأن السماء ذات النجوم يمحوها الانسان بقدر ماتمحو مصائرنا المسكينة السماء ذات النجوم ··

كان قد توقف عن النظر الى والدى الذى اضطرب لبلاغته المفاجئة ، الساهيه فيما يبدو ، خاصة وأن البلاغة شيء لم يعهد فى أسرتنا · ولكن والتر كان قد استعاد لهجة الازدراء الغريبة التى يبدو كأنها تتجه من وراء ابى ، الى شخص غير مرئى يخاطبه :

ـ العشاق الذين نالوا المرام ـ يقال : نالوا المرام ، فيما اظن ؟ ـ يعارضون الموت بالغرام · لم أختبر ذلك · ولكننى أعلم أن هناك أعمالا نصمد للدوار المتولد من التامل فى موتانا وفى السماء ذات النجوم وفى التاريخ · ويوجد هنا بعض منها · كلا ، ليست هذه التحف القوطية أنت ·· تعرف راس الرجل الشاب فى متحف الأكروبول ؟ أول نحت مثل وجها بشريا ، فقط وجها بشريا ، متحررا من الغيلان ·· والموت ·· والآلهة · ان الانسان فى هذا اليوم أيضا ، قد استخلص الانسان من الصلصال ·· وهذه الصورة الفوتوغرافية ، خلفك · حدث لى أن تاملتها، بعد أن نظرت طويلا فى المجهر ·· ان لغز المادة لا يطولها ·

وكان صرير المطر ، يأتى من الخارج ، فى ضآلته واتساعه ، وهو يرق شيئا فشيئا فوق الشجر ، شبيها بصوت الورق المحروق الذى يقاوم الانكماش ، وكانت القطرة الثقيلة لا تزال تتجمع وترن وهى تسقط بانتظام فى بركة من المياه · وأصبح صوت والتر أشد نايا :

ـ ليس اللغز الأكبر أننا قد ألقى بنا صدفة بين غمرة المادة ولجة الأفلاك · بل اننا فى هذا السجن نستخلص من أنفسنا صورا هى من القوة بحيث تنكر عدمنا · وليس فقط صورا · ولكننا نستخلص أيضا ··

ومن بعض الطاقات كان ينفذ شذا الأشجار التى تقطر بالماء فى ليلة لا تزال دافئة ، يصاحبه أزيز سكون الغابات ، ويختلط برائحة الغبار الصادرة من مجلدات المكتبة الغارقة فى الظلام · وفى ذهنى والدى يختلط غناء نيتشه ، وعجوز ريخباخ ينتظر الموت فى غرفته ذات الستائر المسدلة ، وعشاء المأتم ـ والطرقات المعدنية من قبضات النعش المحمول على ظهور الرجال ··

هذا الامتياز الذى تحدث عنه والتر ، يستطيع ضد السماء ما لا يستطيعه ضد الألم ! ربما تغلب على وجه ميت ، لو لم يكن هذا الوجه وجها حبيبا ·· ما الانسان عند والتر ، سوى « كومة بائسة من

الأسرار » ، جعل لتغذية هذه الأعمال التي كانت تحيط الى أعماق الظل وجهه الساكن بلا حراك · أما عند والدى ، فقد كانت السماء ذات النجوم كلها ، أسيرة الاحساس الذى دفع برجل ، تمسكه رغبة الموت ، الى أن يقول في ختام حياة كثيرا ما كانت أليمة : « اذا كان على أن أختار حياة اخرى ، لاخترت حياتى ·· »

كان والتر ينقر باصابعه فوق الكتاب الذى اعتمدت عليه يداه · وابى يسترجع الوجه الذى لم يثبت فيه من سمات الانتحار غير الصفاء المروع وامحاء التجاعيد ونضارة الموت الفادحة ·· وراح يتطلع أمامه الى الوجه الشبيه ، وطبقات الظل الناتئة ، والعيون الزجاجية الساكنة ، وعلى المائدة ، في الضوء الساطع ، يدى والتر المرتجفتين ، نفس اليدين ولكنهما اقوى ، أيدى الحطابين من آل برجيه في ريخباخ ، شهباء الشعر والأوتار·

●

كان على والدى أن يحضر - اما بواجب الادب - واما بدافع الفضول احدى المحاورات في ساعات العصر ، فلا يعود الا في المساء · وفي الصباح اجابه بعض أبناء عمومته ، وكان قيما على شئون والتر المنزلية ، صاحب كرش خفيف ، يتوائب في طرقات الدير مثل الكرة المرحة ، أجاب عندما دفع حب الاستطلاع بوالدى الى السؤال عن علاقات عمه بنيتشه : «أعتقد أن والتر كان يلعب ، لا بالقرب من نيتشه تماما ، ولكن في هذا الوسط، دور الثقلاء النافعين ؛ فهو على جانب من الثراء يستطيع أن يتوسط من اجل وظيفة أو معاش .. وهو رجل بخيل وكريم في نفس الوقت (وليس فريدا في ذلك ··) ·

« يفخر بأنه قد أعاده الى بازل ، ولكن في هذه الحالات ، يمكن أيضا أن يعيدك البواب ·· أما الرسائل التي تسلمها من نيتشه ، وهى فخر مكتبته ، ولن يطلعك عليها أبدا ، فهى يا عزيزى الطيب ، تكيل له السباب » ·

●

عندما بدأت المحاورة ، تنبه والدى الى اى مدى كان قد أنس أن المثقفين جنس بذاته ؛ لأن تفكيرهم يبحث عن الانتماء لا عن التجربة ، ولأنهم يرجعون في أسانيدهم الى المكتبة أكثر من رجوعهم الى الخبرة ، ولكن المكتبة على كل حال أعظم نبلا وأقل ثرثرة من الحياة ·· وكان مقدرا للمحاورة أن تستمر ستة أيام وموضوعها دوام الانسان عبر الحضارات ، وكانت المناقشة عبثا لا طائل من ورائه مثل كل المناقشات الفكرية، تتوالى

فيها الخطب الفردية فلايعلق منها بذهن والدى الا شذرات خاطفة . ووقف رجل ضئيل ذو لحيـة مرتبكا فى شعره الأبيض الكث مثل مخلب قطة فى لفة من الصوف ، ليقول : «لاحظوا أن الروايات الثلاث الكبرى التى صورت فتح العالم من جديد ، انما كتب احداها عبد سابق هو سيرفانتيز، والثانية ليمانى سابق هو دستويفسكى ، والثالثة محكوم عليه بالشنق سابقا هو دانييل ديفو » . ولكن كلمة البروفسير مولبرج قد استحوذت على اهتمامه حقا .

وعلى الرغم من لقبه كان مولبرج قـد انقطع منذ وقت طويل عن تدريس الانثولوجيا . وكان عائدا من بعثة إستغرقت ثلاث سنوات الى افريقيا : فى جنوب شرق إفريقيا الالمانى وفى أراضى الجرامنت التى يشرف عليها الاتراك . وقد سنحت لوالدى فرصة تسهيل مهمته ولكنه لم يكن قد التقى به ابدا . جمجمة محدبة وعيون مائلة وآذان حادة : كان يشبه الخفاش ، مصاص الدماء فى الأدب الرومانسى الألمانى ، وكانما هبط من مملكة الأساطير فى زى جديد . وقد أثار التشويق والاهتمام عندما قام بتلخيص بعض أعماله الخاصة بمجتمعات ما قبل التاريخ .

« فوق الكهنة الحاكمين ، كان الملك . يتصاعد سلطانه مع القمر : يختفى عن الأنظار فى أول الأمر ، ثم يلوح عندما يهل الهلال يمنح الرتب الطفيفة .. وأخيرا يكتمل بدر التمام فيجعل منه الملك الحق سيد الحياة والموت . وعندئذ يصبغ بالدهان أو يطلى بالذهب (ويبدو فى أغلب الظن مثل الملوك السابقين على اكتشاف كولومبس) ويتزين بالكنوز الملكية ويضطجع على سرير مرتفع فيتسلم الغسل المقدس وبركات الكهنة . ويتولى القضاء ويأمر بتوزيع الغذاء على الشعب ويتوجه الى الكواكب بالصلاة الرسمية للمملكة . كل شىء تمام !

«ويأخذ القمر فى النقصان : فينزوى فى قصره . وعندما تاتى الليالى المظلمة بلا قمر ، لا يحق لأحد أن يكلمه . ويصبح اسمه محرما فى أرجاء المملكة كلها . يلغى ! ويمنع من رؤية النهار . محتجبا فى الظلام ، حتى عن الملكة ، يفقد الامتيازات الملكية . لا يصدر الأوامر . لا يقبل الهدايا ولا يرسل شيئا منها . لم يتبق له من صفاته غير هذا الاعتكاف المقدس . وفى الشعب كله ، كان الحصاد والزواج والولادة مرتبطة جميعا بهذه الأحداث .

«والاطفال الذين يولدون فى أيام غياب القمر يقتلون عند ميلادهم» ورفع أصبعا جافة ، حادة مثل أذنيه .

« ويتم الاحتفال بزفاف الملك والملكة ـ وهي دائما أبدا أخته ـ فوق برج من الأبراج ، وكانت العلاقات الجنـــية بين الملك ونــائه الاخريات مرتبطة بحركة الفلك • فمثلما كانت حياة الملك مرتبطة بالقمر ، كانت حياة الملكة الأولى مرتبطة بالزهرة ـ كوكب الزهرة طبعا ـ !

« والآن ، انتباه ! عندما تنقلب الزهرة من نجمة مسائية الى نجمة صباحية كان الفلكيون كلهم بالمرصاد • فاذا صادف أوان انقلابها خسوف القمر ، اقتيد الملك والملكة الى مغارة في الجبل .

وهناك يتم خنقهما •

« وهما لا يجهلان ما يراد بهما ، مثلما لا يجهـــل الطبيب المصاب بالسرطان مآل اصابته : مرتبطان بالسماء مثلما نحن مرتبطون بفيروساتنا• ويتبعه في الموت أكابر القوم كلهم تقريبا • يموتون بموت الملك مثلما نموت بجلطة في القلب .

ويعامل جثمان الملك بأسمى آيات الحنان ، الى أن يبعث مع الهلال في هيئة ملك جديد •

ويعود كل شيء دورته

« هكذا »

كان يبدو في هذه القاعة المثلثة بالكتب حتى قبابها وكأن افريقيا تفكر بصوت مرتفع •

« وذلك كله يمس الأزمنة التاريخية : أنتم تعرفون أن ممثلا للملك كان يختنق على رءوس الأشهاد بالميدان الكبير في بابل عند ميلاد السنة ؛ وفي هذه الأثناء كان الملك الحقيقي ، القادر على كل شيء ، يجرد من ثيابه ويهان ويضرب في ركن مظلم من قصره •• » •

«لاتفكير في أن يتشبه هذا الملك باله من الآلهة أو بولي من الأبطال • هو الملك كما أن ملكة النمل الأبيض هي الملكة • هذه الحضارة تحيا في قدرية مطلقة • لا يقتلون الملك تضحية لقمر ـ اله : فانه هو ذاته وهو القمر في نفس الوقت ، كمـــا أن الرجال الفهود في السودان هم أنفسهم هم الفهـــود ـ وعلى وجه التقريب وبكل بســاطة ، كما ان الأطفـــال هم الأطفال ودارتانيان .

نحن في مجال كوني ، في المجال السابق للأديان • وربما لم يتصوروا بعد فكرة خلق العالم • القتل يتم في سحيق الأزل • الآلهة لم تولد • »

وبعد أن قام بتحليـل لـ «هياكل العقلية الكبرى» التى تتألف من تتابعها ، فى نظره ، مغامرة البشرية ، خلص الى النتيجة التالية : « سيان تعلق الأمر بالارتباط الكونى فى هذه المجتمعات أو بالله فى الحضارات ، فان كل هيكل عقلى يختص بصفة المطلق الذى لا يمكن الطعن فيه ، بديهية فريدة ترسم للحيـــاة نظـامها ولا يمكن للانسان بدونها أن يفكر ولا أن يعمل • (بديهية لا تكفل للانسان بالضرورة حياة أفضل ، بل قد تسهم فى القضاء عليه ، بكل تأكيد !) • وهى للانسان مثـل الحوض للسمكة التى تسبح فيه • لا تصدر عن الذهن • ولا صلة لها بتـاتا بالبحث عن الحقيقة • هى التى تأسر الانســـان وتتملكه ؛ أما هو فلا يتملكها كاملة أبدا • ولكن ربما صـــارت الهياكل العقلية الى اختفـــاء بلا رجعة مثـل البليزيوصور ، ربما كانت الحضارات لا تفيد شيئا الا فى أن تتتابع لتلقى بالانسان فى برميل الدنائيد ؛ ولعل المغامرة الانسانية لا يستقيم لها البقاء الا مقابل تحول لا يعرف الهدوء ؛ ولا يهم اذن فى كثير أو قليل أن يتناقل البشر لبضـعة قرون مفاهيمهم وحرفياتهم : فالانسان صدفة ، والعالم ، فى الجوهر ، قد صنع من النسيان »

وهز كتفيه وردد مثل الصدى :

« من النسيان •• »

« الانســان الأساسى حلم مثقفين يختص بالفلاح : حاولوا ولو قليلا أن تحلموا بالعامل الأساسى ! هل تريدون ، للفـــلاح ، الا يكون العالم مصنوعا من النسيان ؟ الذين لم يتعلموا شيئا لا يملكون شيئا لينسوه • الفلاح الحكيم ، أنا أعرف ماهو : ليس هو بالتأكيد الانسان الأساسى • لا يوجد انسان أساسى يزاد ، وفقا للعصور ، بما يفكر وما يعتقد : يوجد الانسان الذى يفكر ويعتقد ، أو لا يوجد شىء • انتبهوا ! » •

وأشار ، على الجدار الرئيسى حيث كان فى الماضى صليب ولا شك ، الى نقش لمقدمة سفينة ، تم تلميعه بعناية ، صورة عمود أطلـى فيـه مافى التماثيل البحرية من أسلوب عريض الاتســاع قليل البراعة ، ومن فوقه قديســان قوطيان نحتا من نفس الخشب الداكن • « هـذان التمثالان القوطيان وهذا النقش لمقدمة السفينة ، قد صنعت كما تعلمون من نفس الخشب • ولكن تحت هذه الأشكال لا توجد شجرة الجوز الأساسية ولكن قطع من الحطب •

خارج الفكر ، لديـكم تارة كلب وتارة نمر ، أو أسد اذا أردتم :

بهيمة دائما · ليس بين البشر من شيء مشترك الا أن يناموا عندما يناموا بلا أحلام ـ والا أن يموتوا · ماذا يهم دوام العدم، اذا كانت مثابرة أفضل الناس لا تنال الا أقرب الأشياء الى الزوال ··

قال والتر :

« ان هذه المثابرة على الأقل باقية ياعزيزى البروفسير · ثمة شيء من خلود يبقى في الانسان ، ـ في الانسان الذى يفكر ·· شيء أسميه نصيبه الالهى : هو استعداده لان يجعل الدنيا موضع سؤال ··

ـ سيزيف أيضا خالد ! »

وبعد أن انتهى الحديث ، سأل بعضهم مولبرج ، في البهو الشاسع، عن موعد ظهور مخطوطه :

ـ لن يظهر ابدا · الخلاصة أنها كانت معركة مع افريقيا · تمام ! ان أوراق المخطوط تتدلى على الغصون الدانية من مختلف أنواع الشجر فيما بين زنجبار والصحراء الكبرى · فكما هى العادة ، يحمل المنتصر أسلاب المنهزم ·

ومضى والدى عبر الحقول · وكانت تمتد وراء الدير بين كتلتين من الغابات ترقشها نجوم الشيكوريا البرية بزرقة هى نفس زرقة السماء فى هذه الأمسية ـ سماء قد أصبحت الآن شفافة مثلها فوق المرتفعات العالية وانحرفت اليها غيوم عارضة · وكل ما يصعد من الأرض يخلد الى السكون المشع ويسبح في ذرات بدايات الأصيل · والأوراق مازالت تبرق فى الهواء المرتعش يرف بآخر التيارات الرطيبة المتولدة من الأعشاب والعوسج · وحلم والدى بأنه لو كان فى كابل أو فى قونية لما دار الحديث الا عن الله ·· كم من مرة حلم ، وهو فى أفغانستان ، بما يريد أن يلقاه أولا : رائحة دخان القطارات والاسفلت تحت الشمس والمقاهى في الليل ، والسماء الغائمة فوق المداخن ، وأحواض الاستحمام ! كان يهبط من البامير والابل الضالة تنادى من خلال الغمام ، أو كان يعود من رمال الجنوب وصراصير الغيط أضخم من الجنبرى تنصب فى القتاد عند مرور القوافل قرون استشعارها على مثل خوذات الفرسان ، فيبلغ الى مدينة بلون العظام البالية · وتحت باب من الصلصال تنشز منه عروق الخشب ، خيالة فى أسمالهم يحلمون · وقد مدوا السيقان على ركائب السروج ؛ وعند أقدام المساكن المحتجبة مثل النساء تلمع جمجمة حصان وسفا أسمال شفافة ، فى رمال الشوارع الخالية من النوافذ · لا ورقة واحدة فى الخارج ، ولا

اثاث فى الداخل : الجدران والسماء والله · وبعد شهور قضاها فى آسيا الوسطى ، على خبب الخيـــول الأفغانية بلا انتهاء ، كان يحـلم بأسيجة مزركشة بالاعلانات أو بمتاحف لا ينضب معينها ، تغطيها الصــور حتى السقف ، مثل حوانيت تجار اللوحات كما جاءت فى الرسوم الهولاندية · ولكنه عندما التقى بمارسيليا من جديد ، فى غبار ازرق مثل الغبار الذى يتصاعد فى هذا المســـاء من نهر الرين ، اكتشف أن أوروبا ، انما هى « فتارين » محلات ··

بعض هذه «الفتارين» كان مالوفا له : الصيدليات والتحف البرونزية ومحلات الجزارة والبقالة ، والفكهانية والخضرية (ولــكن ما اشد حمرة اللحوم وما أصفر ثمار الخوخ وما أشحب لونهـا !) وادهشته ، لبضع دقائق ، «فتارين» اخرى: واجهات البيديكير والساعاتية والمجبراتية والأزهار والشدات وفترينة حلاق عليها اعلان لم يره من قبل أبدا : «ذؤابات من الشعر المستعار» ، ـ وفترينة أكاليل للعزاء .. والنساء يتطلعن فى مرآة كبيرة وهن عابرات · لديه الآن من الوقت ما يكفى ليتفحصهن : فاجاه تخلع مشيتهن وتبرج الفساتين الملتصقة التى لم يكن قد شاهدها فى أوروبا من قبل والتى كان الاســـلام يجهلها · كان يذكر أكمام الكلوش المكشكشة ويلتقى الآن بسرارى يلبسن التوكة أو القبعة الكبيرة واقدامهن المقيدة تنقل خطواتها مثـــل أرجل الصينيات المشوهة ، بين الاحذية من ذوات الرقبـــة وما أكثر هـــذه الأحـذية ! تحت بناطيل بمربعات صغيرة وبرانيط من القش والخـوص ·· لا توجد مسلمة تلبس قبعة · وكانت الفة هؤلاء النسوة بأزيائهن الكرنفالية ، تضفى على كل وجـه يلمحه ، الاعتداد الشارد الذى تتميز به وجوه المجانين · ولكن أوروبا قد وجدت فى غياب الحجاب الاسلامى ، رؤية الوجوه وطهارة مؤلمة · لم يكن العرى هو الذى رســم هذه الوجوه ، ولكنْ العمل والقلق والضحك ـ الحياة ، سافرات ·

هل لأن المودة فى ستة أعوام قد غيرت الأزياء ، أم بســـبب لهفة صماء تجيش تحت التكاسل فى المســـاء لقد وقف والدى أمام الجمع الأليف له فيما مضى ، يخلط رؤيته من حوله ، مساء «الميناء القديم» بما فيه من عصيان ومانيكانات ذات شوارب ورقصات تانجو وسفن حربية فى البعيد ، فبدا له كانه لا يدخل الى أوروبا فحسب ، ولـكنه يدخل أيضا فى الزمن · ملقى على بعض شطآن العــدم أو الخلود ، كان يتأمل سيلها المدلهم ـ منفصلا عنه مثل انفصــاله عن الذين عبروا ومضوا بهمومهم المنســـبة وحكاياتهم الضائعة فى شـوارع بابل أيام أسرها الأولى ، فى

الواحات التي تشرف عليها أبراج السكون · ومن خلال الموسيقى ورائحة الخبز الساخن ، تحت ربات البيوت الحطى ، والشبكة تحت اذرعهن ، ويثبت بائع الألوان الواح كشكه التي تباطا فيها شعاع أخير ؛ وكان صفارة الباخرة تتأى على مستخدم يلبس الطاقية ، وهو يحمل المانيكان على ظهره ليعود به الى داخل حانوت ضيق يغص بالظلال — فوق الثرى ، فى أواخر الالف الثانية من التاريخ الميلادى ··

والشمس تغرب فوق الألزاس ، وتشعل ثمار التفاح فى أشجاره · لكم تبع السؤال السؤال ، تثيره نفس الحماسة ، تحت قباب هذا الدير · والفكر الذى راح صدى كالبساتين التى تبعث من جديد ولا ينضب معين البعث فيها ، يضينها دائما نفس القلق وكانه نفس الشمس ! فكر الماضى وافريقيا وآسيا ، فكر هذا اليوم من ايام الصيف الممطر المشمس وكانه صدفة فى الأيام دخيل عليها ، ـ مثل الجنس الأبيض فى ليل مارسيليا ، مثل جنس البشر وراء نافذة الغرفة الجنائزية ، لغز الحيـــاة المضطرب المبتذل فى مضاءة الفجر القلقة ··

كان قد بلغ الى الأشجار الكبيرة : الصنوبر الذى اكتنفه الليل وما زالت تلمـــع فى طرف كل ابرة منه قطرة شـــفافة ؛ والزيزفون يضج بالعصافير · واجل هذه الأشجار جوزتان ، فتذكر تماثيل المكتبة ·

جوزتان ينبعث من كتلتيهما امتلاء الأشجار العريقة ، اما الجهد الذى تخرج به الفروع الملتوية من جذوعها الضخمة ، وأما ازدهار الخشب الذى اينعت فيه الأوراق الداكنة وهو العجوز الثقيل كانه يغوص فى الأرض ولا ينتزع نفسه منها ، فقد كان يفرض على الذهن فى نفس الوقت فكرة ارادة تعمل وتحول الى ما لا نهاية · والتلال بينهما تنحدر الى نهر الرين، ويحيطان بكاتدرائية ستراسبرج النائية فى الغسق البهيج ، مثلما تحيط جذوع أخرى كثيرة بكاتدرائيات أخرى فى حقول الغرب · وهـذا البرج المنتصب فى صلاته المبتورة ، وصبر الانسان ودأب الانسان فى العمل قد انتشر أفواجا من الكروم حتى النهر ، ليس الا زخرفا مسائيا من حول نماء الخشب الحى على امتداد القرون ، حول كل من هاتين الشجرتين كأنها دفقة انبثقت كثيفة مفتولة تنتزع قوى الأرض لتبذلها شعابا · والشمس دانية تمد ظلها الى الجانب الآخر من الوادى ، مثـل شعاعين غليظين · وكان والدى يفكر فى التماثيل وفى نقش السفينة ؛ ويرى الى الخشب المتشنج فى هاتين الشجرتين كيف كان ، بدلا من أن يحمل عبء العالم مثل الاله أطلس ومثل القديسين ، يزهر فى حياة خالدة ، فى أوراقهما اللامعة

على السماء وثمارهما التى توشك أن تنضج ، وفى كتلتهما المهيبة القائمة فوق حلقة واسعة من أصول النبت الجديدة وثمار الشتاء الميتة ٠ «الحضارات أو الحيوان .مثل التماثيل أو عيدان الحطب» .. بين التماثيل وعيدان الحطب ، كانت هناك الأشجار وتصميمها الغامض مثل تصميم الحياة . يتوه فيها الذهن وتتوه صورة أطلس والقديسين تجتاح وجهيهما حرارة الايمان القوطية ، ويضيع بالمثل كل ماسمعه والدى منذ حين - تواروا جميعا ودفنوا فى ظل هذا التمثال السمح الذى راحت قوى الأرض تنحته لنفسها وراحت الشمس على سفح التلال تمده فوق هموم البشر حتى الأفق ٠

كانت قد انقضت اربعون عاما لم تعرف فيها أوروبا الحرب ٠

- ٢ -

١٩٣٤/١٩٥٠/١٩٦٥

هنا ، لا أتوقع أن أعثر الا على الفن ، والموت ٠

من النادر أن تقدم لنا المذكرات اللقاء بين المؤلف والآراء التى ستجتاح او تقود حياته ٠ جيد يشرح لنا كيف اكتشف أنه لوطى ٠ ولكن كاتب سيرته هو الذى يحاول أن يشرح لنا كيف اكتشف أنه فنان ٠ وفى ذهنى ـ فى ذهن معظم المثقفين ـ أن هناك آراء ، لقاؤنا بهـا محسوس موجود مثل وجود الكائنات ٠ وأستخدم كلمة لقاء عمدا؛ لأن التفكير سيتم فيما بعد وسينمو فيما بعد ٠ على أننا نستشعر فى الحال خصوبة هذه الآراء التى كانت تدعى فى الماضى الهاما ٠ وقد التقيت فى مصر بالآراء التى ظلت لمدة سنوات تحكم وتوجه تفكيرى فى الفن ٠

ولد اولها من أبى الهول ٠ ولم يكن قد تخلص من الرمال ٠ ولم يكن مطمورا مثل عام ١٩٣٤ ٠ ولكنه لا يزال يتحدث بلغة الأطلال التى أخذت تستحيل الى مواقع أثرية ٠ فى عام ١٩٥٥ ، كتبت وأنا أمامه :

« ان التحلل ، وقد دفع بملامحه الى حدود التشويه ، أضفى عليها هيئة أحجار الشيطان والجبال المقدسة ، وانهدال التسريحة يحيط من الجانبين ، مثل جناحى الخوذات البربرية بالوجه الرحيب المستهلك يطمسه أيضا اقتراب الليل ٠ هى الساعة التى تحيى فيها أقدم الأشكال المحكومة الموضع الذى شهد حديث الآلهة ، وتطرد المتسع الشأنه وتحكم المجرات التى يبدو كأنها لا تخرج من الليل الا لتتجنب دوارا حولها ٠

« ما هو اذن الشىء المشترك بين المناولة التى ملأ بها غسق العصور الوسطى أبهاء الكنائس ، والختم الذى وسمت به المجاميع المصرية اتساع البراح : بين كل الأشكال التى التقطت نصيبها مما لا يدرك ولا يطال ؟

الواقع ، ان لديها جميعا ، وبدرجات متفاوتة ، مظهرا ؛ وهناك شيء آخر ، موجود ليس مظهرا . ولا يدعى دائما الله · والتآلف بين ضلال الانسان الأبدي وبين ما يحكمه أو يجهله ، يمنح هذه الأشكال قوتها ونبرتها : تسريحة أبي الهول الناتئة تتآلف مع الأهرام ، ولكن هذه الأشكال العملاقة تصمد معا من الغرفة الجنائزية الصغيرة التي تغطيها ، ومن الجثمان المحنط الذي كان من مهمتها ان توحده بالأبد » ·

وعندئذ ميزت بين لغتين كنت اسمعهما معا منذ ثلاثين سنة · لغة المظهر ، لغة جموع كانت بلا شك تشبه تلك التي اشاهدها في القاهرة : لغة الزائل · ولغة «الحقيقة» ، لغة الخالد والمقدس · ان مصر بلاشك قد اكتشفت المجهول في الانسان كما يكتشفه الفلاحون الهندوس، ولكن رمز خلودها ليس منافسا لشيفا الذي يعاود ، على راس آخر أعدائه وجثمانه المسحوق ، رقصته الكونية بين الأفلاك ، انه أبو الهول · وهو حيوان خرافي ، تزيد من بعده عن الواقع التشويهات التي جعلت منه رأس ميت شاهق · ولكنى اكتشفت ان هذه حقيقة أيضا في الكاتدرائيات وفي مغارات الهند والصين ، وأن الفن لا يتبع عرض الشعوب الزائل ، منازلهم ومتاعهم ، ولكن الحقيقة التي ابدعوها تباعا . لايتبع القبر ولكن يتبع الأبدي الخالد · كل فن مقدس يعارض الموت ، لأنه لا يزخرف حضارته ولكن يعبر عنها وفقا لقيمه العليا · لم اكن اسمع عندئذ في كلمة مقدس، رنينا جنائزيا · وكان الانتصار الاغريقي يتبدى لى مثل ابي هول صباحي· لا تبقى ولا تدوم الا واقعيات ما وراء الدنيا ، وقد اكتشفت أنه ، اذا أخذنا الفنون جملة ، فحتى الفن الحديث حيوان أسطوري · ورحت أكتشف هذا ، طوال سنوات عشر ·

في هذا الوقت كان أبو الهول يشرف من عل ، على القرية والمعبد الصغير · وكانت اقدامه لا تزال مختفية في الأرض مما يضفي عليه روح الجبال المنحوتة · ولكن الأطلال الحقيقية التي كانت تصل وتوحد بين المعابد المقوضة وسجون «البيرانيز» المهجورة ، التي تسند مشانقها فوانيس شاهقة ، هذه الأطلال تتحول شيئا فشيئا الى مواقع اثرية · لن نشاهد ابدا أبا الهول مدفونا ، يجثم بعض الجنود فوق أذنيه ، مثل جنود بونابرت أو نلسون ؛ ولا أثينا » التي لم تكن ، يا للأسف ! الا قرية البانية ! » ولن نرى لأمد طويل تماثيل أبي الهول الغائصة حتى اعناقها في الصحراء النوبية ، ولا التي نهشتها الريح الرملية حتى اضحت رءوسها اشبه بجذوع أقدم اشجار الزيتون ··

●

قد اصبح من الممكن اليوم ، الوصول الى غرفة فرعون الجنائزية ، فى الهرم الكبير ٠

قيل ان هتلر قد استلهمها فى بناء الغرفة التى كان يأوى اليها فى نورمبرج ليستجمع أفكاره قبل خطبه فى الستاد ٠ واعمدة البناء النازى تشبه بالفعل أعمدة معبد الجرانيت الذى رفعت عنه الرمال ، امام ابى الهول ٠ ولكن الطريق الذى يؤدى الى قبر فرعون لا يشترك فى شىء مع الطريق الذى تحفه من الجانبين الأعمدة الهندسية فى نورمبرج ٠ هو أولا المتاهه المبهمة التى أخلاها لصوص المعابد ، من النهابين المصريين والنهابين الاسلاميين فى خدمة الخلفاء المجانين ، وبالاخص النهابين القدامى الذين كانوا يعسون نحو ذهب الموت ، تحت بصيص المشاعل ، وطريقهم فجوات بين الحجارة المتقاربة ، مثل دهاليز ما قبل التاريخ ، ونتوقع أن نلمح فوق الصخور الثيران التى امحت رسومها فى مغارات «فونتدىجوم» بنت الآلاف الشائهة من السنين ، عندما يظهر الرواق الفرعونى الوعر الذى لايمكن للانسان أن يدخله واقفا والذى يصعد فى الليل مستقيما .

وفى الصعيد ، عند نهاية ممرات أضيق من هذا ، عثروا على هياكل لصوص الكنوز الذين لم يتمكنوا من الالتفات الى الوراء ، وقد حصروا بين الحواف التى علتها تماسيح صغيرة محنطة ، وضعت فوق بعض مثل الزجاجات٠٠

لعب القدر بالنواويس الملكية وكانها قطع دومنو يخلطها بحركاته العمياء ٠ فى طيبة ، وبالمثل هنا ٠ فى ظل الأسرة الثانية والعشرين ، عنى الكهنة بموميات ملوك طيبة العظام فاعادوا تقميطها وتجميعها فى بعض المقابر ٠ وفى نهاية القرن التاسع عشر ، تم اكتشاف «ثلاثة وثلاثين من الملوك والملكات والأمراء ورؤساء كهنة أمون ــ وعشرة أفراد من طبقة أقل أهمية ٠٠ » وصعدت النيل مركبة محملة بالفراعنة ، وعند مرورها أعولت النساء وقد حللن شعورهن مثلما يفعلن فى الجنازات . واثناء عمليات النقل ، وضعت بعض الأجسام فى غير توابيتها ٠ وبين أغطية التوابيت التى عثروا عليها ، كان يوجد غطاء تابوت رمسيس ٠٠

فى العام الماضى ، ذهبت للتفتيش على مجال الظلال المهجورة فى فرساى : «فينيسيا الصغيرة» التى كان يسكنها أصحاب الجندول فى القناة الكبرى ، والآثار الباقية من الحظائر بحيواناتها الحجرية ، وآثار المتاهة بوحوشها الخرافية من الرصاص ، ومسرح التريانون الصغير حيث مثلث مارى انطوانيت «حلاق اشبيلية» امام اصدقائها (وبومارشيه الذى اعيد بعدها الى الباستيل) . أما المخازن الخاصة بديكورات هذا المسرح الصغيرة جدا ، فكانت كبيرة ٠ وبدا لى كان أبوابها لم تفتح منذ أيام الثورة . وجاءتنا صبية صغيرة ، ضفائرها مثل القرون الدقيقة ، بمفتاح ضخم ٠ وتمكن العمال من جذب المصراعين ٠ وبين نوبات السعال تفجر

التراب في الفناء الذي تزرع فيه نساء المعاونين ازهار الجيرانيوم على نوافذهن ، وسقط عريش تعلقت به خيوط العنكبوت كأنها قلاع سفينة المحكوم عليهم بالاعدام ؛ سقط على البلاط فقفزت بين الديوك الرومية ، تماثيل آلهة الحب السوداء ذات الأجنحة الفضية ، وصاح امين المتحف .

ـ يجري البحث عنه منذ خمسين عاما في قصر الانفاليد : انها المركبة التي حملت نعش نابليون !

وبعد ان تم تنظيفها ، لم تعد تشبه الا عربة الموتى التي تقدمها برليوز تعبث ريح الشتاء بشعره الأثيل وراء الستة والثلاثين من السروج المطهمة السوداء ... وفي هذا الدهليز الذي يصعد في الليل مستقيما ، قريبا من اهرامات بونابارت ، افكر في اليوم الذي فض فيه نابليون اول بريد يصله في سانت هيلين ـ ليجد ، بدلا من الصحف التي كان ينتظرها حزما من الرسائل الغرامية بعثت بها النساء اللواتي يعرضن عليه أن يشاطرنه حياته ...

●

هذه هي الغرفة الجنائزية التي يرجع جلالها الى النسب والى الدقة العبقرية في المعمار ـ فهذه الأحجار ، مثل أحجار الصروح المكسيكية ، تبدو كأنها قصت بالموسى ـ والى طابع المكان المغلق المشئوم . نحن نصعد منذ وقت طويل ، والهواء قليل الكثافة مثله في المخابيء الدرية . ولكن غرف المخابيء توجد في أعماق المغارات ، وأعمدتها بلا نهاية ، تتلاشى في الظلمات اعاليها التي انعقدت من قبل آدم ، وفوانيس سيارة دخيلة تنعكس على القفازات ذات الكم الأبيض في يد جندي لايتحرك . أما هنا فالهرم الذي يطوقنا يضفي الجلال ، بهندسته الخالقة ، على نقاء الغرفة الجنائزية ونقاء الموت . لقد دمر الناووس أو سرق فيما مضى ، يعلن الحوض المهدم عن غيابه ، فكان خيرا مما لو وجد ، في تآلفه مع هذه الجدران التي لايتطرق اليها الفساد . ويتجه الفكر الى الأقصوصة الهندية التي تروى عن أمير يشيد لمدة سنوات بعد موت زوجته الحبيبة ، اجمل ضريح في العالم . وعندما تم البناء ، جيء بالتابوت ، فانهدم التناسق في الغرفة الجنائزية . قال الأمير « احملوه ... » هنا يكفي الضريح : انه ضريح الموت . ان مغاراتنا بصوانها المنحوت وبمقاليعها تذكرنا بان الانسان قد اخترع الآلة ـ ولكن مصر هي التي تذكرنا بانه قد اخترع القبر .

كان النزول الى غرفة هتلر عن طريق سلم حلزوني من المرمر الأشهب على ما اظن . وبالقرب من الاسوار التى مازالت قائمة تضرب نطاقا حول لورمبرج المهـــدمة ، حيث لم تعد دباباتنا تهتدى الى الميـادين العامة ، استقبلتنا بعض الهياكل العظمية فى احدى الشرفات : هياكل متحف التاريخ الطبيعى أصابه صاروخ فخرجت من خزائنها تحت ضغط الهواء. ولم يكن الستاد مهدما . فقوادم الجانبين التى كانت تشتعل فوقهـا النيران بينما يتحدث هتلر ، والمنبر ، بل الدهليز الضخم الشبيه بمعبد الجرانيت ، كانت لاتزال قائمة . ولمة قطع ملتوية من النسر البرونزى وقعت من الواجهة العليا وتناثرت فوق الأرض التى عاث فيهـــا قديما شياطين المانيا وآلهتها . وكان الرايخ الثالث قد انطفأ مع اشعة الفوانيس، التى سدت السماء السوداء فى الساعة التى اوقدت فيها النيران . سكون العصر ، ســكون المدن المهدمة التى دفنت جثثها . وسرنا على الســـلم الحلزونى وقد اعترانا خوف غامض من أن يكون ملغما . وبعد قليـل ، أصبحت مشاعلنا الكهربائية بلا فائدة : فقد كان هناك ضوء احمر يأتى من الاعماق وترنيـم جوق ضعيف يتصاعد نحونا كانه صوت هذا الحريق الضئيل . وكان أرض المدينــة المســكونة ، ارض فرســـان رؤيا يوحنا والذكريات الهتلرية ، قد أرادت ان تحتفظ بصدى من الكارثة الكبرى ، والنــــازلة الوهاجة التى اجتاحت أوروبا حتى ستالينجراد والتى تضرم الآن برلين : خزانات البنزين مثل مواقد حطب الآلهة الهنــدوس تمتد سحبها السوداء الى عشرات الكيلومترات ، ومزارع يعكس الجليد حريقها فى أغوار الليل ، ومدائن تحت القنابل الفوسفورية • كنـا نهبط نحو الضيـاء الســاكن المقدس مثل هذه النار التى رأيتها فى عزلة جبال فارس حيث كانت ترتفع فيما مضى محاريب المجوس • وبدا لنا كاننا نهبط ، لا نحو مكتب الدكتاتور ذى الطابع الأسطورى المبهم ، ولكن نحو هيكل من نار صاحبه طوال السنوات مثلما كان حطب الوقد الصابر ينتظر هرقل. ينتظره وهو يغنى • لا بطرقعة اللهب ، ولكن بالوهوهة التى تصاحب توهج فرن الخباز . وكان هذا الغناء يسرى فينا ، مثل بركات تأتى من بعيد . والبشاعة التى عرفناها (كنا قد فتحنا بعض معسكرات الاعتقال) بقيت فى الســـتاد مع المدن التى تحولت الى اكوام من الحصى والقطع المزقة من النسر البرونزى الكبير • أما هنا ، فكان شفق سماء بلا زجال ، يغنى فى أعماق الليـل ، تهنئــة لايمكن تفســيرها ، لوفاة المانيـا .

كنـا نهبط ، وفيما وراء الدرجات الأخيرة التى بدت كانها تغطى انقاض مرآة واسعة حمراء ــ طالعتنا أكوام من علب السردين المفتــوحة تضيئها المصابيح الكهربائية ذات الأباجور الصغير القرمزى ، هل كانت

مصابيح هتلر ؟ ـ وضوضاء جنود سود وصلوا مع أولى الوحدات الأمريكية يرتجلون رقصة شعائرية وهم يغنون بفم مطبق أنشودة رائعة . غناء المزارع عند هبوط المساء ، ترنيمة الهم والاحزان ابتكرها فيما مضى بعض عبيد الجنوب وهو يستمع الى نولى بمجداف ، كانت لاتزال تصل الينا ، تائهة ، عندما لحقنا بالعمدان الهندسية التى تحاكى عمدان معبد الجرانيت .

كان الربيع ، لانى فى اللحظة التى تركت فيها دهليز لصوص المقابر ، وجدت النيل وضبابه الرملى ، وحملت الى الذاكرة ، تحت الهياكل المعلقة بالشرفات ، صورة امرأة سمينة وحيدة تهتز فوق حصى نورمبرج الخاوية ، مبتسمة وقد امتطت دراجة محملة بأزهار الليلق ...

أشجار البونسيانيس مزهرة فى القاهرة بلون اللهب . كنت قد نسيت تقريبا هذا اللون الذى يذكرنا بالبلاد الدافئة ، مثلما تذكرنا رائحة الأفيون بالصين ، كما نسيت انى لم اشاهد هذه البلاد ابدا فى هذا الفصل من السنة . اكاسيا بلون الورد وجهنمية تتدحرج وثلاث زهور قرمزية على شجرة رمان فى فناء بحمرة الصدا ، كما فى أصفهان .

هذا هو المتحف . منذ ثلاثين سنة كان يمتد امامه ميدان من هذه الميادين الخالية التى جاءت بها انجلترا ، رغم خبرتها بساحات النخيل ، الى العالم الاسلامى . وكان التراب النائم يتفق مع الظلال التى جاءتنى ، فى احدى الليالى ، متتابعة ، تعرض على بطريقة ساهية ، بعض الصور الفوتوغرافية الخليعة ، كما كان يتفق مع فندق شبرد القديم الذى نزلته قبل ان ارحل عنه فى الفجر ايام ذهبت انا وكورنيليون للبحث عن اطلال سبأ . وفى عالم من الوبر والتراب كانت تماثيل اخناتون تبزغ من حمرة الجدران بقوة غريبة ، على هامش شعب يسير نائما ؛ وباشواته الغارقين فى اللهو ومدنية موتاه .

وقد عدت منذ عشر سنوات ؛ ووجدت متحف التراب والميدان الخلوى . وهو اليوم ميدان التحرير ، والقاهرة الجديدة النابضة تنتصب من حولى ناطحاتها القصيرة ، وفندق هلتون الضخم الذى يعارض بصورته الخاصة عن مصر ، تحويم حدأتى حورس فى السماء على مهل . وفى طرف الميدان حيث تمرح نوافير المياه ، نفس الوجود الروحى يملأ هذه القاعات التى كان من الممكن ان نعتبرها ريفية ؛ لولا انها تجمع بعضا من الاعمال العظمى فى تاريخ البشرية ـ وجود روحى وشىء آخر أكثر غموضا عند افتتاح المتحف عام ١٩٠٠ : شاهد الصحفيون فجاة الرسميين بالطربوش

والريدنجوت يفرون وقد قطعوا خطبهم : ان مومياء رمسيس الساحر الماساوى ، براس البيغاء وخصلة شعره الأبيض فى الهواء ، كانت تخفض نحوهم ذراعها متمهلة ..

شعاع من الشمس وصل الى المومياء فانبسط المفصل وتحرر الساعد الذى كان يحمل الصولجان فيما مضى .

كم زرت من المتاحف المتروكة فى الوبر المنهوش ، من متاحف المستعمرات الانجليزية حيث كانت العصافير المصبرة ترقب دوار رقصات الموت الساكنة ، الى مجموعات بريتانى حيث تتكدس نماذج المراكب التى كان يعرضها القباطنة على تجار السفن ، مثل التى أورثنى جدى ؟ والمتحف الجلوازى الصغير ، قد ازدهرت شجيراته البرية بسيطة كأنها كلية ، وكأنها انبثقت من أرض اطعمتها اربعون الف يد قطعها قيصر ، وشعب الاتروسك فى متحف « فولتيرا » وظلاله كلها حشرت فوق أسطح صغيرة مزهرة ، كأنما اجتمعت ليوم دين ، نسى الديان ذكره (وصيحات السوق فى الخارج.) ، والفيلات الصقلية تهبط من جدرانها ، بلا شك ، ظهور حدباء ترتدى القبعات المثلثة ، لتجتمع بعصافير الليل . ورجال الساموراى فى زى البلاط ، لانرى الا أدبارهم فى قصر كيوتو ، ولكن هياكلهم ترتعش ارتعاشة لاتكاد تحس ، عند سريان الصوت المحبوب الذى تحدثه القدم على الأرض ومن شأنه أن ينبه حرس الامبراطور ... ومتحف الأزياء فى طهران بتماثيله الشمعية تخرج من الظلمة ولها ايماءات الجثث ، بينما تاجر الشاى المجاور يفتح واحدة بعد أخرى ، النوافذ المغلقة منذ الأزل ، وكأن فارس تواصل مناجاة خفية واطفالا من الشمع بقلانس عالية ينسجون سجاجيد لن يتموها أبدا . وفناء متحف مكسيكو القديم : دار العملة التى شيدها نواب الملوك ، حيث الآلهة الأزتيك الذين رغب عنهم المتحف الجديد ، يقفون مذنبين ، انوفهم الى الحائط تحت البواكى ، يحيطون بالحديقة التى عادت الى وحشيتها . وفى القاهرة نفسها ، بيت الجريتلى باراتكه فى المشربيات وفى وسط قاعة مهلوسة ، موروثة من محمد على ، فى قفص على هيئة مسجد ، عصفور من عصافير الجزر ، منتوف الريش مثل عقاب صغير ، كان الحارس يملؤه — وكان يغنى ...

احب المتاحف الفرفلية ، لأنها تلعب مع الأبدية . ولم يكن أى منها يقارب متحفنا القديم التروكاديرو : حيث كنا لكى نشاهد أيقونات الحبشة نقعد القرفصاء ونشعل الولاعة — التروكاديرو او بالأحرى مخازنه . اظن ان حوض الأسماك كان موجودا منذ ذلك الوقت ، وكانت

التماثيل كأنها تتزحلق في غبش المستودع مثل الأسماك الحزينة · والقطع الرئيسية (وأميزها جميعا الخمرية وماقبل كولومبس : كان ذلك قبل بعثة دكار ـ جيبوتي) أنقذها جندي زواوي مغرم بالتمائم ، وكتب عليها «فن بريتاني» بخط دائري جميل تحت الروائع المكسيكية بحيث لم يعد يجرؤ كائن من كان (بمساعدة نواب بريتاني ؟) على اخراجها من هذه المخلفات . والمانيكانات التي ألبست فيما مضى الأزياء المتخيلة للمتوحشين والماندرين ، كانت محجوزة في الأركان ، وعلى رأس احدها خوذة وهاجة من ريش هاواي . وفي بعض الأيدي الخشبية صولجان من حجر اليشم . وعلى أسلاك الحديد الممتدة عبر هذا المستودع الذي يحاكي بطريقة سفيهة مستودع قصر من قصور قاطش ، وبين مشابك الغسيل مثل العصافير على أسلاك البرق ، رفات مترية من الريش بلون الفيروز والمرجان تتدلى مثل جثة عصفور الاقاصيص ، فوق البطاقة الوحيدة المحاطة بالورق المذهب : «تاج مونتزوما» .

متحف القاهرة شقيق هذه الأماكن المسكونة . لقد استلزم الأمر تقريب النواويس من بعضها البعض حتى يفسح المكان لمذهبات توت عنخ امون . وقد اصفرت البطاقات واصطفت الروائع مثل تماثيل السوق . ولكن هاهي رفيقة الظهور الحدباء ذات القبعات المثلثة ، ورفيقة هياكل المكسيك السكرية وتاج مونتزوما : نواويس من الكرتون الوردي ، كل الحلوى التي تحللت فيها مصر الهيلينستية ، مكدسة منفرطة ، في القاعات الخالية مع تماثيل الفيوم ورءوس الشيخ عبادة التي لا تزال لاصقة باكفانها · يا جنود الاسلام ، يحفرون مجرى العيون لتروى نسرين صلاح الدين ، وياجنود نابليون ينبشون الكثبان بحثا عن الفراعنة ، فيستخرجون من الأرض تماثيل حورس في ثياب البهلوانات ، تماثيل كبيرة من الكرتون ذات عيون منومة ! وأميرة في هيئة المجنونة ترتدى زى رماة السنغال يزينه وشي بلون بشرتها وقد تاه منها في الرمال لكي يصل المجرى الى اشجار الورد الترابية . . .

يدلف السياح الى توت عنخ امون بعد نظرة الى التماسيح الخائرة على الخزائن · هنالك حول الأثاث الجنائزي المذهب ، المرتب ، المذهل ، لم يعد المتحف سوى صوان متاع ملكي .

اما في القبر الحقيقي ، في طيبة ، فقد كان هذا الأثاث السائب ، وهذه النواويس الذهبية المركبة في بعضها البعض ، تحت حراسة أنوبيس الأسود النموذجي الذي يرمز الى الملك ساعة خروجه من الموت ليدخل في الليل الأبدي · والتصاوير ذات الخلفية الصفراء على الجدران ، تكاد

ان تكون شعبية ، قد رسمت على عجل ، (لم يكن أحد يتوقع موت الفرعون الشاب) الى جانب التصاوير التى تصطف فيها قردة الشمس ، لها وقع يختلف تماما عن وقع البذخ الجنائزى · تقول الأسطورة : ان علماء الآثار الذين اكتشفوا هذا القبر قد ماتوا ميتة عنيفة أو خفية الأسباب ، اما الحيوانات التى دخلت مع الرجال ، فقد تكاثرت : على التصاوير الصفراء فقد رقاق فرعون الخالدون اقدامهم ، لقد نهشتها الفئران · والكأس المرمرية التى تكاد تكون شيئا تافها فى المتحف ، قد وجدت عند مدخل الدهليز ، مدارة نحو وادى الملوك : «لتشرب الى الأبد ، وتقبلك طيبة التى اصطفيت ...» ولكن هاهى ازهار العنبر الجافة التى أتاحت لنا العلم بأن توت عنخ أمون قد مات فى مارس أو ابريل ، وهذا هو صندوق لعبه فى الطفولة ...

وجبة الموتى ، وبطاقات كتبت بمثل العناية التى صفت بها هذه القرابين . هنا دواجن وبصل وعنب من الحجارة ، وهناك توائم من طيور الحمام والسمان فى ولائم خالية من المدعوين (مصر لاتصور وجبات الطعام الا فى عصر العمارنة) . هنا فن فى الطهى دقيق وياباني ، ولكن فوق هذا اليد الخفية التى تقدم للمرة الأخيرة طيبات الأرض · وفوق كل هذا التراب من العدم ، تمر اليد الحانية بلفتتها الرزينة ، يد الامهات يضمن اللعب فى قبور الأطفال ·· هذا هو خبز الموتى المثلث ، والبذور التى يقال انها تنبت عندما تزرع ، و «الأزهار المحنطة» التى لم تعد تتميز عن اوراقها السمراء . لماذا تختلج النفس لرؤية هذه الباقات المسطحة ؟ الان الأزهار فى كل مكان تحمل الى الموتى كمال الشيء الزائل ، بينما كانت هنا تمد للخلود ؟

هذا طوق لكلب من الجلد الوردى ، وهذه «جعارين القلب» التى كانت توضع على صدر الفقيد لتناشد قلبه الا يتهمه أمام القضاة الالهيين ، وهذا هو الجعران الذى يؤرخ بعناية ، مذبحة اثنين ومائة من الأسود على يد امينوفيس الثالث · وهذه ملعقة الزينة يحليها ابن آوى من الذهب يحمل سمكة بين اسنانه ، ووسادة من الزغب كانت لأميرة طفلة ، والدمية الزرقاء التى كانت النساء يحملنها فى رقابهن ، مكتوب عليها : «قومى واربطى الذى انظر اليه ، ليصبح حبيبك» . وتحمل تاريخ : ١٩٦٥ ، الاسرة الثانية عشرة . ان المقابلة فى الزمن تجعلنى أحلم منذ وقت طويل . ماهى الأحداث التى وقعت فى عام ١٩٦٥ قبل الميلاد ؟ هذه هى الصاجات ورقع الشطرنج والسلحفاة الخشبية التى غرزت فيها دبابيس لها رءوس القطط ، هذه هى موميات طيور أبى قردان وقرود وتماسيح طولها

خمسة أمتار واسماك « عجا » كأنما هي من اختراع الكاتب الفريد جارى
وهذه مومياء الغزالة التي كانت «ملكا لأميرة من الأسرة الحادية والعشرين»
والبطاقات التي كتبها شاعر منافس للجندى الزواوى فى متحف
التروكاديرو : « أوان من الخشب عثر عليها فى مخابىء المحنطين ــ
مقاشط ومباضع واسنة للرماح واسنة للسهام بديعة الصنع ــ اشياء
لايعرف الغرض منها ــ هيكل فرس من الأسرة الثامنة عشرة ويعد أقدم
الأفراس التى عثر عليها حتى الآن ــ تابوت لأخى رمسيس الثانى ولكن
ماوجد فيه من العظام يدل على ان صاحبها كان أحدب ــ صندوق كان
يحتوى على أساور الملكة عندما كانت طفلة ــ خصلة من شعر الملكة «تيى»
وهى كل ما بقى من هذه الشخصية الفذة » ثم النواويس التى كان
على الميت ان يشد او ان يدفع مزاليجها ، وقد نقشت عليها الرسوم
لرحلاته أو لاستجمامه ، والمرايا التى يستخدمها الموتى ، وفى واجهة عادية،
المسمار الذهبى الذى كان يستعمل لاغلاق توابيت الملوك .

لمصر شغف شرقى بالذهب ، ولكن شعب المتحف لونه بلون حمرة الصدا ، والحجر والفيروز ، على خلفية رمال الصحراء ، مثل المدن الفارسية ...

هذه هى الآن الطيور ذات الرءوس البشرية ، صورة الأرواح . وقال مولبرج ، صاحب الآذان المدببة ، أن مصر التى قد اخترعت الروح . هى ، بيقين أشد ، قد اخترعت الصفاء ؛ ذلك لأن الاحساس الذى أجده هنا لايختلط باحساس الموت . ولا حتى بعدوى الصفاء الجنائزى التى انتقلت الى فيما مضى ، فى طيبة . ان كلمة «الموت» تضايقنى برنينها الذى يشبه الجونج . لاتنتقل روح الديانة الا عن طريق الأحياء ممن يعتنقونها ــ وأديان الشرق القديم قد محاها الاسلام . انا أجهل مصر القديمة ، بصفة قاطعة مثلما يمكن أن يجهل الحب ، مهما قرأ عنه رجل لم يجربه . اجهل مصر القديمة ، بصفة قاطعة ، مثلما يجهل الموت كل البشر . انما اعرف هذه الشخوص التى أشاهدها عابرا ... قد جعلت منها اوروبا شعبا من الجثث ، لأن رفاق بونابارت كانوا يقارنون بالغريزة بين نحاتى منف وبين ميخائيل انجلو وكانوفا وبراكسيتيل ، بينما أنا أقارنهم بمنافسيهم فى المغارات المقدسة ، وأولا بنحاتينا الرومان . فاذا واجهنا هذه الشخوص بتماثيلنا العواميد ، انتفت صفة جمود الجثث التى ظن ان «كتاب الموتى» يفرضها . اذا كان « الكتبة المتربعون » الذين امر امامهم يحاكون الحياة ، فهم جثث بكل تأكيد . نحن لم «نبصر» هذا النحت الذى ندرسه منذ قرن ، الا فى زمن سيزان . وكان بودلير لايزال يتحدث عن السذاجة

المصرية . حتى عندما تنحت فى متن الجبل ، وتشد فى أثواب تطوقها مثل الشرائط ، فان ملكات مصر ، اذا قورنت بتماثيل الملكات والعذراء فى شارتر ، لهن استدارات الجرار المستطيلة .

.ليس هناك « باروك » مصرى ، انما هناك تحلل للأسلوب المصرى . هذا الأسلوب الذى يكاد أن يكون غريبا عن كل تاريخ ، قد عمل طوال ثلاثة آلاف من السنين وكأنه نفس الشرارة تسرى فى الأشكال التى يوجدها فى نفس الخلود . ان التصلب لغة . وهذا النحت بلا شك سحرى وليس جماليا ، وهذه التماثيل مكلفة بأن تضمن البقاء للأجسام الفانية . وهى لا تضمنه لما بينهما من الشبه ، ولكن على العكس لما بين هذه « الاقران » والأجسام التى تمثلها ، من فروق رغم تشابهها . وظيفة هذه التماثيل ان تكفل البقاء ، انما وظيفة اسلوبها . أن تفصلها عن مظهرها الفانى ، لتفضى بالموتى الى العالم الآخر .

ولا أعثر على التماثيل الهيلينستية التى كانت تصور الآلهة والمسوخ « بطريقة واقعية » . ماذا جرى لتمثال الغوله التى كانت فيها « انوثة غضة » ؟ وانوبيس يعلو عباءته رأس ابن آوى حليم ؟ لقد اخترعت مصر انوبيس لأنه لا يمكن أن يوجد فى عالم الأحياء - حيث حاول الفن السكندرى أن يدخله بلا جدوى . هذا هو الآن ، تحت السلالم ..

يمكنه أن يتحاور مع ملكات العهود القديمة مثلما تتحاور الدمى والعرائس ، ولكن المشهد الذى نرى فيه الاله برأس الحداة يقود الى الآلهة الاخرى نفرتارى ، زوجة رمسيس ، قمة من قمم الفن ، لأن رأس الحداة هذا ، وقد البس التاج الفرعونى ، لا يمكن أن نتصوره خارج الأسلوب المصرى ، كما لا يمكن أن نتخيل دون جوان لموزار خارج الموسيقى « والانتصارات » الاغريقية خارج النحت . يقود الملكة من يد هو لا يمسك بها ، الى عالم آخر ليس له اليوم تعبير ينم عنه غير هذا الأسلوب الذى يجمع بينهما . والملكة زوجة رمسيس اقل مما هى زوجة الاله الذى يضفى عليها جلال الظلال . لقد جعلت عملية الخلق من الملكة روحا مثلما أقامت العبقرية التوسكانية من فينوس مثالا . وهذا الأسلوب لا يعمل بمفرده ، فالملكة لم تجد ، الا هنا ، النبرة التى تصل بينها وبين « انتصار ساموتراقيا » و « الجوكندا » والوجوه العملاقة فى مغارات الهند ، وابتهالات الموسيقى الغربية - أى كل ما فى الفن ، لايمكن تفسيره تماما عن طريق الفن وحده . لا أذكر بوضوح القبر الذى ينفتح على سطح الأرض أمام وادى الملكات . فى ذلك اليوم ، كانت العصافير تصيح

فى معبد رمسيس كما تصيح عندنا على اشجار الزيزفون فى أمسيات الصيف ، وكنت اذكر ازيز نحل المولى ، الذى حدثت عنه النصوص الجنائزية . وكانت العصافير قد أقامت أعشاشها فى أجنحة الصقور المقدسة على جدران النحوت الغائرة . وفى طيبة ، كانت الشمس تضىء الهة السكون ، وتطلع من ظلام رمسها ، مثل اللهب الأشهب المتردد ، الهة العودة الخالدة . وفوق تمثالى ممنون المشوهين بطريقة رائعة ، كان يحوم سرب من الحدآت . لقد انسيت القبر ولكننى لم انس الملكة التى كانت تعاود الظهور من جدار الى جدار ، خلال رحلتها الجنائزية ، بنفس الجلال الالهى ـ حتى المشهد الذى تجلس فيه وحيدة ، أمام رقعة الشطرنج ، تقامر بمصيرها الى الموت مقابل تحللها فى العدم ، فى مواجهة الفراغ الذى يشير الى اله لا يرى ..

وهنه فى صناديق زجاجية ، أطلال اجساد الرجال . اقل مغزى بكثير من صورهم رغم عيونها المصنوعة من الميناء .. ان مومياء رمسيس لن تهدد بعد اليوم حفلات الافتتاح . كان فى السادسة والستين على ما اظن . وبالقرب منه تمددت أميرة شابة ، تفعل فى النفس مالا تفعله الأخريات ، وذلك لأن حقن الشمع قد حافظت على شكل خدودها ، كان اسمها « عذوبة » .

ويتملكنى احساس يماثل فى قوته الاحساس الذى شعرت به عندما سمعت أمام ابى الهول ، للمرة الأولى ، صوت المظهر وصوت المقدس . المومياوات التى كشفت لى عن صلتى العميقة بالتماثيل . ان الشخوص الصغيرة التى تمثل الحياة ، المراكبية المصريين من الخشب ، وخزف تاناجرا ، والراقصات الصينيات من الفخار ، كلها تقريبا شخوص جنائزية ، ولكنها لا تعرض علينا مع الهياكل العظيمة . اما هنا (وفى أى مكان آخر ؟) فجنبا الى جنب تقريبا ، نرى الآلهة التى خلقها البشر والملوك الذين خلقتهم الآلهة ، قد عبروا القرون ماذا حدث لرمسيس ولكل الفراعنة الذين يعثر على نواويسهم . جسم استنزفت منه الايام ما استنزفت ، ومجد تحلل منه ما تحلل ، هذا ما نعلمه منذ أمد بعيد . ولكننا ايضا منذ بضعة قرون نظن لنفسنا العلم بأن العمل الفنى « يبقى بعد فناء المدنية » وأن خلوده يعارض البقاء البائس للآلهة المحنطين ، على انى قد تبينت فى هذا المتحف أن البقاء الفنى ذو طابع معقد ، ولا يستقر على حال . فطوال الف عام على الأقل ، وفى العالم كله ، ظل فن رمسيس منسيا مثل اسمه . ثم عاود الظهور كشىء يدعو الى الفضول ، مثل الفنون المسماة بالكلدانية ومثل كل ما كان يحيط

بالتوراة . ثم أصبح الفصول موضع علم أو تاريخ . واخيرا راينا الذى كان صنوا وقرينا ثم موضوعا يصبح تمثالا ويستعيد « حياة » له . بالنسبة لحضارتنا ، وربما للحضارات التالية . ولم يكن الأمر كذلك فى أى غيرها . والاسلام المصرى ، لا يبعث مصر من خلال القرآن ، انه يبعثها من خلال اللوفر والمتحف البريطانى ومتحف القاهرة . وهذا المتحف لم يعد يكفل البقاء . وغدا ستكون تماثيل أخناتون فى متحف عصرى . وبلا شك فى المتحف الخيالى ؛ حيث لن تكون تماما كما نراها اليوم — مثلما هى اليوم غير التى رآها الفنانون أيام أولوية الفن الاغريقى. عالم الفن ليس عالم الخلود ولكنه عالم التحول . واليوم أصبح التحول هو هو حياة العمل الفنى .

●

وفى المكتبة المقامة عند طرف البهو الذى يصل بين جناحى المتحف ، هذه مختلف انواع الكتب عن المكسيك . وصور فوتوغرافية كبيرة للمبانى السابقة على كولومبس . تبدو الاهرامات المكسيكية هنا وكانها مرتاحة فى بيتها ، وأكثر منها ارتياحا مسالك موتت البان الهندسية ، ومعابد « ميدان القمر » الصغيرة الناتئة ، كل المعمار « الحديث » ، بلا لوتس ولا مضلعات ، الذى يصل معابد محاربى يوكاتان بمعبد الجيزة الخاص وبمنصة نورمبرج ، والمعمار الخشن الذى كان يحتوى موتى المكسيك بالمعمار الذى كان يحتوى موتى مصر . ولكن ما أن يظهر هؤلاء الموتى حتى تنقطع صلة التآلف . هذه هى صور عيد الموتى فى المكسيك والهياكل العظمية مناظر لا ينضب معينها . كم من الشعوب قد عاشت فى تآنس مع الموتى وقربى ، تمزج الليل المأتمى الكبير بظرف سوداوى عطوف ؟ وصور الارغفة الجنائزية على هيئة الجماجم تثير الأذهان ونحن فى القاهرة حيث الخبز الجنائزى ارغفة مثلثة . . كما تثير الأذهان الكلاب المكسيكية التى تمضى الى المقبرة ، ونحن فى البلد الذى تحنط فيه بنات آوى ، والموت يثير الأذهان ونحن فى مصر التى يبدو الخلود فيها كأنه يضل الانسان فى الطريق . .

كنت قد رايت مرة اخرى فى مكسيكو الصورة التى ثبتها ايزنشتاين لقرون من الزمن : على وجوه أطفال يبتسمون، تمر واحدة بعد الأخرى، وهى تهتز على مهل ، ظلال الهياكل العظمية المتوعدة التى تدور فى ميدان البرجاس الصغير. المكسيك هى فنادق الموتى، وهياج العازفين بالعظام، وجنية من القش ذات جسد مستطيل يشبه الارابيسك ، تحت جمجمة صغيرة ، أرادوا أن يهدوها الى قديسا ، على أنها هيكل الحلم . كل هذا غريب تماما عن مصر القديمة : فنها جنائزى ولكنه ليس مأتميا قاتما ،

ليس فيه من جثث ولا ماخوذين يرتعشون . ولم يكن صوت « الاقران » الكبار ، ولزلزة الشعب الصغير اليف المولى الذى يحيطون بى حينذاك ، ليستدعى الى ذاكرتى المكسيك حيث يتحول الاطفال الذين يولدون ميتين الى عصافير ، مكسيك اطول وجبة للموتى تعرفها الارض حتى يومنا هذا ، ولكنه يستدعى العالم الهندى فى جواتيمالا ، ربما لان الموت هناك ليس له من شكل الا شكل اللهب ، ربما لان الموت هناك يلعب مع الأزهار .

●

إزهار صقلية ، أزهار عربية فى الصخر وفى بيوت من الفخار ، ازهار بلا ورق ، جهنمية بلون البرتقال ، متقاربة مثل اللبلاب ، واشجار بنفسجية كبيرة ، وازهار الداليا ذات السيوف الحمراء مثل بلور بوهيميا ظنها الفاتحون من فصيلة النرجس التى يسمونها «باهرة» . كنت قد لقيت كنائس صفراء فى قلب الشوارع المتعددة الالوان ، وجمعا اسود يدفن بعض موتاه ، ينتحب فيه الواقفون حتى الصف الرابع وتضحك الصفوف الأخيرة ، ورأيت فى اللوريات التى حولت الى مواكب دينية : فتيات من الهنود صغيرات جميلات وقفن بلا حراك تحت لافتات كتب عليها : «العذراء» وكان هذا الموكب يتبع مهووسا ركب الحمار بالمقلوب ، وعلى وجهه قناع الموت ــ وكان جثمان دون كيشوت يقود قديسات الفردوس عبر البراكين . والهنود الصغار ، بأزياء مزركشة ، وباعداد متزايدة ، يهبطون من الغابة . وكان رفاقى يتحدثون عنهم . قلت للحائكة: ــ «هذا الحيوان الصغير الأخير لماذا لم يطرز ثوبه بمثل اتقان الآخرين ؟» واجابتني : ــ «ينبغي دائما أن نترك واحدا على هذه الحال . لكى لانثير غضب الالهة . فالكمال من صفاتهم» . وثمة صنم من أصنام المايا يشرف على البحيرة ، وعلى قاعدته كلب حقيقى نصب أذنيه عندما مررنا به . «يوم أن جاء رجال الشمال الى هنا ؛ اشار «كويتز الكوتل» الى محاربيه وقال : ساغلب بهذا الجيش . ورد قائدنا زعيم المايا وهو يشير الى مولود جديد : اما أنا فسوف أنتصر بهذا الطفل.. » واجاب امين المتحف وهو يبتسم ــ «ارسل زعيمنا الكويتزال وهم فى جمال عصافير الاحلام فقتلهم رجال الشمال ورحل رجالنا وهم يعلنون أنهم لايستطيعون الحياة فى بلاد تقتل فيها العصافير ، قال الأمير المساعد دون أن يبتسم : ــ « الهنود هم اخوتنا الصغار ...» وكان رفاقى الثلاثة من الخلاسيين . ووصلنا الى مدينة انتيجا ، زينة لنواب الملوك ، بحاميتها المركزية ، وجامعتها القديمة ونافورتها بجنيات من اللاقة السوداء ، فى الميدان الملكى الذى تسهر

اشجاره السامقة على النائمين . كان من الممكن ان تكون مدينة من المكسيك او بيرو لولا الأزهار التي غرست في الأفنية الآهلة والازهار التي انهارت في الافنية المهجورة ، وعلى الاخص لولا جو النكبة الذي خلفه الزلزال . هنا تذكرت أن طائرتي قد وصلت عن طريق بحر من السحاب تثقبه البراكين ..وخطرت في بالي مدينة نوتو في صقلية ، وقد مسحت حتى الطابق الثاني ، واشتد اصفرارها فوق سلالمها الضخمة واشجار اللوز المزهرة . ولكن نوتو قد رفعت انقاضها : بينما انقاض الفلك الهائل تملأ وحاب انتجا تحت غبطة البركان الذي ربما كان منطفئا . والهنوديدعون بخطوات صغيرة كل هذه الشوارع التي كانت الريح تكنس فيها أزهار الجهنمية مع التراب واكوام القرنفل وأحضان من السوسن تغطي جفاف السوق . وكان محراب السوق في قاعة تحت الأرض رأيت فيها طفلا وحيدا يتأرجح بين الشموع القصيرة التي وضعت على البلاط . وكنا نسمع صوت شخشيخة بائع الجيلاتي وكأنها ناقوس الموتى .

وخلف واجهة الكاتدرائية التي لم تمس بسوء ، كان الصحن يمتد مبقورا مثل صحن الكنائس الاسبانية في الحرب الأهلية ، ولكن تملؤه الأنقاض الكونية المتخلفة من الزلازل . وفي الوسط درج يوصل الى السرداب الذي لا يكاد يرتفع عن راسي . وفيه شموع كأنهار شقت في الارض ، وصليب لايرى ، وهندي وحيد يصلي وقد أمسك في يده طفلا صغيرا مثل الذي رأيته هائما بين اضواء محراب السوق . وميزت الصليب بالكاد ، ولكن الجدران كانت ملطخة ببقع الأيدي البيضاء مثل ايدي الصيادين المجدلانيين على ثيران المغارات . وصلاة الهندي الساكن الخاشع تملأ السرداب بما يماثل ضوء الشموع .

وقد التقيت بهذه الصلاة السحرية في قلب البلاد الهندية ، في اورتيس . كانت هناك كنيستان من السكر تتلألآن على زرقة السماء المضيئة عند قمة الدرج العمودي . وبينهما سوق متعددة الألوان يعبرها اشخاص سود حول حامل القربان المقدس : قبعاتهم الاسطوانية تبرز من بين خليط الرؤوس الهندية ، وتتجه نحو درج الأهرامات حيث يتهدج بعض « الرجال الثيران » وراقصي الطوائف ، حول صورة مقدسة لا ترى ، في واجهة زجاجية صغيرة مكللة بريش ضخم . وكنا نسمع «الماريمبا» الآتية من الدير المجاور والصواريخ تفرقع فوق ادخنة صمغ الكوبال التي تدفعها المباخر مثل ادخنة الحرائق . كل هذا الكرنفال من العالم الآخر، كان ينتشر فوق الدرج الحالي ، كما كان ينتشر فيما مضى على معابد المايا .

والقبة العالية فى الكنيسة الكبيرة ، وتماثيل المسيح ذات شعور حقيقية وعيون من الميناء وثوب من المخمل ، تضيع فى الظل . لم أكن قد شاهدت فى غير أنتيجا هذه الشموع القصيرة الموضوعة على الأرض . لم أكن أمام أضواء سراديب ولكنه تنوير : ينبعث من تحتى مثلما ينبعث من المدن الليلية التى ترتعش فى الدجى عندما نرسو على أرضها . والهواء الذى كان يأتى من الباب المفتوح : محملا بأدخنة الكوبال ، يرعش كل هذه الشعلات . وتذكرت أسراب الحباحب فوق مستنقعات أنام ، وأكواخ كوبا التى يضيئها كيس من الشاش مملوء بتحلات تشع بطونها بالفوسفور . ومن البوابة الى المذبح ، ثلاثة أحواض من الشموع تملأ بلاط الصحن ، وسط الهنود الراكعين . والشىء الذى لم أكن قد رأيته ، حتى فى بيرو ، هو اتحاد هذه الأضواء بالذين يحيطون بها ، والنبض الخافق الذى يغوص فى الليل بالشعب المؤمن عندما تميل الشعل . وشموع الحوض الأول ، المزروعة بين عيدان الذرة ، كأنها تحترق على ايقاع ترنيم الصلاة ، وشموع الحوض الثالث بين أوراق الورد التى يلقونها الى المذبح ، تصاحب تعزيم الرقى . ولكن الهنود لم يكونوا يتلون، وانما يتحدثون . والحضرة السحرية ـ حضرة جنون مقدس عطوف وعميق ، ترجع الى عزلة كل حديث من هذه الأحاديث التى تجرى مع المجهول ، والى أن هؤلاء الهنود الذين ليست لهم قرى يؤلفون جمعا .

قال صوت بالقرب منى : ـ هذا أمر شائق جدا ..

كان هو رئيس الآباء ، ينيره الضوء من أسفل ، صارم فى طيلسانه المزرر حتى رقبته ، اسبانى مثلما يبدو الأسبان فى اللوحات .

اجبت : ـ انه أمر يثير الوجد .

ونظر الى بانتباه . ومن ورائه ، ثلاثون من الهنديات منحنيات ، ورءوس الرضع تعلو فوق أكتافهن مثل رءوس الشياطين الصغار . وكن صامتات .

وقال : ـ جئن من أجل التعميد .

ـ هل تعمدون جماعة ؟

ـ اغلبهن لسن مسيحيات ... فالايمان بالخرافات لا يزال هنا عميقا جدا ...

ـ هذا الايمان لايضايقنى يا أبى . ربما ملأ العصور الوسطى ..

كانت التمتمة تحيط بنا حتى خاصرتنا وتضطرني أن ارفع صوتي حتى يسمعني القسيس :

ـ اليست هذه صلاة دعاء ؟

ـ ان الذين يصلون امام عيدان الذرة يطلبون من المولى أن يبارك في حصادهم · ولكنهم بعد ذلك يوقدون شمعة ثانية · وهم الذين يحيطون بك . لايطلبون شيئا . الشمعة هي الميت الأحب الى قلوبهم . وهم يتحدثون اليه .

ولهذا يسري الطنين المضطرم مختلفا عن غمغمة ترديد الصلاة : لقد كان حوارا مع الموتى ·

ـ لقد تكلفت كثيرا من المشقة حتى لايمنعوهم من ذلك ··· ماهي الصلاة ؟ انها محادثة ، اليست كذلك ؟ وماذا يفعلون ؟ واقول لهم انهم لايجب ان ينسوا ، عندما يفرغون من الكلام مع موتاهم ، أن يتكلموا الى المولى ، من اجل الرحمة ... واظن انهم يفعلون .

ـ قيل لي ان الاستجابة للدعوة تزداد ؟

ـ كلا ! لقد وكلت الى رعاية ثمانية آلاف هندي · ليست مسألة استجابة فحسب ... كل هذا يفعل فعله في قساوستنا ، حتى انقاهم . فيجب استدعاؤهم الى اسبانيا وايجاد بديل لهم . منذ قرون ... والهنود يقولون شيئا في غاية الأهمية ، عندما لانحسن فهم حديثهم مع الموتى : يقولون : القسيس ليس كاثوليكيا ...

ذكرت ايام سراديب آسيا ، حيث كانت اضواء الكلدان وفينيقيا لاتزال مشتعلة «... نزل الى الموتى ، وبعث في اليوم الثالث ...» وكنت لا ازال اسمع : « أقول لهم انهم لا يجب أن ينسوا ، عندما يفرغون من الكلام مع موتاهم ، أن يتكلموا الى المولى» وكانت همهمة الأصوات تهمس بأن المولى في رايهم (هل في رايهم فقط ؟) أقرب بكثير الى الموتى منه الى الاحياء ...

قال الاب : ـ عندما جئت ، كان يوما مثل هذا اليوم ، تعميد كبير وكثير من الهنود ··· وكان مبعوث البابا يصاحبني · وربما كان يعلم أن الأمر لن يكون سهلا · قلت له : « ولكن ما الذى جئت أفعله هنا ، ما الذى جئت افعله هنا يا مولاي ؟ ·· » وأجابني بهدوء :

«اغمض عينيك ، سد اذنيك ـ ولسوف تدرك ، شيئا فشيئا ..»

وبالقرب من البوابة ، تجمعت النساء من جديد ، ودون ان يتخلصن من حمل اطفالهن . لم يكن هناك احد يبكي . بين الصخب المقدس على درج المايا ـ صيحات ونايات واناشيد هندية مثلما سمعها بلا شك اسبان الفارادو قبل المعركة الأخيرة ـ وبين همهمة الموتى المبهمة التي تباركها اعماق الصحن الخافي عن الانظار ، ولاصيحة .

وتساءلت : ـ كان المبعوث يظن أن الله سيتولاهم ـ ولكن ليس وحده ؟

ـ كما هو الأمر دائما . . .

هو أيضا ينبغي أن يستدعي الى اسبانيا قريبا . وتركتني عند أعلى الدرج ، امام غلالة الكوبال المنسولة فوق الهياج الذي يموج به المكان ونصحتني ان « اذهب لأتأمل الصنم » : وبعد أن صعدت ثلاثمائة متر ، وجدت تمثالا من اللافة يمت الى أسلوب المايا من بعيد ، تتساقط عليه ابر الصنوبر . وتحيط به الحجارة ويحرسه هندي سكران . وكان الكوبال يتصاعد فوق القرية والكنائس السكرية وفوق بقعة من زهور الداليا ذات السيوف تبرق مثل شظية الزجاجة الحمراء .

●

اسمع نفير السيارات وقد فرغ صبر السائقين ، امام متحف القاهرة . وهناك في مكان ما من بلاد الرين وعبادات البوتشو . بالقرب من اواكاكا ، حيث تغطى الغابة هياكل الفاتحين في دروعهم السوداء ، او بالقرب من مرتفعات الأنديز ، حيث تتمدد في الجليد هياكل عذارى الشمس وعلى مناكبهن ببغاواتهن البيضاء ، هناك رجال قصار القامة راكعون يتحدثون بصوت هامس الى شعلة الشموع والترانزستور يذيع رقصات اسبانية بكرانيش في سوق هندية خالية .

اسمع همهمة صلاة الهنود التائهين في الليل الجنائزي حول الاضواء سوف تخبو ولكن ارتعاشها المتجدد ابدا سيدوم أكثر من العيون التي تنظر اليها . . . جثث مطوية في الجرار وهياكل عازفين وجنية براس ميت . تتطاير حول موتى مصر الذين لاينال الدهر منهم .

●

مكتبة المتحف تعرض ايضا الخطبة التي القيتها من أجل انقاذ آثار النوبة ، وتعرض صورا فوتوغرافية كبيرة للأعمال الجارية . انا اذكر صخور اسوان المستديرة السوداء يعكسها نيل بلون انهار الجحيم . لاشك ان هذه الصخور لم تتغير كثيرا منذ الوقت الذي اخذ فيه فلوبير الشاب مرض الزهري من فتاة تدعى كوتشيك هانم كان منبهرا باسمها قدر

انبهاره باسم ملكة سبا • ومعناه على ما اظن : السيدة الصغيرة • كانت تداعب خروفا منقطا بالحناء الصفراء ، يلبس كمامة من المخمل الأسود ... هذه صور اشغال السد العالي ـ سبعة عشر ضعف هرم خوفو ـ الذى ستتولد منه بحيرة طولها مائة وخمسون كيلومترا . والونش الاصفر فى ابى سمبل يرفع فى السماء كتلة من النحت الغائر تصور الأسرى ، كانما ليهديها الى اله الشمس . هذه هى المناشير الضخمة وقطع من المعبد منقولة على الجبل فوق شاطىء النيل حيث يشعل النوبيون نيرانهم امام التماثيل الشاهقة والسعط البرى • ما اغرب ان اعيد هنا قراءة هذه الخطبة التى القيت عام ١٩٦٠ ، وفى خلفية الأحداث تجرى معارك الجزائر :

«اولى الحضارات العالمية ترى فى الفن العالمى تراثها الذى لاينقسم . أما الغرب ، أيام ان كان يعتقد ان تراثه يبدأ فى اثينا ، فقد كان ينظر لاهيا الى الاكروبول وهى تنهار ...»

ولكن عندما تدركنى النوبة بحرابها وقرودها السوداء ، لايصاحبها ابو سمبل ، انما يصاحبها ميدان كنت اجهله عندما جئت الى هنا فى الماضى ، ميدان يمد تحت متاحف مصر سحره السفلى : حيوية المادة .

منذ وقت طويل وانا احلم بنهر الكزامنس . هل بسبب كلمة رومانس « واغانى الجزر » ؟ ولكن فى خلفية هذه الصور كانت تتراءى ، بدلا من الأشرعة النحيلة ، افريقيا الشاسعة ، والمنظر المشوق لرقصات جزيرة «جورية» ، والماركيز ديبوفليروسيوراته ، خلاسيات بطرح من التل على الفساتين ذات السلال ، يلبسن طواقى المجوس ـ وياللقمر على «الراس الاخضر» ! (رايتهن مع سنغور وقد اصبح رئيسا ، بفضل «الصوت والضوء» ... وكان قمر الأيام الخالية ، يلقى خيالات الطواقى العالية الحادة على ارابيسك الشرفات ، ويكفى ان ينطلق كلب ضال ، مثل المجنون فى وسط الفتيات . لتتحول رقصتهن الى باليه للظلال • وهبت رياح الليل على جورية ...)

كنت اتوقع ان ارى بعض العابرات من بعيد فى نسيج من الموسلين او المدراس البنفسجى تحت ازهار الجهنمية ، ان ارى السنغال القديم يغفو على حافة الضفاف • والكزامنس نهر بحيرة ، نياجارا تحفه من كل جانب أمواج بحرية قصيرة • وفى الغابة بلدان بلا تاريخ ، تحيرنا نظافتها لاننا نتصور النظافة شيئا عصريا • لقد احتفظوا بملوكهم الكهنة •

لايتمتعون الآن الا بسلطة روحية ، ولكن هيبتهم لاتزال باقية ، بسبب طريقتهم فى الانتخاب . اذا مات الملك قامت القبيلة بتعيين خلف له . يقول : «ولكننى لست جديرا ...» فيضرب ضربا مبرحا . اذا نجا منه فهو ملك - وهذا يفرض عليه واجب القيام بالتضحيات ويمنحه حق التصرف بالفتيات اللواتى يلمسهن صولجانه المصنوع من القش .

كان اولهم شابا الى حد ما . متلفحا فى معطف أحمر يشبه رداء الباهى ، يخفى تحته الصولجان ، وتحيط به حاشية من الملهلين فى ازياء أوروبية ، نبلاء بالوراثة . بعد السلامات سألته هل يضعف سلطانه الروحى .

- المبشرون لايستطيعون شيئا ضد الاشجار السحرية . وكبار الشخصيات لاتزال تاتى لترانى : السفير الانجليزى فى الاسبوع الماضى ، وانت اليوم .

رد طيب من الملك . وفوق حاشية الصعاليك المقدسين ، شمس افريقيا تتخلل الأشجار .

وفى القرية التالية ، لا أحد : النساء فى الصيد والرجال يجتنون عرقى البلح . وعلى درجات عالية ملك عجوز يلعب مع طفل . تسلم تبغنا ونظر الينا ونحن نمضى عبر أفنية طويلة لا تراب فيها .

وبلغنا عندئذ منطقة الملكة • قصرها من اللبن والقش ، وكانت هى فى المشى ذى الاعمدة الخشبية ، تسرع فى ارتداء عباءة فوارة من التل الفستقى (لم أكن قد رأيت أبدا عباءة تفور) اطلعت منها وجها منبسطا وملهما • واحاط بها ألفاؤها وأسرتها وأبناء القرية - والذين يصاحبوننى وابقت ساعديها مرفوعين كانما هى تقدم القرابين ، وقد وقفت وقفة الكاهنة . ونقل الى المترجم قولها :

- قل للجنرال ديجول انى افكر فيه .

- سيسعده ذلك ياملكة سيبيت •

ولم لا ؟ كان السفير الانجليزى (أو بعض حكام زامبيا؟) قد أهداها زجاجة من الويسكى قائلا :

- جلالة الملكة تهدى الى جلالتك افضل مشروب فى العالم .

- شكرا •

قلت للمحافظ السنغالى وهو مندهش ولكن مسرور ، انها فى

هذه التشريفات الهازلة ، أعز قدرا من السفير ومنى • وقد اخذتنى من يدى • تمتم المترجم : « انها تقودك الى الصنم » •

كنت أتوقع ان أرى بعض التماثيل • ولكن صنم الملكة كان شجرة تشبه الدوحة العملاقة ، وقد اخلوا من حولها ميدانا نيتضح انها تشرف على الغابة . ومن تشابك الجذور تصاعدت جوانب من الشجر مستقيمة مثل جدران تجمعت فى دن شاهق ، وعلى ارتفاع ثلاثين مترا فوق ذلك ، تزدهر فى سموق وعظمة • ومن اقتران جدارين من هذه الجذوع مرتفعين الى اكثر من خمسة امتار ، تتالف كنيسة مثلثة ، يفصلها عن الميدان حاجز صغير لايمكن أن يتجازه الا الملكة ، وتفصلها على الاخص ارض نظفت بعناية مثل أرض مساكن القرية ، لأن الميدان كان يغطيه جليد الكابوك الحريرى الذى يتساقط ولايفرغ ابدا . وفى هذا الطهر الخيالى ، كان الدم المنعقد من الأضاحى يقطر من الشجرة •

وبهذا العمود الأجل ، كان شعور التضحية يتالف عندى باشد واقوى مما تآلف مع أى معبد آخر • لم اكن ابصر شجرة عجبا ، اميرة على الشجر (ولو أنها كذلك) ولكن شجرة تعيد الى الذهن عالما تشد اليه البشر بانجذاب علوى ، مثلما تعيد آلهة مصر الأموات ، الى أذهاننا • وفجاة ارتمت الملكة على عنقى وقبلتنى • وسألت :

ـ هل فى قدرة الشجرة ان تحمى الاموات ؟

وقفلنا الى القصر ، يتبعها قطها ، قط مصرى بقامة فهد ، حوشى اسود مثل قطط الساحرات عندنا . وكان الاطفال صامتين وكأنما جاء سكوتهم بتاثير ما فى القرية من نظافة لا تصدق • وظلت الملكة لا تجيب ثم قالت اخيرا : «لاينبغى لأى كان أن يتحدث عن الموتى» ، بصوت لايقبل النزاع ـ صوت فيه سر الملكات اللواتى تتابعن هنا منذ قرون عديدة وامدتهن به التجربة القاتلة التى خرجت منها سبيث حية ؟

وكان يهيم فى ذاكرتى قول قراته : « ولتنفيذ عقوبة الاعدام ،ربطت برونهوت من شعورها البيضاء الى ذيل حصان •• »

وعند ذهابنا ، وقفت الملكة الميروفينجينية العجوز على عتبة قصرها، ومدت ساعديها المرفوعين ، لتباركنا • ومن الشجرة الكبيرة كان ثلج الكابوك الحريرى يتساقط بمهابة ، ويعلق بعباءتها الخضراء ، ترن من تحتها عقودها فى السكون •

في متحف القاهرة ، كان الموتى هم الذين يتكلمون · وكنت ادرك لماذا اتذكر الملكة سيبيث · كانت شجرتها تذكرني بشجرتي الجوز اللتين لم انسهما ، ولكن هاتين تتآلفان مع ايقاع الحياة البشرية ، بينما الشجرة المقدسة توحي بايقاع أرضي ، يعبر الانسان فيه مثل الفراشة·والاحساس الذى اجتاحني هو التعبد أمام الختم الذى ترمز به الآلهة المجهـــولة الى تجسيدها (نسيت ان هيلين الاسبرطية كانت دوحة ثم تجسدت ···)
ولم أكن قد التقيت بشيء يشـبه ذلك أمام الآلهة التى صاحبت الملكة نفرتارى الى العالم الآخر ، ولا حتى أمام الهة العودة الأبدية ، وهي لا تكاد ترى فى ليل رمــها بالكرنك . التقيت بما يشــبه ذلك امام ابى الهول فقط . ولكن من خلال أبى الهول كانت آلهة مصر هى التى توقظ شجرة الملكة وما بها من جلال الجبل · ولم اكن اشعر فقط بأن حورس وأنوبيس قد فقـدا روحيهما ، مثلما ستفقدها الشجرة المقدسة عندما لا تغدو غير شجرة ميتة تطويها الغابة · الآلهة لا يموتون لأنهم يفقدون سلطانهم وملكهم ، ولكن انتماءهم الى مجال كانوا يوحون به يستعصى على الفهم أبدا · سيان ولدوا من العالم الآخر المصرى أو ولد منهم ، فهم اذا ما انتزعوا منه كانوا مثـــل الأسماك خارج الماء ، لايزيدون عن شخوص الحواديت والتماثيل · ماذا تهم تفسيراتنا المتتالية لحورس واوزيريس ؟ ليس للآلهة معنى ان لم يكن للأوليمب معنى ، ولا لأونوبيس المحنط ان لم يكن لعالم الأموات معنى.
كل اله من الآلهة كان منتسبا الى عالم الحقيقة الذى عبده البشر ولا يمكن أن نمسك به · ان مصر كانت قد اعادت أوزيريس الى الحياة بصلواتها ، ونحن أعدناه بشكله واسطورته ــ بكل شيء ، ما عدا الصلاة · فلم يكن يبعث فى «الحقيقة» ولا فى « المجهول » ولكن فى القاعات الباهرة لعالم الفن الذى أعقب عدة قرون حملتها سفينة فراعنة رست عند الباشوات ومضى التحول الذى طرأ على « اقران » الحضارات ، ينزل الدرج الحزين فى متحف القــاهرة ، بين باروكات الكهنة وجلود الفهود تتلألأ بنـجوم من ذهب . عبر مقبرة الآلهة ·

●

فى مدى سنوات . ســوف يصبح كل عمل رئيــى . بعدعزله واضاءته ملكا لقاعات بيضاء فى متحف القاهرة الجديد · ومن العالم الآخر حتى عالم الأشكال ، يكون التحول قــد تم · وهنــاك بالقرب من القلعة ، سيلتقى الآبات الناضة الآن فى الوبر الفيكتورى · مبنى من الزجاج او قصر أمير سوف ينافس متحفى الرباطـودمشـق المزهرين .ومن خلال الواح الزجاج

الرحيبة ، سوف تتطلع الوجوه الشهيرة ، من خوفو حتى الملكة نفرتيتى ، الى مدينة الموتى ــ وكان العالم الاسلامى قد ظل يشيد طوال قرون أوسع جباناته تكريما لمقابر الفراعنة . وعلى جلود الفهود المكلسة سوف تلمع النجوم الذهبية الكبيرة برفق فى ظل مدروس ، وقد أفكر عندئذ فى هتلر وفى عرافه ، وفوق جدران النحوت الغائرة ستسيل مركبة الأبد بين أدغال البردى . وتنفصل الاهرام فى البعيد رغم ضباب الرمال برعشة الحر فوق النيل مثل أيام العابدين للشمس .

وتكون الملكة سيبيث قد ماتت ، وتحت شجرتها تصل ملكة أخرى كتبت لها النجاة من طقوس التعذيب ، وبالقرب من مكسيكو ، فوق ميدان القمر حيث تلعب المعابد الصغيرة لعبتها المنسية عند اقدام الهرم الأخرى ستخلع الريح قــلاع التراب فتتمزق وهى تحوم مثل البخور على الدرج العمودى فى الكنائس الهندية ، وعلى القناة بجوار الحديقة التى انشاهـا مونتزوما واكتشف فيها الفاتحون العدد العديد من «الازهار الجميلة والحيوانات الفريدة والأقزام المكتئبين» سوف تهتز جندولات السياح المزيفة الفارغة . أمام قارب بائعة ازتيكية محمــل بالبنفسج ، وســوف تتقدم بعثة آثار تشق طريقها بين جثث القرود التى أبادتها الحمى الصفراء . وسوف يتحدث « الاخوة الصغار» بهدوء الى موتاهم ، الى شعلات اللهب وسوف ينظر أموات مصر المهجورون الى « أقران » الحضارات يهبطون درج المتحف الجديد الذى قد يحشر الطيور المصبرة مع موميات أبى قردان . ومن خلفهم يهبط اله التحول الاعمق الذى أحال مملكة الموت الى متحف . فاذا كنت على قيد الحياة ، فسوف أعود لأرى متحف الوبر والتراب . وفى الجانب الكبير من السماء حيث يدور الطائران الكاسران ، سوف تحوم طيور أخرى من حدآت حوريس ، وفى طيبة ستختلط الهمهمة الجنائزية القديمة بانطلاق الاجنحة فى معبد رمسيس مليئا بالعصافير .

- ٣ -

١٩٣٤ ، سبا / ١٩٦٥ ، عدن ٠

كيف أدخلت في راسي ، منذ ثلاثين سنة ، ان أعثر على عاصـــــمة ملكة سبأ ؟

كان للمغامرة الجغرافية عندئذ فتنة فقدتها ٠ ويرجع مجدها الذى شهدت به روايات عديدة الى ايام « الفترة الجميلة » ، وكان قد مر على اوروبا قرن جهلت فيه الحروب الكبرى ٠ كان القرن الثـامن عشر والعقود الأولى من التاسع عشر منفعلة بالمغامرات التاريخية كالتى قام بها كليف وديبلكس ، وبالمستكشفين الأوائل ، ولكنها نظرت الى جوابى المجهـــول بفضـــول وجد ما يشغله ويلهيه ٠ كان جوبينو قائما بالأعمال فى طهران عندما استضاف الاوروبية التى سارت على أقدامها من القسطنطينية الى بخارى ، وهى عائدة من سمرقند ، ولم يدهشـــه قط أن ينصرف جل حديثها الى ما بذلته من عناية فى المحافظة على بكارتها ٠ كان لهؤلاء المجانين والمجنـونات منظر وهيئة ـ حتى جاءت الرومانســية وقامت الألفة بين الأوروبيين و « اقاصى » الأرض فيما وراء الجبال فحورت من شخصياتهم وانتحلت لهم وجوها جديدة ٠ وأضحت المغامرة العظمى هى النفاذ الى عالم محرم ٠ وكانت شهرة الجزيرة العربية ترجع الى المدن المقدســـة ، والى الامارات المستقلة التى عملت انجلترا على ضمان عزلتها . ان باخرتنا متجهة نحو عدن التى ذهب منها ريمبو الى الحبشة ، وقادمة من جدة التى قصد منها ت.أ. لورانس الى صحراء العرب .

فيم كانت ، ولا تزال ، شاعرية سبأ ؟ الملكة بلقيس ؟ قليـــل من النساء قد دخلن التوراة ، وقد جاءتها من المجهول ، بفيلها المتوج بريش النعام . وفرسانها الخضر على الخيـول البلق ، وحرسها من الأقزام ، واساطيلها من الخشب الأزرق ، وصناديقها المغطاة بجلد التنين، وأساورها الأبنوسية (أما الحلى الذهبية ، فكأنما تمطر السماء بها !) ، والغازها ،

وظلها الخفيف ، وضحكتها التى عبرت قرون الزمن · مملكتها تنتمى الى الحضارات الضائعة · أطلال مارب ، سبأ القديمة ، موجودة فى حضرموت جنوبى الصحراء ، شرقى عدن · لم يتسن لأوروبى أن يدخلها منذ أواسط القرن الماضى ، ولا لبعثة آثار ان تدرسها ، ولا علم بموقعها الا من الأقاصيص التى تروى عنها · وكان هذا كافيا لتحديد مكانها بالطائرة ، اذا ما أعدت بعثة الاستكشاف بعناية ، ثم لتصويرها ، حتى ولو تعذر تثبيت الجهاز وكانت انجلترا تعادى الطيران فوق أراضيها ، فينبغى القيام من جيبوتى · وكان تحت يدى طائرة ذات محرك واحد ، يعيرنى اياها بول لويس فيلر ، بسخاء وثقة ، وتستطيع ان تحلق لعشر ساعات ، اذا حسبنا احتياطيها الاضافى من البنزين (كانت مارب على بعد خمس ساعات من جيبوتى ، وعلينا ان نجدها : ولكن العودة قد تكون يسيرة ، ويمكننا الاهتداء بشاطىء أفريقيا) · ولم أكن سائق طائرة · حاولت ان أجس مرموز وسانت زاكسوبرى ، ورفضت شركة الطيران · وكان سيتزن وبورشاردت قد لقيا حتفهما وهما يحاولان الوصول الى مارب برا · والأرجح ان يطلق علينا الرصاص ، وكانت الخزانات الاضافية تحت الأجنحة ، ولكن من المستحيل تقريبا اصابة الطائرة بالبنادق التى يمتلكها العرب · وافتتن كورنيليون بالفكرة ولم يكن تابعا لأية شركة طيران · لقد مات مرموز وسانت اكسوبرى فى البحر ، وقد أنبت عن الجنرال ديجول عند دفن كورنيليون فى الانفاليد ·

ما الذى أغراه ؟ الصداقة ربما ، وحكم شركة الطيران « بعدم الجدية » على هذه البعثة ، وأخيرا ، الرومانسية ·

منذ أكثر من ألفى سنة ، وهذه الأرض أرض أسطورية · كانت أرضا أسطورية لروما ، وللتوراة ، وللقرآن ، وهى أرض أسطورية لقصاصى الحبشة وفارس · وقد سمعت الرواة الفرس ، أيام أن كانت القوافل لاتزال تعبر الميدان الكبير بأصفهان (يتقدمها دليلها الحمار الصغير بقلادة من اللآلىء الزرقاء ، بين رنين الجلاجل ، وكل مسافر يحميه الحجاب الأنجع : ذيل الثعلب أو حذاء طفل مسيحى) ، سمعتهم يقصون كيف تاه جيش آيتوس جالوس الرومانى وهو يبحث عن الشاطىء بعد رسوبه أمام سبأ · وكانوا يقولون « ما أوحشها من صحراء ! » وفى رأيهم أن لعنة قراء النجوم السبئيين هى التى أضلتهم الطريق · وحقيقى أن الفيالق الرومانية قد هامت ، لمدة أشهر ، فى المفازات الموحشة ، يضلها أدلة وزير النبط ، الى بعد أقل من مائة كيلو متر عن الشاطىء الذى كانت فيه نجاتهم · ولم

يجدوا الا البحر الداخلي ، بأمواجه الساكنة وحوافه تغطيها القواقع المزرقة ·

مثلما فعل خشريش الذى جلد بحر ايجة بالسياط ، قرر جنرالهم ، عوضا عن المدينة ، أن يمتلك البحر · أصابه الاله الشمس بمس الجنون ، فحلم بأن يدخل الكابيتول بجيشه محملا بالقواقع يرى فيها روح هذا البحر الذى لم يسبق لرجل رومانى أن شاهده · فرتب جيوشه فى نظام المعركة ضد الأمواج · واقتحم فرسان روما الماء الفاتر على صوت النفير ، وانحنى كل جندى ، بدرعه فى الشمس ، فملأ خوذته من القواقع ، وذهب ، دون أن يخرج عن مكانه من الصف ، وهو ممسك بهذه الخوذة المليئة بالودع والمحارات ذات الحرير ، نحو روما ــ ونحو لفحة الشمس القاتلة ·

ولمدى قرنين من الزمن ، ظل المسافرون العرب يشيرون ، الى جيش من الدروع والهياكل · غاصوا فى الرمال كما غاصوا فى البحر حتى الصدور ، وامتدت أيديهم نحو الشمس بخوذات مليئة بالقواقع · وعوضا عن البحر ، كانت الشمس عندما تغرب ، تهب للموتى الصحراء بكل اتساعها ، وتلقى فى أغوار الرمال المسطحة بهذه الظلال الفيلقية وبظلال بعض الأيدى المفتوحة فوق الخوذات الساقطة ــ مفتوحة بأصابعها المتطاولة الى ما لا نهاية على الرمال ، مثل أصابع النخيل ·

هذه المنطقة تلعب دورا كبيرا فى الخيال الشعبى الفارسى ، وربما كان ذلك لأن يمنيى الجبال شيميون · وكأن رواة اصفهان (لم يعد هناك رواة فى ميدان أصفهان ··) يصفون ميتة سليمان ، التى جهلتها التوراة ·

كان سليمان قد ترك أورشليم منذ سنين ، وتبعه الجن فى الصحراء وقد أذلهم الخاتم الذى لا يمكن لغير الموتى أن يقرأوا حرفه الأخير · وفى بعض وديان سبأ ، أخذ الملك الذى كتب أعظم قصائد اليأس ، يرقب وقد عقد يديه تحت ذقنه واعتمد بهما على منسأة السفر ، يرقب الجن الذين قضوا سنوات عديدة يشيدون قصر الملكة · ما عاد يأتى حركة أبدا ، هو يشير فقط بسبابته الى الخاتم المقتدر · وكمثل ظلال الجنود الرومان المدفونين الى النحر فى الرمال ، كان ظله فى كل مساء يمتد الى أقاصى الصحراء ، والجن فى الرمل دائبون على العمل ، يحمدون الاحرار من اخوتهم المنطلقين عبر الصحراء هادرين بخراطيمهم ·

وجاءت دابة تبحث عن الخشب · ورات المنسأة الملكية ، وانتظرت حتى وثقت بالأمان وبدأت فى حفرها · وسقطت المنسأة والملك ، ترابا :

كان مولى الســكون قد أراد أن يموت واقفا ليخضع للملكة الى الأبد ، كل الجن الذين يحكمهم · نجوا فانطلقوا الى المدينة · فوجدوها خرابا ، أما الملكة فقد ماتت منذ ثلاثمائة سنة · وبحثوا عن قبرها ، حتى عثروا على النقش المشهور :

« قد استودعت الورد قلبها المفتون ، وعلقت على شجرة البلسم خصلة من شعورها ·

« فالذى كان يحبها يضم الخصلة الى قلبه ، ويشمله الشجن وهو ينشقها ·· »

وفروا فى الصحراء وقد وجدوا الملكة غير المتكافئة الساقين ،مدفونة فى تابوت من البلور يحرسه ، ساكنا ومرصعا ، ثعبان خالد ·

●

هذه الأراضى الأسطورية تدعو اليها الفرفلين · عندما كنت ابحث عن وثائق عن مارب ، أخبرنى شاركو الذى ساقته الصدفة لبرعانى فى الجمعية الجغرافية (حيث وجد ولا يزال يوجد ، فى أغلب الظن ، قناع الموت الحقيقى لنابليون) أخبرنى بتقارير ارنو ، اول أوروبى وصل الى مارب ·

كان صيدليا فى الآلاى المصرى الذى أرسل الى جدة فاقام هناك وفتح محل بقالة عام ١٨٤١ ، وسمع أهل البلد يتحدثون عن مارب ويصفونها بمدينة الأسطورة · فقدم الى صنعاء مع البعثة التركية ، ووصل الى مارب متنكرا ، ووجد هناك ستة وخمسين نقشا كتابيا ، طبع بصمتها بفرشاة احذية ـ وبحمار خنثى ·

وسحب الحمار من مقوده ، وسار فى طريق الشاطىء الأشقر ، وهو يخفى طبعة النقوش فمن الممكن أن يظنها العرب علامات على مكان الكنوز المخبأة ، ويلاحقه الهوى الفاجع الذى مس كل الذين أرادوا الاقتراب من هذه الأطلال · وتظاهر بانه بائع شموع (الشمع يكثر فى هذه الجبال) واضطر ان يحمى شموعه من شراهة البــدو الذين ظنوها صالحة للأكل ، وبدلا من أن تعينه على الحياة لحقت بضاعته بالطبعات السرية ، فى اللفائف المستديرة التى أحكم اغلاقها· ولكى يقيم أوده ، عمل حاويا، وواصل السير العنيد من قرية الى قرية ، نحو الشاطىء الذى يستطيع منه الفرار ، وهو يعرض على الأهالى المحليين حماره الخنثى الذى أصبح منقذه ·· وهكذا وصل الى الحديدة وأصبح بقالا مرة أخرى قبل أن يتمكن من بلوغ جدة · وعاداه

رجل من الدراويش اشتم فيه الكفر فألب عليه الجموع ، واضطر الى الهرب من جديد ، حاملا على مركبه النقوش والحمار ، بينما كان أعداؤه يشعلون في الليل ، علامة على الابتهاج ، الضوء المتواضع من شموعه المسروقة .

وكان يشكو من الرمد ، فلما بلغ جدة حيث كان فريسنيل قنصلا ، كف عن الابصار . واعطى النقوش لفريسنيل الذى قام بترجمتها وارسالها الى « الجريدة الأسيوية » . وطلب من ارنو ، وقد آواه في بيته ، أن يعيد له تصميم سد مارب ومعابده المطمورة في الرمال . ولم تقو اليد العمياء على أن تخط فوق الورق غير فراشات مشوهة . وعندئذ سار ارنو وقد ألقى يده على كتف فريسنيل حتى يقوده الى شاطىء جدة وهناك تسطع على الرمل الرطيب أمام دليله الذى تحير في فعله ، وأعاد رسم السد بيديه المتحسستين ، وخط معبد الشمس البيضاوى ، وحفر بسبابته ثقوبا مستديرة ترمز الى قواعد العمدان المحطمة . وأخذ العرب ينظرون الى هذا الرجل الذى يصنع قصورا من الرمل وقد احترموه أخيرا لأنهم ظنوا به الجنون ، وفريسنيل ينقل الى مفكرته بعجل المبانى التى سيجرفها البحر قريبا ، وكان كل ما يمس سبأ يجب ان تستعيده الأبدية .

وقد ظل ارنو عاجزا لمدة عشرة اشهر . ثم عاد الى فرنسا ، واعطى الحمار لحديقة النباتات ، وكلف بمهمة الى افريقيا واليمن . وبعد الف مغامرة ، ومغامرة رجع الى باريس عام ١٨٤٩ ، يحمل معه مجموعاته . وكانت آخر انتفاضات ثورة ١٨٤٨ قد أردت الدولة في حالة من الفقر والعوز لم تستطع معها ان تشترى شيئا ولحق بارنو قضاء مثل اقضية التوراة واستخف به ، فانهى ايامه في الجزائر ، فقيرا بائسا ، ومات الحمار جوعا في حديقة النباتات ، واختفت آخر اشياء سبأ وسط المنشورات السياسية في مقبرة الصناديق على الأرصفة . وكانت الجريدة الأسيوية قد نشرت جثمان أحلامه : النقوش والتقرير — الذى احترمه الاخصائيون — وحيث قرأت : « وعند خروجي من مأرب ، قمت بزيارة اطلال سبأ القديمة التى لا تعرض بصفة عامة غير آكوام من الأرض .. »

قد كنت أحب ان اعرف ارنو ، بلحية الجندى الزواوى ، وبجسده وشموعه وبطولته المهلة ونبوغه البسيط الحلو في المغامرة . ربما كنت بغير علم منى ، قد ذهبت الى سبأ بحثا عن شبحه ؟ أو شبح حماره الذى كان جديرا أيضا بحبى ، والذى مات بلا شك بين الدب الأبيض وطائر البطريق ، راضيا بمقامه في فردوس الحمير ، ولكنه لا يدرك ولا يستطيع مطلقا أن يدرك ، لماذا امسكوا به اسيرا في هذا المكان وكفوا عن اطعامه .

كنت أنا وكورنيلون ، نردد : « ٠٠ التى لا تعرض بصفة عامة غير أكوام من الأرض ٠٠٠ » أثناء تجربتنا الأخيرة للمحركات على حقل الطيران فى جيبوتى ٠ وكان الطيارون الحربيون ، يدعون لنا بالتوفيق ، قلقين ولكن متحمسين ، وكنا نتطلع الى السحب والى السـماء بروح المنجمين الكلدانيين ، وحذر الرعاة ٠ وذهبنا بلا ظل فى ساعة الشروق ٠ ومن خلفنا خليج تاجورة يكسر على المرجان أمواجه الخفية تقطعها بلا شك الدرافيـل الضحاكة ٠ هذه الفرجة الطويلة الحوشية اللينة الممتدة فى لا نهاية الغمام والسماء كانت جزيرة العرب كمسجد ابيض وجوانب من قصور مبعثرة عندما كنت صبيا ، بحثت فى «دليـل البلدان الخارجية » ، عن المدن الرومانسـية ، وتحضرنى الآن رائحة شارة قهـوة وانا اقرأ : « مؤقة ، قصور رائعة تتحول الى أنقاض ٠٠ » هنا لجأت سفن سبأ والسفن الفينيقية التى كانت تجلب الى الملكة « شجيرات الورد من سوريا تتلألأ بورودها »

قلق الرعاة ، اعقبته حياة الملاحين القدامى . كانت الطائرة ، منذ ثلاثين سنة ، جعرانا ضخما أعمى ، منذ لحظة اقلاعها عن الأرض ٠ الأمان الذى تقدمه الشركات الأوروبية ، كان يأتيها من محطات الارسال ، ولم تكن توجد محطات ارسال فى هذه المناطق ولم تكن طائرتنا تحمل جهازا لاسلكيا لم يبق اذن ، لنحدد موقعنا ، غير البوصلة والسرعة ٠

لاحت لنا سحب شتى مثل الألوية الاسلامية واعقبها ضباب لا يحده بصر لحق بتراب الرمل الذى اخذنا فى خوضه ، وعارضتنا الريح فهى الآن تستطيع أن تحرفنا الى مسافة مائة كيلو متر دون أن تشـير البوصلة الى ذلك ٠ سيان تقدمت الطائرة فى خط متعرج او سارت قدما فى خط مستقيم فان الابرة تشير الى الشمال بنفس الطريقة ٠ والجهاز الذى يقيس الانحراف ، يقيسه بالاستناد الى الأرض ، والأرض لم تعد تظهر الا لماما من ثقوب الضباب . اما السرعة ، فعداد الطائرات السياحية ، يعلنها « بالنسـبة للريح » وعدادنا الآن يشير الى ١٩٠ ٠ ترى ما هى الحقيقة مع هذه الريح العمودية ؟ ١٦٠ ، كما كنا عند الذهاب ؟ أم ٢١٠ ؟ واخيرا على رأس قمة شبيهة بغيرها من القمم ، ظهر شكل هندسى ٠ وهم آخر ؟ كلا ، بل هى قلعة ٠ وصنعاء هى الوحيدة فى اليمن التى تشرف عليهـا قلعة ٠ وقبل كيلو متر ، معطب كشف لنا فجأة ، عن وادى صنعاء مزروعا حتى آخر حفائره ــ وفى وسطه ، المدينة بين أسوارها المائلة ، و «روضة» المهدمة وكأنها جلد ثعبان متروك ، ــ صنعاء مدورة ، كلها من الحجارة ، سلة مجدبة معجبة من البلور الأبيض والعنـابى ، فى طرف جبالهـا العمودية ٠

علينا الآن بالصعود من وادى الخريد الى وادى المقابر ، حيث كنا نامل أن نرى الأطلال من هناك · وكان الضباب يذوب · والخريد على ما تقول الخرائط ، قريب جدا ، فيما وراء الأنهار الأخرى · ولكننا لم نكن نبصر واديا أبدا ، وادركنا أخيرا أن هذا الجداول المنقطة جداول تحت الأرض ولا خريد هناك · وكنا قد حملنا معنا من البنزين ما يكفى لمدة عشر ساعات ، وقد مرت على قيامنا خمس ساعات ولم تعد امامنا فى البر علامة نهتدى بها · واذا بالغمام الذى كنا نتقدم ونخرج منه شيئا فشيئا ، يصبح وراءنا · لقد كنا فوق الخريد · كان نهرا تحت الثرى ولكن فى هذه المنطقة الماحلة تقريبا ، كان شريط النبات الأخضر الداكن تخططه الأشجار فوق الأرض ويتبع خط الماء ·

وفيما وراء الخريد تبدأ صحراء الجنوب الواسعة ، صحراء مملكة سبأ · لم تكن بعد صحراء ذات كثبان طويلة لينة مثل شمال الصحراء الكبرى ، كانت صخرية أو مسطحة ، عارية على الدوام ، كأنها هيكل الأرض اصفر وابيض ، تغطى بالظلال ولا بد انها تموج بالسراب · لا واد ولا قبور · صحراء ترفض كل شكل دقيق وكأنها منذ الآن حرب على عين البشر التى اقتحمت عزلتها الكوكبية · وبدا لنا وكأن جداول لا حصر لها ، نابضة منذ العصور الجيولوجية ، قد حفرت فى الرمل وتشعبت مثل الأشجار الجرداء او شباك الشرايين ، على امتداد الأفق الذى تجوبه الأعاصير · والريح تسفى الرمال والزوابع مطبقة وعند أطراف الشعاب المحفورة نقاب مرتعش من اللهب . الصحراء كلها غابة تشتعل كأنها مملكة محرمة تسلط عليها عقرب مقدس يجثم فى أعماقها ، وتنعكس على فقاره شمس البغضاء تارة ومجرات السماء البابلية ·· على أن الذهن قد أخذ يألف المكان · والعين كذلك : على اليمين امامنا ما هذه الأنقاض الهائلة من كتل الحصى ؟

وكلما زدنا اقترابا من الأرض وضحت لنا معالمها · ونحن فى طائرتنا المكوسة نجاهد جهاز التقاط المناظر مثل غلمان المقاهى المهرولين بصوانيهم · لم تعد هى الصحراء ولكن واحة مهجورة ، بآثار من زروعها ، وتتصل الأطلال بالصحراء على اليمين · هذه الأفنية البيضاوية المتراصة ، بانقاضها الواضحة فوق الثرى ، هل هى المعابد ؟ كيف نرسو عندها ؟ الكثبان من جهة ، فقد تنكفىء الطائرة وتنغرز ، ومن الجهة الآخرى أرض بركانية تبرز فيها الصخور من الرمال · وفى كل مكان حول الأطلال ، أنقاض شتى · كنا لا نزال نهبط ونحن نواصل التقاط الصور · والأسوار على هيئة الحدوة ، ليس وراءها الا الفراغ : لا شك ان المدينة المشيدة

باللبن مثل نينوى ، قد عادت مثلها الى البيـــداء • ورجعنا الى الموقع الرئيسى : برج بيضاوى وافنية أخرى ومبان مكعبة • وعلى البقع الداكنة ترسمها خيـام البدو المتنـاثرة خارج الأطلال ، طرقعت نيران صغيرة • لا شـك أنهم يطلقون علينا الرصاص • وبعـد الأسوار أخذت تتضح لنا بقايا آثار مليئة بلغز الأشياء التى نجهل غايتها : حرف H هذا الراقد فوق البرج المشرف على الاطلال ، مامعناه ؟ هل وضع ليلائم ظروف الرصد؟ أم كان سطوح حديقة معلقة ؟ كانت لا تزال كثيرة فى صعيد اليمن حدائق سميراميـس التى تواضعت وتحولت الى الخضروات ، لكن تغطيهـا حشيشة الأحلام ، قنب عجوز الجبل •• يا خسارة كان من المستحيل ان نحط عندها ! وارتفعنا من جديد وسرنا قدما لنحلق فوق طلل آخر ، صغير، قليل الأهمية ، ثم اتجهنا الى المدينة من جديد • ومثل أكف شانهة كانت لآلهة سبئيين اوقظوا بأخرة من الزمن ؛ بدأ الضباب والسحاب فى تغطية هذا الحطام الذى رماه الغرق هنا كسفينة بابلية محملة بالتماثيل المهشمة •

ليس علينا الا أن نعود فى الأوان (ولكن الريح كانت تدفعنا) ، وفوق البحر ، عطل البنزين لا يغتفر • وعلى قشرة الصحراء ، امتد شيئا فشيئا قوس خنجر مهول ، مصنوع من الصخور البركانية ، قوس يتألق بالفصوص السوداء • كان وادى المقابر الذى أخطاناه من قبل ، وادى عاد مدفن ملوك سبا كما تحكى الأساطير مقابرهم من الأردواز تتلألأ فيها كسر مربعة مثل نوافذ المدن ساعة المغيب •

قيل ان تحت هذا الأردواز ، كنوزا مخبأة • وقد التقيت فيما بعد بالألق المدهش المنبعث من المعادن السوداء تحت الشمس المدارية • ان البدو لم يكتشفوا طريق المدافن (لماذا لا يذهبون ليتعلموا فى مصر !) ولكننا سواء ، أمام هـذا الوادى مذئبة الجوع والعطش الذى ما زال مرصـودا لا يقهر ، فلا هو باح بكتاباته ولا بأسماء موتاه العظام الذين تحيط بهـم رفات شعراء الجاهلية :

وحليل غانية تركت مجدلا تمكو فريصته كشدق الأعلم

سبقت يداى له بعاجل طعنـة ورشاش نافذة كلون العندم

برحيبة الفرغين يهدى جرسها بالليل معتس الذئاب العزم

فتركته جزر السباع ينشنه يتضمن حسن بنـانه والمعصم

وما دامت أمامنا سنوات قبل ان يأتى بعض النابشين فيلقى بحفنة من الألغاز فى وجه الشمس التى قهرت الفيالق الرومانية ، فليظل هذا القبر القائم على اليمين يكبر أمثاله قليلا ، هو قبر الملكة •

اعبنا توقظ آلهة سبأ ؟ فى نفس اليوم الذى نشرت فيه الصحف الصور التى التقطناها للأطلال ، سار جيش ابن سعود الى اليمن ٠

كنا قد لحقنا بجيبوتى فى الوقت المناسب ، فالبوصلة البدائية التى كانت اعجز من ان تكتشف موقعا ، لم تكن اعجز من أن تعثر على خليج تاجورة ٠

وقد افدت فى طريق العودة الى فرنسا ، خبرة الفية فى ميدان اقل غرابة ولكن أكثر عمقا من سبأ : لقد التقيت ، لأول مرة ، بدنيا الالياذة والراماياانا ٠

لقد ذهبنا من طرابلس الى الجزائر على الرغم من ان النشرة الجوية لم تكن مشجعة ، واثناء تحليقنا فوق تونس أصبح الجو ينذر بالقلق ٠ ودخلنا فى السحاب ، وبعد ممر متساو طويل جدا ، وكانت الخريطة تشير الى بعض التلال ، ظهرت لنا قمم عمودية ما زال يغطيها الجليد ، فوق السماء التى اشتد سوادها ، وكانت هى جبال أوراس ٠

لقد نات بنا الطائرة مائة كيلومتر على الأقل ٠ وكنا نغوص فى سحابة هائلة واقفة ، ولكنها لم تعد فى هذا العلو هادئة بلا حراك ، انما هى قد تجمعت ، حية قاتلة ٠ تتقدم أطرافها الى الجهاز وكأنه قد انحفر شيئا فشيئا فى مركزها ٠ ولاتساع البراح وبطء الحركة ، لم نر ما يعلن لحدوثه وكأنه معركة بين وحشين ولكنه القضاء النازل ٠ وتراءت أطرافها المنسولة صفراء وقاتمة ، كمثل مرأى الرءوس فى البحر الضبابى ، تائهة فى سديم اشهب بلا حدود لأنه منفصل عن الأرض : كانت نسالة السحابة قد تسللت تحت الطائرة والقت بى فى مجال السماء الذى اغلقته وسدته نفس الكتلة الرصاصية ٠ وخيل الى أنى قد تخلصت من الجاذبية ، وانى معلق فى مكان ما من الأكوان ، معلق بالسحاب فى معركة بدائية ، بينما الأرض من تحتى توالى مسارها الذى لن التقى به أبدا واجتاح الظل جوف الطائرة ، والجهاز الصغير اصابه السعار وهو مشدود الى السحاب الذى أسلم قياده فجاة لقوانينه وحدها ، فاصبح المشهد كله خارجا عن واقع الأشياء ، تغمره أصوات الاعصار البدائية ٠ وعلى الرغم من تمايل الطائرة التى آخذت تصطدم بكل هبة ريح وكأنها ارض صلبة ، كنت ملتصقا بهذا الموتور الأعمى الذى يجذبنى الى الأمام ، لولا أنى فوجئت بالجهاز وهو يطشطش ٠

صحت : ـ سحابة من البرد ؟

من المستحيل ان أسمع اجابة كورنيليون ٠ الطائرة المعدنية ترن مثل

الدفوف فوق قعقعة البرد على زجاج النوافذ : قد بدات حبات البرد تدخل من فجوات الكبوت ، وتلدغ وجهنا واعيننا · وبين خفقتي جفن ، كنت اراها تنحدر على الزجاج لتثب من جديد على شقوق الصلب·واذا ما انفجر الزجاج ، استحال توجيه الطائرة · فضغطت بكل قوتي على مصراع النافذة وابقيته ثابتا بيدي اليمنى ، وخط الطيران لا يزال الى قلب الجنوب وبدأ الفرجار يشير الى الشرق · صرخت « الى اليسار ! · عبثا · الى اليسار ! » انا لا أكاد اسمع نفسي ، تهزني ، وتنزعني ،وتغمرني حبات البرد المتطايرة التي تصطفق فوق صوتي ، وتلهب الطائرة وثبا مثل السياط · وبذراعي الطليقة ، اشرت الى اليسار · ورايت كورنيليون يدفع المقبض كمن يريد أن يكسر على ٩٠ درجة · وفي الحال ، نظرنا الى البوصلة · الطائرة تسير يمنة والموصلات لا تجيب · وارتعشت الطائرة ، على امتداد جسدها ، وسكنت فجأة في اختلاجة قاسية · البرد ، والضباب الأسود لا يزال هو الضباب ، والبوصلة هي الشيء الوحيد الذي يربطنا بالأرض · وهي تدور ببطء نحو اليمين ، وتحت وابل أشد ، بدأت تحيد وتحيد حتى دارت على نفسها دورة كاملة · ودورتين · وثلاثا · وفي مركز الزوبعة ، الطائرة تتبختر وتدور منبطحة على نفسها ·

الا أن الاستقرار بدأ وكأنه نفس الاستقرار ، والموتور يصر على انتزاعنا من الزوبعة · ولكن هذه الميناء التي تدور كانت اقوى من أحاسيس جسدي كله ، فهي تعبر عن حياة الجهاز كما تعبر العين التي ظلت نابضة عن حياة المشلول · وتسر هامسة ، بالحياة الأسطورية الضخمة التي كانت تهزنا مثلما تميل الشجر ، وكانت الفضة الكونية تنكسر بدقة في دائرتها الضئيلة · وقد تشنج كورنيليون على المقبض ، وهو في أقصى حدود الانتباه ، ولكن وجهه كان وجها جديدا ، عيناه أصغر ، وشفتاه أشد انتفاخا ـ وجهه أيام الطفولة ، ولم تكن المرة الأولى التي ارى فيها الخطر يلقي على وجه انسان قناع طفولته · وشد اليه المقبض فجأة ، فقمصت الطائرة وانحشرت ميناء الفرجار في الزجاج · لقد اخذنا من أسفل كما تأخذ الحوت موجة من الأعماق · ما زال للموتور نفس الشهيق المنتظم ولكن معدتي قد غاصت في المقعد · انقضاض أم صعود ؟ بين صفعتين جديدتين من البرد ، عدت الى التنفس · ولاحظت أني أرتعش ، لا من يدي (فقد كنت لا أزال أثبت النافذة) ولكن من كتفي اليسرى · وما كدت اتساءل هل عادت الطائرة الى وضعها الأفقي ، حتى ضغط كورنيليون المقبض الى الأمام وقطع الغاز ·

كنت أعرف المناورة : الهبوط والاستفادة من ثقل السقطة لاختراق

العاصفة ثم محاولة استعادة الوضع بالقرب من الأرض · مقياس الارتفاع يشير الى : ١٨٥٠ ، ولكنني أعلم ما يجب أن نظنه بدقة مقاييس الارتفاع · ها هو يشير الى : ١٦٠٠ ، والعقرب يتارجح كما كان ميناء البوصلة منذ حين · اذا وصل الضباب حتى الأرض ، أو اذا كانت الجبال لا تزال تحتنا فسوف نرتطم ونسحق · والآن وقد كفت الطائرة عن سلبيتها في المعركة ، كفت كتفي عن الارتعاش ، وتجمعت الآن حواسي كلها ، بطريقة هي بمنتهى الدقة ، جنسية : كنا ننقض بكل ثقلنا ، ونفسنا مقطوع ، خارقين الرياح خرق النسيج ، في ضباب الآباد وآخرة الدنيا · الذي يعيش متوحشـــا على صوت البرد المتمزق :

١٠٠٠

٩٥٠

٩٢٠

٩٠٠

٨٧٠

٨٥٠ ، احسست بعيني أمام رأسي ، عيني اللتين جن فيهما الخوف من مداهمة الجبال ، ـ غير أني في ذروة الحماسة العظيمة ·

٦٠٠

٥٥٠

٥٠٠

٤ ـ ظهر السهل ، لا محاذيا للأفق ولا أراه أمامي كما كنت انتظر ، ولكنه بعيد ومنحرف · وترددت أمام أفق الـ ٥٤٥° الذي لا يمت الى الواقع (كانت الطائرة هي التي تسقط مائلة واذا بحقيقة الحال ، يعيها كل كياني ، وكورنيليون يحاول أن يصحح الوضـــع · كانت الأرض بعيدة جدا وراء هذا البحر من السحب المنحطة ونتف من التراب والشعر ما ان تنعقد علينا حتى تنفتح من جديد ؛ وعلى بعد مائة متر وتحت الطائرة ، انشقت الأرض من أطمارها ، عن منظر من هباء الرصاص ، وشظايا ســوداء من تلال صلدة حول بحيرة غبراء تفرعت زوائدها في الوادي وعكست بهدوء جيولوجي السماء الخفيضة الشاحبة ·

وتجرجرت الطائرة تحت الأنواء ، نصف منصرعة ، على بعد خمسين مترا من الذرى ، ثم فوق كروم باهتة ، وفوق البحـيرة : والماء يرعش بموجات قصيرة من لطم الرياح · تخلت يدي عن النافذة أخيرا وتذكرت

ان خط الحياة فى كفى طويل · وعلى هذه الأرض التى بدت فيها الأنوار المتزايدة وكأنها تنبثق من ضباب الشتاء المختلط بالليل ، لاحت الطرق والجداول والقنوات مثل الندوب ، لا ترى العين فيها الا شبكة من التجاعيد على يد هائلة ، تمحى شيئا فشيئا · كنت قد سمعت قائلا يقول : ان التجاعيد تمحى من يد الموتى ، فكأنى أردت أن أرى هذا الشكل الأخير من الحياة قبل اختفائه ، فأخذت أتطلع طويلا الى راحة أمى الميتة : على الرغم من أنها لم تكن قد تجاوزت الخمسين ، وان وجهها بل وظهر يدها محتفظان بشبابهما ، كانت راحة يدها راحة امرأة عجوز ، بخطوطها الرقيقة الغائرة ، المتشابكة بلا نهاية · وكانت تختلط بكل خطوط الأرض التى استهلكها الضباب · والليل · وهدوء الحياة يصعد من الأرض وهى لاتزال شاحبة ، نحو الطائرة المنهكة التى يلاحقها المطر كأنه صدى للبرد والعاصفة المرتدين الى الوراء ؛ وكأن طمأنينة هائلة راحت تغمر الأرض التى لقيناها من جديد ، والحقول والكروم والمنازل والأشجار وعصافيرها النائمة ·

●

هناك التقيت ، للمرة الأولى ، بتجربة « العودة الى الأرض » ، التى لعبت فى حياتى دورا عظيما ، التى حاولت أن أنقلها مرارا · لقد نسختها مباشرة فى « زمن الاحتقار » · وهى بالمثل تجربة كل انسان ، يستعيد اللقاء بحضارته بعد أن يكون قد ارتبط بأخرى ، تجربة بطل « الألتنبرج » عند عودته من أفغانستان ، وتجربة ت · ا · لورانس (ولو أن لورانس يقول انه لم يرجع انجليزيا كما كان فى الماضى) ؛ ولكن اذا كانت الدهشة كما هى ، فان الموت أشد غربة علينا من البلاد الغريبة · وبخاصة عندما يرتبط بالعناصر الأولية · حاربت فيما بعد فى الطيران ، وأعرف ما يعنيه عجزك — ثلاث ثوان — عن اطلاق النار على الخصم ··· لأنه أول عدد تبدو لحيته من تحت القناع ، فتستحيل المعركة الى جريمة قتل · ولكن القوى الكونية تطلق فينا كل ماضى البشر · لقد هبطت هذه المرة الى الأرض فى بون · وفى الحال ، هلل بعض أبناء الجنوب لـ « عرضنا الرائع » : حسبونا آخرين · وكان هناك على جانب الطريق ، باب بلا حاجز ، مثلما نرى فى أفلام شارلى شابلن ، وفوقه اعلان بحروف كبيرة «اطلال هيبونا» · وفى المدينة مررت أمام اليد الحمراء الضخمة التى كانت يومئذ رمزا لتجار القفازات · والأرض آهلة بالأيدى ، وربما كان فى استطاعتها أن تعيش وحدها وتعمل وحدها ، بدون البشر · وأنا لا أستطيع التعرف على الدكاكين وعلى واجهة فراء تضم كلبا صغيرا أبيض يتسكع فى وسط الجلود الميتة ، يجلس ويقوم : كائن حى ، طويل الشعر ، طائش الحركات ، ليس انسانا · حيوان · كنت قد نسيت الحيوانات · وكان هذا الكلب

يتنزه في هدوء تحت ظل الموت الذي ما زال يعاودني دويه : كان يتحسر على أن افيق من دوام العدم ٠

ما زال البشر موجودين ٠ وقد ظلوا يواصلون حياتهم، بينما هبطت الى المملكة العمياء ٠ ومنهم الذين يسرهم أن يكونوا معا ويرضيهم من الصداقة نصفها ومن الدفء نصفه ؛ ومنهم بلا شك من يحاولون ، في أناة وصبر او باندفاع وحدة ، أن يستخلصوا من مخاطبيهم قدرا أوفى من الاعتبار ؛ وعلى سطح الأرض اقدام منهكة ، وتحت الموائد بعض الأيدي تشابكت أناملها ٠ الحياة ٠ وهي ساعة الشروع في الليل فمسرح الأرض يستهل العلوبة الكبرى ، والنساء حول البتارين يفوح منهن عطر النزهة والسرحان ٠٠٠

الن اعود في ساعة مثلها ، لأرى الحياة البشرية تنبثق شيئا فشيئا ، كما يغطي ندى البخار وقطرات الماء الكئوس المثلجة ـ عندما أكون قد قتلت حقــا ؟

●

تلك عدن ٠ وما زالت من بعيد ، صخرة ريمبو التي لا نعلم حقا هل هي من أشياء دانتي أم جوستاف دوريه ٠ ولكن بها نشاز الهيئة التي تتخذها ، في زمن الغواصات الذرية ، هذه الصخور الامبراطورية لعاهله البحار القديمة ٠ ومكبرات الصوت تعلن على ظهر السفينة « نظرا للوضع في عدن فان الركاب الراغبين في النزول الى الأرض يتحملون المســئولية كاملة » ٠ يريد الانجليز أن يجعلوا من عدن عاصمة اتحاد من سلطنات جنوب الجزيرة ، يمنحونه الاستقلال عام ١٩٦٨ ٠ أما العرب الذين يعادون السلاطين ، ويؤيدهم المصريون وينظمونهم في اليمن ، فهــم يريدون أن يطردوا الانجليز في الحال ٠

زورق القنصلية الفرنسية في انتظارنا ٠

مثلما يحدث في كل مكان من الشرق ، بزغت هنا مدينة جديدة : طرق الأســفلت تمتــد على أرض كانت في يوم من الأيام ، للامبراطورية البريطانية ، تحفها منازل كأنما هي من امريكا الجنوبية ثم لونتها الهند بطلاء اخضر نيلي أو رصاصي أو أزرق رمادي ٠ وفي وسط المدينة ، حديقة مستغربة في هذا القحل الذي لا تزيل جفافه منازل بالوان شراب الفاكهة : فقد اينعت ازهار الجهنمية والدفلى (هناك لافتة تمنع من قطف أوراقها) ٠ وفي قلب الحديقة ، يوجد المتحف الصغير ٠

هو المتحف التقليدي الذي نراه في المستعمرات الانجليزية ٠ خليط

نظيف جدا ، فيه طيور مصبرة تقع عيونها المستديرة على مجموعة من زجاج البلوز ، وفيه بعض الأزياء ، وأنواع من البذور ، وفيه البقايا الأثرية التى يستحسن أن نتاملهـا ، جاثين على اليدين والقدمين ، كمثل جلوسنا القرفصاء فى متحف التروكاديرو القديم · والنحوت الغائرة المحفورة على صحاف الحجر ، مرصوصة مثل الكتب فلا نرى منها غير الكعوب · ولكن هناك ، عند ارتفاع ركبتنا ، شخوص كثيرة من المرمر · هى أعظم مجموعة من تماثيل سبا ، تفوق القسطنطينية وتفوق فيلادلفيا ·

يحملها البدو الى هذا المكان ، تمثالا بعد آخر ؛ وكان بعض الأثرياء من تجار العرب ، قد جمع عددا كبيرا منها وأوصى بها للمتحف · ذلك أن سبأ ، أو مارب ، سمها كما تشاء ، لا تزال فى أيدى الانفصاليين · لقد صمدوا للأمراء ولليمنيين وللمصريين ـ وصمدوا ، وكان ذلك أصعب وأدهى ، لناقلات البترول التى فشلت حملتها الأخيرة · وصمدوا للانجليز؟ لابد أن أولئك قد عرفوا قصارى ما يستطيعونه ، ولو عن طريق عملائهم المحليين · ولكن علم الآثار ، لم يكن فى هذه البلاد ، من كبرى الهموم التى تشغل اقلام مخابراتهم فهل يقدر لبعثة علمية ، تنظمها عدن المستقلة ، أن تبدو يوما ما « لغز سبأ » ـ اللغز الهازىء من أن يمس أقله فى هذه القاعات التى يسكنها شبح الصيدلى أرنو ، وطيف حماره ···

« واقام رجال دبار كل الأشياء التى صاغتها أيديهم ، تحت حماية الآلهة والأولياء والملوك والقبائل من سبأ ؛ ودعوا على كل من حدثته نفسه بأن يتلف أو يملخ أو يخلع صورة منحوتة من مكانها أو صنما واحدا أن يبيد نسله ! » ·

لو كنت برصا لأحببت هذه الكلمات المنقوشة · ولكننى أحب النقوش التى تتحدث وتروى عن الآلهة المحيرة : مثل سين الإله القمر ، قد نعت بالمذكر ، وهو مؤنث فى الميثولوجيات الأخرى ـ وذات بدن الالهة الشمس ، والعزى اله ـ فينوس ، مذكر ، وقد أشارت اليه نقوش كثيرة ، ولكنه لا يزال مجهولا · وفى هذا المتحف المسكين ، طغت على ازهاره الصغيرة الباسلة مياه الآبار الصقلبية التى يعزى انشاؤها الى الملكة بلقيس ، والتى طوقت فى حلقان جهنمية ، يحلم المرء فى المزاج الجنسى عند الشعب الذى صور فينوس رجلا ، ورأى فى الشمس علامة الخصوبة والأنثوية ، وفى القمر « أبا » رحيما سلاما · هم حمدوا الليل فهل كانت نسمة الليل بنت الصحراء ؟ ولكن الشعوب الأخرى فى البادية كانت فى نفس العصور ، تجعل من القمر الها قاسيا · اى مزاج جنسى ، مضطرب أو نقى ، صبغ على

خلاف الآخرين ، تفكير هذه السلالة البائدة ، وقد جاء فى اسطورتها التى لم يحققها اى واقع تاريخى ، أنها حكمت دائما بالملكات ؟

كان فى القسطنطينية ، على هامش مجموعة المتحف ، جملة من الأعمـــال المزيفة التى تستأهل التقدير ، ولا أراها تقلد الأعمال الأصلية ولكن تبتدع فنا · أما هنا ، فالدمى التى عثر عليها البدو حقيقية · وهى دمى معمارية مثل بعض التماثيل السومرية والمكسيكية التى كان الشخص منها هو العبد والمعبود والمعبد ، فى الوقت نفسه ؛ وتماثيل ملوك « تشبه الأصل » من بعيد ، وهى من تاريخ لاحق ، ومن تأثير فارثى ؟ وفى القاعة الثـانية ، ملك عظيم الشوارب ، معروض أمام نسيج من المخمل الأسود مثنى من اوســـاط الحروف · كم من القرون انقضت بين تلك الصياغة الحوشية وهذه الوجوه التى تشبه من بعيد الوجـوه الرومانية والفارثية والتدمرية والتى راحت البطاقات الساذجة البريئة تمتدح لنا « رقتها » ؟ وماذا يهم ؟ انهم آخر مبعوثى الملكة التى ملأت التـوراة بعطورها ، والتى لم يبق منها غير ضحكة يتردد صداها فى الفلوات : «فاضحك اذن ياراهب الصومعة » ·

هل نقب فى ناووسها لصوص المقابر ، ولم يبق من موميائها المباعة غير عين سقطت ، الصفاة واللا زورد ، مثل عين فرعونة متحف القاهرة ، التى عثر عليها فوق درج المقبرة بين موميات التماسيح وقطط كبيرة الأذن ؟ هل نجد القناع الرقيق الذى غطى وجهها ساعة الموت والتجاويف الطائشة التى أحدثتها الأصابع عندما غرزت فى المعدن لتحفظ طابع وجناتها وهى لا تزال دافئة ؟ أم نعثر على سلخة ذهبية لم يحكم تنبيسها ، مثل التى كانت فى متحف أثينا القـديم فوق البـطاقة المتربة المقتصبة : « قنـاع أجا ممنون ··· » ·

ومن بين الطرائف ، طرفة ليس لوجودها فى هـذا المكان تفسـير خاص · هى قطعة ذهبية من فئة المائة فرنك برسم نابليون · أفكر فى قناعه بالجمعية الجغرافية ، يغشاه الظل خلف شاركو · أيام كان يحدثنى عن أرنو · هو أرنو الذى كتب يقول انه عندما بلغ مارب ، سمع عن رجل أبيض قد وصل اليها قبله : ما زال العرب يذكرون لونه الأبيض ومروره المستغرب · ظنوه المهدى المنتظر فقضى الأمسية عند شيخهم ، واعطى الذين احاطوا به احـدى عشرة قطعة ذهبية كبيرة · وبعد صـلاة المغرب ، وعلى الرغم من أنه لا يعرف أحدا ، حملوا اليه رسالة · قرأها وقال «مات اخى» ، ونهض قائما ، ورحل · وفى الغداة ، عثروا حول التمثال الوحيد فى الأطلال،

وعند أقدامه المهشمة الضخمة ، على أحد عشر «عفريتا» للقطع الذهبية .
وسرعان ما علموا أن المسافر المجهول قد اغتيل على يد قبيلة مجاورة .

وطلب ارنو ان يحضروا اليه بقطعة منها : كانت من فئة المائة فرنك الذهبية ، برسم نابليون . وكانت العشرة الأخرى لا تزال فى سوق مارب ، رغم ان الأيدى قد تداولتها كثيرا ! لقد حرم الشيخ دخول صنعاء على ذهب هذا المسافر الذى بدا كان فى حوزته علم سليمان . وطلب ارنو أن يرى الشيء الذى أطلق عليه العرب « عفريت » العملة ، فجاءوا ببرشام للختم . وبرشام الختم كان مجهولا فى الجزيرة العربية ، فلا بد أن المسافر هو الذى أتى به . فما الذى حمله ، بعد أن وزع قطع العملة ، على أن يخترع عفاريت لها ؟

وأريد اليوم أن تهدى سبأ التى لم يهتك حجابها بعد ، الى هذا المغامر الذى ظهر لبرهة من الزمن ، فما برح أن لقى مصرعه فيها . وهو بلا ريب لايملك قبرا ، لأنه من هؤلاء المغامرين الذين فتنوا بأهواء الصدفة والى الصدفة عادوا . فليلعب ، حيثما كانت عظامه ، مثلما يلعب الموتى الذين ظلوا طوال حياتهم شجعان مستخفين بالأخطار ، مع أساطير سبأ الخالية من الزهور ، ومراصدها التى أضحت ترابا ، ومخازن عطورها ، وما بها من أطلال ترعشها الوحشة تحت وسم الطيور الصامت ؛ حتى يمسك كلانا ، فى أيدينا وهى ظلال ، لغزا من آخر الألغاز ، يؤاخينا فى ملالة الموت التى لا تنتهى .

وحارس مهذب يطلعنى من فرجة النافذة ، على الآبار المنسوبة الى بلقيس . ويقص على حديث الملك أكرم الذى هرب مع قومه بعد أن رأى فى ليلة من الليالى ، فأرا يزلزل بأقدامه الصغيرة صخرة من سد مارب لم يكن فى مقدور عشرين محاربا أن يزعزعوها من مكانها : السد الذى أدى دماره الى تسليم ثروة مملكة سبأ وحياتها ، للرمال ..

وسيان غدت مدينة محرمة أو مفتوحة ، مدينة من الأطلال أو من الطوب المضروب بالصلصال مثل نينوى ، فانى لن أرى مارب من جديد أبدا . هاهى تماثيلها ونقوشها وربما أزهارها . شجرة المر ، أمام المتحف، تختلط بنخلة من الزنك كانت عند قيام طائرتنا الشجرة الوحيدة فى جيبوتى ــ وهى الآن مدينة ... ــ بقطعانها من الماعز ورعاتها السود على بياض حقول الملح ، وشعاع أخير من الشمس على حديد رماحهم . ها هو النجاشى فى قاعة العرش وقد جلس على أريكة من محلات «جاليرى لافاييت» ومن حوله الرسميون بالعباءات . والمترجم ينطق اسم كورنيليون بالطريقة

الألمانية لأن النجاشي الحزين بسمته ، قد استقبل أول أمس بعض الضباط الجنكر ، وزئير آساد يهوذا يدخل من النوافذ · أقفاصها تحيط منذ قرون بالممشى الكبير في قصر ملوك الحبشـــة ، الذين ينســـبون الى ملكات سبأ أصولهم الأسطورية ·· هـذه هي الصحراء ، غمامها بلون الرمال مثـل أطلالها · وسليمان ميتا يحيط به جنة الفيران من الزوابع العاصفات على هواها · وصيحة عظيمة تطلقها الملكة التي تعرف بالهـارب تحت مجرات تحمل أسماء الحشرات ·· هو شعر الأحلام الميتة · لأن هناك أحلاما قد انهارت واستحالت الى تراب ، ومنها على سـبيل المثال المتوحش الطيب، هناك فراديس لم تكن لتقهر ، مثـل العـدالة ، أو تليدة مثـل الحرية ، والعصر الذهبي ودنيا من الأحلام ، رمادها يصبح شعرا كما يصبح رماد الآلهة ميثولوجيا : هناك الفروسـية والف ليلة وليلة ·· اما العوالم الاخرى التي تقصر عنها ، فهي تختلط جميعا ، تختلط أطلال مارب باطلال ستاد نورمبرج ، وذراعين من الحجارة تحمـلان النيران كان يقف بينهما هتلر ليناشد ألمانيا بالليل ؛ وتختلط باللهب العظيم في محاريب المجوس القديمة على جبـــال فارس ؛ وبغرفة خوفو الجنـــائزية بالهرم الأكبر ، وبالموت المتربص هنالك في براري الأفلاك ، قد اطلعني على تشابك شرايين الارض مثل الخطوط في كف أمي الميتة · وأنا أنظر بتهكم عطوف الى هذا الحلم المستهلك الذي من أجله جازفت بحياتي ، وأرى المتحف الصغير يستقبله مثلما كانت أزهار النسرين في حـديقة قس بدمشق ، تخفي فيما مضى شاهد العقيق الذي رقد تحته مجد صلاح الدين · وحداة فردت جناحيها ، يعبر أمام الباب ظلها ، وكأنه حمى صامت وبعيد ·

وفراشات يدعونا الحـــارس الى تأملها · واتساءل هل جاءت من سبأ لتـدبس على السدادات هنا ؟ انا احب أن أتخيـــل بلقيس تنحنى لسليمان بتحية شرقية ، وعلى أنفها فراشـة · واذكر ملـكة كازامانس العجوز واقفة امام شجرتها المقدسة ، تحت ندف الكابوك الحريرية ، في هـذه الشمس نفســها · نحن في الظهر · جاء وقت الذهاب · سينام المتحف عند أقدام الآبار الماردة ، في ظل اشجاره الجميلة ، لا رائحة فيها ولا قرود ·

انفجرت في المدينة سلسلة من القنابل اليدوية · صفارات الانذار تدوى · وصيحات الهرج تضيع في هـذا السكون العتيـــق · وتحملنا السيارة وقد نشرت عليها العلم الفرنسي · ازدحام وعربات اسعاف حيث القيت القنابل · الطريق الذي سلكناه لندور من حول التجمع ، شارع

مسدود . هناك شارع آخر . اذاعة القاهرة فى المنازل ، أطلقتها الاجهزة بأقصى قوتهـا ، تزار الآن بأن الانجليز يعـذبون المناضلين من أجل الاستقلال . نعود الى طريق المقر البريطانى . اسمه «المعلى» ، ولكن الناس يؤثرون أن يقولوا :

منذ أربع سنوات ، قام امام اليمن ، المتحالف حديثا مع الجمهورية العربية المتحدة ، بقطع علاقاته مع سوريا ، واستهل ذلك بقصيدة طويلة ضد ناصر .

« فاضحك اذن يا راهب الصومعة ! »

لامذكرات

- ١ -

١٩٤٥/١٩٢٣

فى عام ١٩٢٣ ، كنت اتوقع أن أرى فى سيلان صـــورة من شمال افريقيا أكثر بهاء · وكان تجار المجوهرات قد استولوا على الباخرة عند مرساها مطلقين زئير القراصنة ، وعلى أذرعهم مثــل ســلال الفتيــات ، يستخرجون منها أحجار السافير المشعبة ، بمهابة وجلال ، وكأنهم حراس الحلى المقدسة · وعلى الشاطىء . التقيت من جهة الرياح الموسمية ، بمنازل كلها خضراء ، وحدائق واسعة تكاد تخلو من الزهور ، والماء يقطر من الجريد بعد المطر · وصادفت عند هبوط المساء ، حى البراهمة · ولمحت الهند فوق ميدان ضيق ، بقامات شيوخها أشبه بشيوخ هوميروس ، أمام برج تزدحم عليه التصاوير الزرقاء · وطالعت ، بالليل ، بعض المراكب العربية ، بجؤجئها المنقوش ، تحت ضوء عتيق ينبعث من المشاعل التى كانت تتأرجح مثل المصابيح المعلقة ــ سفن السندباد المنسية ·

اما الهند الجنوبية . فلم تقدر لى معرفتها الا بعد ذلك بكثير · ولم أكن قد رأيت عــــام ١٩٢٩ ، اذا استثنينا بنارس ، الا الهند المسلمة · وكنت قد وصلت الى أفغانستان (كما وردت فى «الاتنبرج») عن طريق طشقند وقد تمت سفينتها ، وترمس حيث أصحاب القوافل من سمرقند وبخارى ، بعمائم على هيئة القرع ، وأردية مزهرة ، تربعوا تحت الأشجار الشائكة وافترشوا ظلها الهزيل ، وكأنما تخلى عنهم شرق الأحلام أمام حقل الطيران الروسى · وتاهت الساحة المديدة على حافة الفجر · والجو يحدس بالحرارة القاتلة · وأراد قائد الطائرة ان يحتمى منها فنزل الى البئر ، ورأيته يطلع من هنـــاك ، لا يكسوه غير شاربه ، ثم يركض مع صديق لا يقل عنه عريا ، وكان صديقى ايضا (بوريس بلينال ! هاها الخ··) واخذ يلهو فوق الأرجوحة ويستنشق الهواء فهى أرجوحة ومروحة وعليه أن يستعيد لياقته قبل أن يقطع جبال البامير فان عددا من الطيارين قد

لقوا هناك حتفهم ـ لانهم لم يتأرجحوا على الأرجح ·

وكانت كابل لا تزال محرمة تقريبا ، الا أنها فتحت للهنود الذين أحالوها الى صاحية من صفيح لمدينة لاهور أو بيشاوار · وكنت أتساءل عن لهاسا وهل هي باهتة مثلهما · ولكن عند غزنة المكدسة في جدرانها الصلصالية . أهلت براري اللافندة تأتلف زرقتها الناعمة أحسن ائتلاف مع زرقة السماء ، فوق دعائم البامير في الصباح الباكر · وأفغانستان عام ١٩٢٩ ، هي في ذاكرتي الحرب الأهلية والمغتصب يسلخ في الماء المغلى (مسكين حبيب الله وبين أكتافه رأس وزير الزراعة !) وهذه الحقول الرحيبة الزرقاء : وعلى جدران من الجير ، في الأسواق · كل هذه البلغ السوداء المقوسة ، مثل الشولات ، وآلات موسيقى علاء الدين ، لا يسمع لها صوت أبدا · بقية من الاسلام هي الهيكل الوحيد الذي يمسك من الانهيار هذا الشعب السائر نائما ، بين أطلاله · بين عراء جباله والزلزال الجليل في السماء البيضاء ·

وكنت قد وصلت من موسكو بالطائرة ولكنني اتجهت الى الهند عن طريق البر · لقد أنسيت اسم النجع الذي نزلت فيه استراحة ملكية بها حوض رائع يمتلىء بماء تعافه النفس · أنا لا يحضرني الآن غير ليل آسيا الوسطى ومزيج من أصوات خيالة الأفريديين ولواريهم ، وهم يتدحرجون من الجبال ، مثلهم أيام كيبلنج ، على بعض مدن الأفغان او الهنود · وقافلة عالم آثار اكتشف بضع مئات من التماثيل الاغريقية البوذية مصنوعة من الملاط · واخذ يشرح لي براعة العزاب في كي الملابس : الندى يمحو الثنايا والكسر · وفي مكان ما قبل ممر خيبر ، فك التحف التي جاءت بها الجمال من هادا ليستبدل فيما بعد بشرائق اللافندة اللفائف الأوروبية ، وقد يكون ايضا ليمتع النظر بتماثيله · ولكن الندى ، نفس الندى ، تغلب عند الفجر على الملاط بعد أن حفظته الرمال لمدة الف وستمائة من السنين ، فحول تماثيل البودافستا الاغريقية التأملية الى أكوام صغيرة من الجبس تمر بها الجمال وتنظر اليها حيرى وكأنها أرواح موتى احرقت · ثم الممر ، والميادين المسفلتة للامبراطورية البريطانية ، راضية مثل طرق الامبراطورية الرومانية · لقد امضى لورانس شهورا في قلعة من هذه القلاع ·

وكان طريق خيبر في ذلك الوقت ، من الرموز الدالة على الارادة الانجليزية · وكان سكوت قد كتب وهو يموت في القطب الجنوبي : «وفعلت هذا لأبين ما يستطيع الانجليزي أن يفعل» · وكان الذين «فعلوا»

هذا الطريق الملحمى ، لم يموتوا ، ولكنهم كتبوا حقا اسم انجلترا على الباميز ٠ وكان هذا هو مكان المعارك التى دارت ضد الافريديين أو الكافير الذين وقفوا فى الممرات وراحوا يهيلون جوانب من الهملايا على الطوابير الانجليزية ٠ هو المكان الذى نجا فيه من الابادة ملازم واحد فأجاب ، بروح اسبرطة وبروح الفكاهة ، على سؤال : « أين الطابور ؟ ـ أنا الطابور » ٠ انا أفكر فيكم يا أصدقائى الانجليز الذين قتلوا فى معركة لندن وافكر فى صموت تشرشل ليلا ٠٠ فى عام ١٩٢٩ كانت انجلترا تبدو كأنها لا يمكن أن تمس ، فلم أكن افكر فيها ٠

كانت بيشاور فعلا عاصمة الحدود ٠ وفى العالم الاسلامى الجبلى الخشن يظهر بذخ الهندسة المغولية ، وهى حيث لا تكون أطلالا ، تنتمى فى نفس الوقت الى فن الملاحم وعرائس الحلوى ٠ ثم لاهور وقبر جيهان جير بفناءيه ، الأول من المرمر للمهراجات ، والثانى بجدران من الصلصال حيث كانت تنتظر وتترقب ، فى صفوف ساكنة لا حراك بها ، العقبان القادمة من بعض معاقل الصمت ٠

هل كنت فى لاهور ام كنت فى كشمير ، بالقرب من « الشاه الأحمر » ، عندما شاهدت لأول مرة فى حياتى ، اطلالا نباتية ؟ فيما وراء الحدائق التاريخية وسرادقات المرمر الأسود ، كان يمتد بستان هائل وعادى ، فوق حقول الرسم البرونزية الحمراء ٠ ويتكشف لنا فجأة ، من بين أشجار التفاح ، دهليز طوله كيلومتر : هو الممشى الامبراطورى الذى كان يمتد هنا فى أيام المغول ، ولم تعد الأشجار تنمو على أراضيه التى كانت مرصعة فيما مضى ٠ وعلى الرغم من أن الانسان لا يشاهد هناك أنقاضا ، فان هذه الأروقة الزائلة توحى بتآلف لا يمكن النيل منه ٠ بين الأرض والموت ـ كانه قصر فرساى لا يحتفظ الا بوجود الفراغ ٠ ان شبح الحديقة هذا ، يتآلف فى ذاكرتى تآلفا مبهما مع مرصد جيبور ٠ وما كنت افكر فى علم التنجيم لأن هذا النسق الضخم من البناء الذى هجره الجن يوحى بعمل عصرى ، بماكيت قصر لفيلم من أفلام ميلييه ، ولا يوحى بمجال الأهرام فهو مجال أولى ولكنه لا يقهر ٠ وما كنت أفكر فى علم الفلك ، لأن أدوات الفلك عندنا ليست حجرية ٠ ولكن هذه المقاطع من الدرج ، المنتصبة نحو الكواكب ، كانت توحى بسماء لا تطال ، مثلما توحى فراغات الشاه الأحمر بالحديقة المختفية ٠ وهذه « الدرابزينات » المثلثة الطويلة كانت تتجه الى أكثر مدن الهند المسلمة بعدا عن الواقع ٠ ليس فقط لأن « قصر الريح » ، وهو أرغن من الحجر الوردى ، غريب علينا غرابة

الكاتدرائيات على رجل شرقي ؛ وليس فقط لأن شارعا بأكمله تتتابع على واجهاته جميعا لوحات مرسومة تشبه زينة ألف ليلة وليلة في أسـواق أعيـادنا ، وتخفي وراءها المنازل العادية ؛ ولكن لأني رأيت فجأة قطيع القردة المكتئبين الذين بدوا كأنهم سكان هذه المدينة الخالية من الرجال ، يعبر الشارع متئدا على مهل · كان الوقت ظهرا وقد أوشك الظل أيضا أن ينتقل من رصيف الى رصيف ·· وهناك طريق يؤدى الى «عنبر» التي ظلت منذ مائتي عام ، بلا ماء · والمعابد وقصور المرمر الأحمر والمنازل التي لا أسطح لها والتي تنمو في دهاليزها عواسج الأزهار البرية ، كل شيء كان يعود الى العدم ، بين وفرة من الحيـــاة النباتية ، وزحمة من وجوه التصـــاوير تكنسها راحات النخيل ، وقردة آخرين يجلسون على حافة النوافذ ، وطيران الطواويس يقع في السكون ثقيلا ، ومدائن أخرى ميتة ، وقلاع أخرى حمراء ، وفوق الدروب دواب أفرطت في الهـزال والرقة ـ ثم « تاج محل » حيث أشجار السرو لم تكن قد ماتت بعد ، وكل سناجيبها بذيل قصير وخطين على الظهر ·· وأخيرا بنارس وفنادقها مغلقة في هذا الفصـــل من السـنة ، واستراحتها وبعض السيدات العجائز يدرن فيها مراوح «البانكا» طوال الليل ، مثلما كن يفعلن قبـــل ثورة السيباى ؛ وحاراتها بين جدران غالية من الحجر الرمادي ومعبدها بتماثيله الشبقية حيث يبدو الشبق كأنه من الطقوس ، ومعبد « هانومان » وشعب من القرود منهمكون حول نصب للتضحية ما زال الدم يقطر منه ، وينحرفون خائفين من قرابين الزنبق · وكل ذلك يلفه ضباب من سلالم تيبتية تتريث سحاباتها اللزجة حول اللهب المصان أمام الأصنام · والعالم الذي تقود اليه هذه الســـلالم اللاواقعية هو في ذاكرتي عالم من الأســوار تغطيها الطحالب مثل أسوار الأطلال المهجورة تحت الغـابة الكبرى التي تحترق عنـد أقدامها بلا نهـــاية أنوار صغيرة ، والحيوانات المقدسة تعبر من خلال الضباب ـ وأرى دائما ، في اطار باب منخفض ، رجالا من البراهمة بصدور يســـيل منها العرق تحت عقود الياسمين والدم واللنجا (١) والضباب والظل · وفي الأسفل ، نهر الجانج تحت سحابات الرياح الموسـمية ، وأكوام الحطب لا تنطفيء في الضباب ، وراهب من الزهاد يرقص ويتلوى من الضحك ، يحدث وهم العالم ، صائحا به « أحسنت ! »

كان هـذا مقدار ما توصلت اليه ، عندما قرر الجنرال ديجول ، في أواخر عـــام ١٩٥٨ ، وكان لا يزال رئيسا لمجلس الوزراء ، أن يعيد مع

---

(١) رمز لأداة الفحولة عند شيفا ·

كثير من بلدان آسيا ، ومنها الهند ، علاقات قد اخذت تضعف باطراد ، منذ عشرين عاما ٠

كانت العواطف التى تربطنى بالجنرال ديجول قديمة ، على الرغم من أن القصة التقليدية عن لقائنا الأول ، قصة مختلقة ، فالجنرال لم يقل عنى في الألزاس ، بكل تأكيد ، ما قاله نابليون عن جوته ، ذلك لأن الكولونيل برجيه لم يقدم الى الجنرال ديجول فى الألزاس أبدا ٠ لقد استقبلنى للمرة الأولى فى وزارة الحربية ، بعد خطابى أمام مؤتمر « حركة التحرير الوطنى » ٠

فى عام ١٩٤٤ كان الشيوعيون مصممين على وضع اليد على مجموع تنظيمات المقاومة ٠ وكانت هذه « الحركة » تجمع التنظيمات التى لا تخضع لاشرافهم ، كانت العملية المستهدفة بسيطة ٠ فان ثلث اعضاء لجنتنا القيادية على الأقل كانوا ينتمون سرا الى الحزب ويطالبون بوحدة المقاومة عن طريق الاندماج مع الجبهة الوطنية التى يقودها الشيوعيون باغلبية كبيرة ٠ وهكذا تقع اللجنة القيادية للمقاومة الموحدة بين أيديهم ٠ وقد اصبح الأمر لزاما ٠ وكان الجنرال ديجول يلاينهم لأنه مصمم على استخدام كل شيء للنهوض بفرنسا : لم يحدث اى اضراب منذ التحرير حتى رحيله ٠ وهم بالمثل يلاينونه معتمدين على أن الزمن والسوق السوداء كفيلان باستهلاك كل مجد ٠ وكانوا قد أرادوا أن يسلحوا « ضد العدو الداخلى » الميليشيا الوطنية التى اطلق عليها خصومهم اسم أم اربعة واربعين عن طريق الاختصار (١) ٠ وكان الجنرال يريد تلاحم كل الوحدات المناضلة مع الجيش النظامى ، ضد الويرماخت ، فهو يرى أن الدفاع عن الأمة ، بالجيش أو بالشرطة ، لا يخرج عن اختصاص الدولة ٠ وكان وحده قد عارض تسليح الميليشيا ، فلم تسلح الميليشيا ٠ وقد استقر الشيوعيون على أن يعارضوه فى اقرب وقت بوحدة المقاومة الداخلية وكنا جميعا نشعر بأن هذا الرهان يعود الى مجال أكثر غموضا وعمقا من المجال السياسى ٠

وكانت « حركة التحرير الوطنى » قد دعتنى الى لجنتها القيادية ، فحضرت مؤتمرها فى يناير ١٩٤٥ ٠ وكان قادة التنظيمات والمناضلون الرئيسيون معادين للرأسمالية ، لعدم مبالاتهم بالمال ، ولحقدهم على فيشى واحتقارهم شخصيات الجمهورية الثالثة ٠ وكان الحوار الذى دار بين

---

(١) المقطع الأول من كلمة ميليشيا مع المقطع الأول من وطنية يتكون منه بالفرنسية كلمة « ا م اربعة واربعين » ٠

كامى وهريو له مغزاه ، فقد جاء فى جريدة « كومبا » التى كان يديرها حينئذ باسكال بيا : « نريد قادة قادرين على الا يثيروا السخرية » ٠ وكانت افتتاحيات «كومبا» بلا توقيع ، وقد أجاب كامى ، منذ أول هجوم : «هذه الجريدة يحررها فريق يلتزم بكل افتتاحياتها ، وبعد ، فان هذه المقالة من صنعى » ، وعليه ، كتب هريو مقالة بعنوان : « رد على رجل الفريق »، ورأينا من امنيات فرنسا ان يمثلها رجال لا تهز أكتافها زراية بهم ٠ كم من الناس كان يسرهم ان يروا الجنرال ديجول يستبدل به أى هريو كان! اما رجال المقاومة فلا ٠ وعلى الرغم من فيشى لم ينقص الرجعيون فى معسكرات الاعتقال وفى التوابيت ، ولكن « المقاومة » المنظمة كلها كانت تنتسب الى اليسار ٠ وكان العداء للشيوعية ، من جانب خصوم الرأسمالية ، عداء للستالينية أولا ٠ وكانوا يفضلون كثيرا رأسمالية تتخللها الاشتراكية الى حد بعيد أو قريب ، على شرطة دولة تصبح هى السلطة الرابعة بل قد تصبح ، اذا أتيحت لها الفرصة ، هى السلطة الأولى ٠ وكان عداء أيضا لرجل يفعل مفعوله فى البلاد المغلقة ولكنه عبث بلا طائل فى أوروبا الغربية : المقاومة الشيوعية عام ١٩٣٩ ، النداء الشيوعى عام ١٩٤٠ ، هدنة باريس التى عقدها الديجوليون لانقاذ المانيا ، ٧٥ الف شهيد بينما لم يزد عددهم على خمسة وعشرين الفا ، الخ ٠٠٠ ولم يكن خضوع الحزب الشيوعى للميثاق الألمانى السوفيتى قد نسى بعد ، وكان من رأى الكثيرين أنه من الأيسر عليه أن يخضع ، اذا اقتضى الأمر ، للجيش الأحمر ٠ كان اعضاء الأحزاب السياسية قليلى العدد فى فرنسا عام ١٩٣٩ ، وأغلب « المقاومين » لا ينتمون لأى حزب منها ٠ كانوا ، فى غالبيتهم ، من الوطنيين الليبراليين ٠ ولهذا السبب لم تجد المقاومة ، سياسيا ، شكلها الخاص ٠ وفى نظر هؤلاء الرجال ، كانت الستالينية تعنى عكس كل ما كافحوا من أجله ٠ والخطباء الذين أزمعت معارضتهم فى المؤتمر كانوا ينكرون كلهم تقريبا انتماءهم للحزب ، حيث وجدناهم بين صفوفه فى العام التالى ٠ وكنت قبل هذا بستة اشهر قد تناولت الغداء سرا فى الأقاليم ، فى حانة موالية مع اربعة مندوبين غير شيوعيين تألفت من « حركاتهم » فيما بعد « القوات الفرنسية فى الداخل » وبعد أن تم تحديد العمل ــ بدون عراقيل ــ تناقشنا فى استقلالية « المقاومة » ، مستقبلا ، ثم افترقنا ٠ وسرت الى جانب مندوب باريس تحت المطر فى شارع المحطة ٠ وكنا قد ناضلنا معا بعض الوقت ٠ قال دون أن ينظر الى : « لقد اطلعت على كتبك ٠ ليكن فى علمك أن حركات المقاومة ، على النطاق الوطنى ، يمسك بزمامها الحزب الشيوعى ٠٠ (ثم وضع يده على كتفى ونظر الى وتوقف) ــ الذى أنتمى اليه منذ ١٧ سنة » ٠

وعاود السير ٠ مازلت أذكر المطر الهادىء على سطوح الأردواز ٠ وهذه اليد على كتفى ٠٠ وأذكر ايضا قاعة البلدية الكبيرة حيث ألقينــــا الكثير من الخطب أيام « اللجنة العالمية المعــادية للفاشية » ٠ حيث كنت هذه المرة سأتوجه بالحديث الى مناضلى المقاومة ، ولكن اللعبة السياســية كانت قد عاودت سيرتها ٠ هذه امرأة قد أنقذت زوجها وهى تمسك فى يدها بالمدفع الرشاش ، وهذا صبى قد اشترك فى جماعة الأحرار الذين هاجموا قاطرة الجستابو امام قصر العدالة ، وهذا رجل حرب مرتين ،ليس مثلى ، ولكن من الزنزانة ٠ وكان يبدو كأن وفود الليل هؤلاء ، اذا ما اطل الفجر ، لم يعودوا الا رسل حلم من الأحلام ٠

وعلى الرغم من ان اغلبية اعضاء المؤتمر كانوا من الذين كتبت لهم حياة جديدة ، فان أعمالهم الباهرة لم تكن لتنقذهم من شعور النقص الذى يحس به الجيروندى (١) امام الجبلى (٢) والليبرالى أمام المتطرف والمنشفيك أمام كل من يعلن نفسه بلشــفيا ٠ وبينمــــا العاطفون على الشيوعية يهتدون الى طريقهم بانضمامهم الى حزب بدأ يتحدث عن ديجول كأنه كيرنسكى ، كان اللاشيوعيون يتحســسون طريقهم لأنهم لا يدركون فى هذه الأيام أن حركة ولدت من المقاومة لابد لها أن تكون ديجولية اذا رفضت ان تكون شيوعية : لأن الجنرال وحده كان يريد حقيقة أن يعارض الدولة الشيوعية بدولة ، وبفرنسا مستقلة ٠ ولم يكونوا يعرفونه ، فهو لم يصنع شيئا لاستمالة قلوبهم ولا حتى معرفتهم ، وكان يمتلك من الهيبة أكثر مما يمتلك من الشعبية ، وربما كان يظن أنهم وقعوا فعلا فى أيدى الشيوعيين ٠ وكان خطــابى موجها الى كل المناضلين وهم يعلمون أنى سأعود فى الصباح الى الجبهة ٠

لقد كانت « المقاومة » تعبئة للعزيمة الفرنسية ، وعليها قبل كل شىء أن تجدد هذه التعبئة والا أصبحت مثل رابطة للمحاربين القدامى ٠ لقد كنا نحن فرنسا فى أسمالها ، لا يأتى مغزى وجودنا من أعمـــال شبكاتنا ولكن من اننا كنا « شهودا » ٠ كانت مناجم الشمال وبادى كالى قد أممت فى ١٣ ديسمبر ، ومصانع رينو فى ١٦ يناير ٠ ولم تكن هذه اجراءات يمينية ٠ أما الاجراء الحاسم ، وهذا ما يعلمه الجميع ، فسوف يكون تأميم الائتمان ، فاذا اتخذت الحكومة هذا الاجراء يجب أن يتاح لها أن تحكم وعلينا أن نحدد أنفسنا بمهمة وطنية ، لا مهمة انتخابية ،وجرى

---

(١) ممثلو اليمين أيام الثورة الفرنسية وكان اغلبهم من اقليم الجيروند ٠
(٢) ممثلو اليسار ٠

الحديث عن العقبات التى ستقابل عودة الأسرى · فلتعد الحركة تنظيم كل اقسامها ، من الرين الى باريس ، لتضعها فى خدمتهم · فلتنضم « الجبهه الوطنية » الينا اذا هى أرادت ، من أجل العمل المشترك · وسوف نرى فيما بعد ما يحدث · « الآن تبدأ مقاومة جديدة ·· » ·

وبعد عشرة أو خمسة عشر خطابا ، والزيارات « الأخـوية » من الوفود الشيوعية أو شبه الشيوعية ، استبعد الاندماج بـ ٢٥٠ صوتا مقابل ١١٩ · لن يتصرف الحزب الشيوعى بالمقاومة ضد الجنرال ديجول ولكننى أثناء عودتى الى الجبهة ، عبر منطقة شمبانى المغطاة بالجليد ،كنت افكر فى رفاقى الشيوعيين فى اسبانيا ، وفى ملحمة الخلق السوفيتى ، على الرغم من الجيبيو ، فى الجيش الأحمر وفى المزارعين الشـيوعيين فى كوزيز دائما على استعداد لاستقبالنا رغم الميليشيا ، من أجل هذا الحزب الذى كانه لم يعد يؤمن بانتصارات غير انتصارات التغطية والتمويه · كنت أفكر فى اليد على كتفى ، فى شارع المحطة والأسطح تلمع تحت المطر ·

- ٢ -

١٩٤٥/١٩٦٥

كنت احضر أحيانا الى باريس ، فهناك مسائل عـديدة لا تزال من اختصاص وزارة الحربية • وقد التقيت بكورنيليون الذى أصبح جنرالا ومن زملاء « التحرير » • وقد تولى بعد ذلك قيـــادة الطيران ضد القلعة روان وهى من آخر الركائز الألمانية فى فرنسا • وكان فى الانتظار ، يؤلف كتيبا فكاهيا مع الدكتور ليشفيتن الذى عرفته فى « الفرقة الفرنســية الحرة » وكان قد أصبح طبيب الجنرال ديجـول • وكان يقرأ فصـــولا من كتابه ، بمعين لا ينضب من المرح ، لجاستون بالوســـكى (على أثــر نزاع فى لندن ، ذهب هذا الرجل الذى ولد سفيرا ، الى الحبشـــة لفتح جوندار ، قبل أن يصـبح مديرا لمكتب ديجول) وللكابتن جى ، وغيرهما وهكذا تمت المعرفة بينى وبين « البطانة » الشهيرة •

وبعـد أيام من مؤتمر حـركة التحـرير الوطنى ، تحـدثنا عن الانتخابات ، النـــاس يتحدثون دائما فى الانتخابات • ولم أكن أشــعر بأية رغبة فى ان أصبح نائبا • ولكننى كنت صاحب فكرة لا تغرب عن بالى ابدا : أن أجرى تغييرا فى مجال التعليم بتعميم استخدام الوسائل التى تعتمد على السمع والبصر • لم يكن عندئذ غير السينما والاذاعة ، فما زال التليفزيون حلما فى النفوس • كنت أبغى أن اذيع محاضرات لأساتذة يتم اختيارهم على أساس قدراتهم التربوية ، لنعلم القراءة ولنكتشف بالمثل تاريخ فرنســا • ولا تعود وظيفة المعلم هى التدريس ولكن معاونة الأطفال على المعرفة • قال باليفسكى :

ـ الخلاصة أنك تريد أن تسجل «منهج الاذن» وتذيعه على المدارس •

ـ واستبدل بالمنهج الدراسى عن الجارون فيلما عن الجارون •

ـ رائع ! ولكننى أخشى فقط أنك لا تعرف بعد وزارة التربية الوطنية

وتحدثنا ايضا عن الهند الصينية • وكنت منذ عام ١٩٣٣ قد قلت وكتبت واعلنت ان الامبراطوريات الاستعمارية لن تبقى على قيد الحياة بعد حروب اوروبية • وما كنت أؤمن بباوداى ولا بالمستوطنين بالأكثر •

وكنت أعرف الدناءة التى يتكالب بها الوسطاء حول المستعمرين فى كوشنشين وفى غيرها • وكنت من قبل وصول الجيش اليابانى قد رأيت ميلاد التنظيمات العسكرية فى جبال أنام •

وقيل لى : — فماذا تقترح اذن ؟

— اذا كنتم تبحثون فى كيفية احتفاظنا بالهند الصينية فانا لا اقترح شيئا ، لأننا لن نحتفظ بها • كل ما يمكننا انقاذه هو نوع من السلطان الثقافى ، فى مجال القيم • ولكن علينا أن نلفظ « الوجود الاقتصادى » الذى تتجاسر الجريدة الرئيسية الناطقة بلسانه فى سايجون على أن تحمل فى صدر صفحاتها هذا العنوان : « الدفاع عن المصالح الفرنسية فى الهند الصينية » • وعلينا أن نقوم نحن انفسنا بالثورة • وهى أمر مشروع لا مفر منه ، فنلغى أولا الديون الربوية ، وكلها تقريب صينية ، التى يرزح تحتها الفلاحون فى شعب فلاح • ثم نوزع الأراضى لنساعد الثوريين الأناميين وهم بلا شك فى حاجة الى المساعدة • فلا العسكريون ولا المبشرون ولا رجال التعليم مرتبطون بالمستوطنين • لن يبقى كثير من الفرنسيين ولكن قد تبقى فرنسا •

« انا امقت الاستعمار بالفلوس • وامقت بورجوازيينا الصغار فى الهند الصينية وقولهم : « هنا يفقد الانسان عقلية العبيد ! » وكأنهم البقية الباقية من اوستراليتر او حتى من لانج سون • صحيح ان آسيا فى حاجة الى الأخصائيين الأوروبيين ، وليس صحيحا انه يجب أن يكونوا سادتها • يكفى ان تدفع لهم أجرهم • أشك فى أن تبقى الامبراطوريات طويلا بعد انتصار دولتين تعلنان عداءهما للامبريالية • » •

قال كورنيليون مستشهدا بتشرشل :

— لم اصبح رئيس وزراء جلالة الملكة ، لأصفى الامبراطورية البريطانية •

— ولكنه لم يعد رئيسا للوزراء • وانتم تعرفون موقف حزب العمال من الهند .

قال بالوسكى : — ولو ، انك لا تستطيع أن تنفذ مثل هذا الانقلاب بادارتنا ؟

ـ لا تزال في فرنسا عوامل تمكننا من انشاء ادارة ليبرالية . بل امضي الى أبعد من ذلك . لكي نجعل من الهند الصينية بلدا صديقة ، علينا ان نساعد هوشي منه . وهذا أمر عسير ولكن ليس باعسر مما كان على انجلترا ان تساعد نهرو .

ـ نحن اقل تشاؤما منك بكثير .

مما ادى بنا الى الحديث عن الدعاية . وكانت الاستعلامات في يد جاك سوستيل ، الذى يتمنى أن يستبدل بها وزارة أخرى .

قلت : ما عدا بعض الاستثناء ، فان وسائل الاستعلام التى فى متناولكم ، لم تتغير منذ عهد نابليون . وأرى أن هناك وسيلة أدق وأكثر فاعلية وهى : استطلاعات الراى العام .

ـ الداخلية لا تستخدمها ؟

ـ الداخلية « تستعلم » ولكن ليس لديها التصنيف الذى لا يمكن بدونه أن توجد دقة .

كانت طرق جالوب غير معروفة حينئذ فى فرنسا ، الا من الاخصائيين فعرضتها بسرعة .

ـ هل تؤمن بجدواها ؟

ـ شرط الا نستخدم الا مخبرين لا تشغلهم السياسة ، فانا اعتقد انه من الممكن أن نعرف النتائج المترتبة على تصويت المراة والجواب على الاستفتاء الذى تعدون له .. ان الاستطلاعات مثلها مثل الطب : أقل اصابة ودقة مما تدعى ، واكثر دقة من كل ما عداها .

« ثم ان هناك استعلامات البلد ـ أى الدعاية . وحدود الاعلان الأمريكى يمكن بلوغها بسرعة ، أما الدعاية الشمولية ، فأظنها لا تنفصل عن الحزب الواحد . وأشك فى أن يكون الجنرال ديجول على استعداد لانشاء مثل هذا الحزب . لن يرضى بالدولة فى خدمة الحزب ولا بالحزب كوسيلة رئيسية لعمل الدولة . يريد الجيش لا الميليشيا ، والأمن القومى ، لا شرطة الحزب .

« ينبغى لدعايتكم أن يكون غرضها الأول اطلاع الناس على هذه الحقيقة وادراكها . فان أحدا لايعلم عنها شيئا ، مهما بدا من غرابة الأمر . ولكننى اعتقد انه من الممكن تعبئة الطاقات اذا عورضت الأساطير لا بأساطير

أخرى ، ولكن بالعمل · قوة الجنرال فيما عمل وفيما يعمل · ما هي القوى الحقيقية الحاضرة؟ أنتم والأحزاب بقدر ما طهرتم المقاومة · ان الراديكاليين على وشك الانهيار ·

ـ « والحركة الجمهورية الشعبية » ·

ـ لديها ورقة طيبة : فالبلاد ترى فيها حزب الجنرال · واذا كان الشيوعيون اعداءكم الوحيدين الخطرين فليس ذلك بسبب ماركس ، ولكن بسبب لينين · ليقل كل وزير من وزرائكم للبلاد : هذه هي مهمتي العاجلة أنا مسئول عنها امامكم ، ولن احدثكم ثانية الا عند انتهائها · أليس كذلك ؟

ـ قد يكون هذا مفتاحا الى الفاشية ·

واجاب كورنيليون ، مستشهدا هذه المرة · على سبيل السخرية ـ بنابليون :

ـ ان الحرب فن بسيط ، قوامه التنفيذ ·

●

كنت أسكن في بولون ، في منزل كبير من الطراز الهولاندى ، نفس المنزل الذى تعرض فيما بعد لتفجيرات الجيش السرى وكادت فيه الصغيرة دلفين رينار أن تفقد البصر بسبب هذه الحادثة ·

وكانت الساعة قد تجاوزت التاسعة ، لأن أمسية الصيف قد أخذت تتحول الى ليل فوق كشك المراقبة الذى شيده الألمان عند زاوية الحديقة ورن جرس التليفون وقال بعض الذين اعتادوا محادثتى :

ـ عندى تبليغ هام يجب أن أقوله لك · هل يمكنك أن تستقبلنى بعد ساعة أو ساعتين ؟

ـ اتفقنا ·

ـ سامر عليك فى حوالى الساعة الحادية عشرة ·

وفى الساعة الحادية عشرة ، توقفت أمام منزلى سيارة مخاطبى الحربية · وذهبت لأفتح · كنا وحدنا · ولم يعبر عتبة البهو الكبير الذى لم تحسن اضاءته بعد · قال :

– الجنرال ديجول يسألك ، باسم فرنسا ، اذا كنت تريد معاونته

كانت الجملة فريدة في نوعها · على أن بعض الخطب الأولى التى القاها الجنرال على الضباط فى لندن ، لم يتجاوز تقريبا قوله : « ياسادة ، انتم تعلمون أين واجبكم » · وهى الآن نفس اللهجة · قلت :

– السؤال مجاب بالبديهة ·

– سانبئك غدا بساعة الموعد ·

وصافحنى ، واستدارت السيارة ، ودارت من حول الكشك الصغير واختفت فى اتجاه السين ·

كنت مندهشا ، ولكن دهشتى لاتزيد على الحد ، فانا أميل الى الاعتقاد بانى ذو فائدة ·· ولكننى بعد هروبى الأول فى نوفمبر ١٩٤٠ ، كنت قد كتبت للجنرال ديجول ، ولم يكن لدى القوات الفرنسية الحرة فائض من الطيارين · ولم أتلق ردا · وقيل لى حينئذ انه قد استبعد بيير كوت، فظننت أن مساهمتى لا تبدو مناسبة فى نظره بسبب اشتراكى فى حرب أسبانيا · ولم أحمل فى نفسى مرارة ، لأن حركات المقاومة التى عملت فى صفوفها ، قبل انشاء لواء الالزاس لورين ، قد حظيت فيما بعد دائما بمعاونة الجنرال كوكيع ، وبالتالى ، بمعاونته · واستدعيت الى وزارة الحربية · وفى غرفة الانتظار ، وجدت زائرا ودبا أثار اهتمامى · وعلى رغم الثياب المدنية التى يرتديها أحسست فيه برجل عسكرى · وطلبوه بعد قليل : وكان هو الماريشال جوان ·

وصعدت السلم الهائل · (سمعت فى منتصف الدرج ساعى الطابق الارضى يسر فى التليفون باحترام شديد : « السيدة الدوقة تطلب السيد المدير » وساعى الطابق الأول يجيب عليه ، بخيلاء : «أرسل الدوقة!») حتى وصلت الى مكتب الانتظار الذى يقف فيه الياور ، والذى يسبق مكتب الجنرال ديجول · وأدخلت عندما دقت الساعة · وطالعتنى على الجدران خرائط أركان حرب ، كبيرة ، تضفى على الحجرة الخشنة جوا من العمل · واشار لى بالجلوس على يمين مكتبه ·

وكنت احتفظ بذكرى دقيقة لملامح وجهه : من يوم أن أطلعنى رافائيل حوالى عام ١٩٤٣ ، وكان اذ ذاك رئيسا للجماعات الحرة . على صورته الفوتوغرافية التى ألقيت الينا بالمظلات · وكانت صورة نصفية فلم نعرف أن الجنرال ديجول طويل جدا · خطر على بالى كيف دهش مندوبو البرجوازية عندما رأوا لويس السادس عشر للمرة الأولى ، فحتى

عام ١٩٤٣ لم نعرف وجه الرجل الذى كنا نناضل تحت لوائه ٠

لم اكتشف وجهه ولكننى اكتشفت فيه ما لا يشبه الصور الفوتوغرافية ٠ الفم الحقيقى أصغر قليلا ، والشارب أشد سوادا ٠ والسينما ، رغم أنها تنقل كثيرا من التعبيرات ، لم تنقل الا مرة واحدة نظرته المفعمة الكثيفة ، وذلك بعد لقائنا بمدة طويلة عندما ظهر على الشاشة أثناء حديثه مع ميشيل دروا ، وكان ينظر الى جهاز الكاميرا كأنه ينظر الى كل واحد من المشاهدين ٠

وبادرنى ديجول بقوله : ـ الماضى أولا ٠

مدخل غريب ٠ أجبته :

ـ الأمر بسيط ٠ لقد خضت معركة ٠ ولنقل انها كانت من أجل العدالة الاجتماعية ٠ أو اذا أردنا مزيدا من الدقة : من أجل أن تعطى للناس فرصتهم ٠٠ كنت رئيسا ، مع رومان رولان ، للجنة العالمية المعادية للفاشية ، وذهبت مع جيد لأحمل الى هتلر – الذى لم يستقبلنا – الاحتجاج على قضية ديمتروف والمتهمين كذبا بحرق الرايخستاج ٠ ثم كانت حرب اسبانيا وذهبت لأقاتل فى اسبانيا ٠ لا فى الألوية الدولية التى لم تكن موجودة بعد والتى تركنا لها الوقت لتوجد : فقد كان الحزب الشيوعى يفكر ٠٠ ثم كانت الحرب الحقيقية ٠ واخيرا جاءت الهزيمة ٠ ومثل الكثيرين غيرى اخترت فرنسا ٠ عندما عدت الى باريس سألنى ألبير كامى : هل علينا أن نختار يوما بين روسيا وأمريكا ٠ لم يكن الاختيار فى نظرى بين روسيا وأمريكا ولكن بين روسيا وفرنسا ٠ حيث تقف فرنسا ضعيفة بمواجهة روسيا قادرة ، لا اعود أؤمن بحرف مما كنت أؤمن به حينما كانت فرنسا قادرة تقف بمواجهة اتحاد سوفيتى ضعيف ٠ ان روسيا الضعيفة تريد جبهات شعبية وروسيا القوية تريد ديمقراطيات شعبية ٠

قال ستالين أمامى : « فى بداية الثورة كنا ننتظر الانقاذ على يد الثورة الأوروبية ٠ أما الآن فالثورة الأوروبية تنتظر الجيش الأحمر لا أؤمن بثورة فرنسية يقوم بها الجيش الأحمر ويثبتها الجيبيو ـ ولا أؤمن بالعودة الى ١٩٣٨ ٠

« وفى مجال التاريخ ، فان الواقع الرئيسى الأول الذى ساد السنوات العشرين الأخيرة ، هو فى نظرى أولوية الأمة ٠ وهو شىء يختلف عن الوطنية ٠ لا ينبنى على التفوق ولكن على الخواص المميزة ٠ لقد كان ماركس وفكتور هوجو وميشيليه (ميشيليه الذى قال : «ان فرنسا كائن انسان»)

يؤمنون بالولايات المتحدة الأوروبية . وفى هذا المجال لم يكن ماركس هو النبى ولكن نيتشه الذى كتب يقول: «سيكون القرن العشرون قرن الحروب القومية» هل سمعت نشيد الأممية فى موسكو ياسيدى الجنرال ؟

ــ ماكانوا يتحدثون عنه .

ــ كنت هناك عندما أصبح السلام الروسى هو النشيد الرسمى الذى يعزف فى الحفلات . ومنذ أسابيع كانوا يطلعون لأول مرة فى جريدة البرافدا على كلمة : وطننا السوفيتى . وادرك الجميع ما تعنيه . وأدركت أن كل شىء يجرى وكأن الشيوعية هى الوسيلة التى اكتشفتها روسيا أخيرا لتثبت فى العالم مكانتها ومجدها : حركة أورثوذكسية او حركة تجميع سلافية ، كتب لها النجاح .

كان ينظر الى بانتباه لا يبدو منه التصديق أو الخلاف . ــ لأنه ــ حتى اذا لم ندخل فى حسابنا لينين وتروتسكى وستالين ، وهو أمر صعب ــ فان الشيوعية هى اليوم خير من يعى الواقع الثورى الذى وعته الثورة الفرنسية فى زمن سلف ...

ــ ما الذى تعنيه بالواقع الثورى ؟

ــ أعنى الشكل المؤقت الذى تتخذه مطالبة الناس بالعدالة : من هبات الفلاحين الى الثورات . وقد أصبح هذا المطلب فى القرن الذى نعيش فيه هو العدالة الاجتماعية . ولا شك أن سببه ذلك يرجع الى ضعف الديانات العظمى ، الأمريكيون مؤمنون ولكن الحضارة الأمريكية ليست حضارة متدينة .

« والجبهة القومية حركة شبه شيوعية فى انتظار ان تصبح شيوعية ورفاقى شبه عماليين فى انتظار حركة عمالية لا وجود لها ولا يعلمون هل ينتظرون مجيئها من أنفسهم أو من الحزب الاشتراكى أو منكم .

ــ ماذا يريدون أن « يفعلوا » .

ــ كمثل عام ١٨٤٨ ، وعام ١٨٧١ ، يريدون ان يلعبوا رواية بطولية اسمها الثورة . ومنهم رجال حقيقيون يريدون ذلك بنبل وعراقة وهم الذين لم يظهروا فى الصورة بعد دخول الجيش . واقول اقتباسا من كلوسويتز فيما اظن : ان السياسة تبدو لهم استمرارا للحرب بوسائل اخرى . وليس هذا حقا للأسف . فالسياسة فى رأيى (ولى رايك أيضا على ما يبدو لى ، بل فى رأى الشيوعيين كذلك) تتضمن انشاء دولة ثم قيام هذه الدولة بممارسة أعمالها . كل سياسة بدون دولة رجم بالغيب وتصبح بدرجات متفاوتة ضربا من الأخلاقيات الأدبية . ويبدو كان

منظمات المقاومة لا يخطر في بالها شيء من ذلك • ان لم يعد الأمر هو الثورة فما هو الأمر اذن ؟ الأمر بالنسبة لرجال السياسة بالأمس أو غدا كان ولا يزال هو الدخول فى الأحزاب أو تكوين حزب جديد • المقاومة المتعاطفة مع الشيوعيين تؤدى الى الحزب الشيوعى او الى واجهة شيوعية مستعارة • والمقاومة الأخرى تؤدى الى اى مكان ، لأن الأحزاب كما قلت للسيد بالوسكى فى حاجة الى أن تطهر نفسها من العفونة • واذا كان هناك رجال من الراديكاليين قد عملوا فى المقاومة ، فليس هناك رجال من المقاومة يقولون بالراديكالية • لكل حزب أهدافه • ولقد كان هدف المقاومة : المساهمة فى تحرير فرنسا • كان رجال المقاومة فى جملتهم وطنيين ليبراليين والليبرالية ليست واقعا سياسيا ولكنها عاطفة • وهى عاطفة يمكن ان تتواجد فى عدد من الأحزاب ولكن ليس فى امكانها ان تؤسس حزبا • وهنا تكمن مأساة المقاومة فى الوقت الحاضر ، كما تبين لى من مؤتمر حركة التحرير الوطنى •

« اعضاء الحركة ليسوا ضد الشيوعية • ان ٥٠٪ منهم يفضلونها كمذهب اقتصادى • انهم ضد الشيوعية • أو بمزيد من الدقة ضد ما هو روسى فى الشيوعية الفرنسية • وهم لا يعتقدون أن الطاقة التى يعجبون بها فى الحزب الشيوعى الروسى تكون كلا واحدا مع انوشايات والصغائر واقصاء الأعضاء بل القضايا التى يأخذونها عليه • ان الحلم الذى يراود فى الخفاء اذهان عدد لا بأس به من أهل فرنسا ومعظم مثقفيها هو متصلة بدون مقصولين • يفتنهم فى الشيوعية الطاقة المنصرفة الى خدمة العدالة الاجتماعية ، ويفصلهم عن الشيوعيين الوسائل التى تزاول بها هذه الطاقة • الليبرالية لم تمت • ان اعضاء الأحزاب كانوا قلة فى فرنسا لقد رايت « التحرير » فى الأرياف وفى أخبار السينما فطالعت فيه جوا يشبه أن يكون « جبهة شعبية » منتصرة • ولكن الجبهة الشعبية لم تقم بثورتها ولا بتأليف حزبها الواحد (وأعداؤها بالمثل لم يفعلوا) • ان الشيء الذى أطلقت عليه فى حديثى عن اسبانيا صفة « الوهم الوجدانى » لا يؤدى الى تكوين سياسى حقيقى • والأمر سواء بالنسبة للراديكاليين والشيوعيين وان كانت الأسباب متعارضة : يدخلون فى الجبهة الشعبية بأمل القضاء عليها •

قال : ــ هل هذا هو اعتقادك ؟

وربما كانت لهجته ساخرة •

ــ أعتقد أن الليبرالية ، بل اللعبة البرلمانية كذلك ، مقضى عليهما فى كل البلدان التى تشارك فيها الأحزاب حزبا شيوعيا قويا • تنبنى

الحكومة البرلمانية على قاعدة يجب أن تراعي فى اللعب · وهـذا ما يظهر لنا بجلاء اذا تأملنا أكثر هذه الحكومات فاعلية : الحكومة البريطانية · ان الشـيوعيين يستخدمون اللعبة لأغراضهم الذاتية ولكنهم لا يلعبونها ويكفى أن يخرج شريك واحد على قواعد اللعب حتى تتغير طبيعة اللعب · واذا كان الحزب الاشـتراكي والحزب الراديكالى ، الخ ·· أحزابا ، اذن فالشيوعيون شيء آخر ·

« وعلاوة على ذلك فان اليمين التقليدى قد ارتبط بفيشي وسوف نجد لهذا السبب يسارا توجهه المزايدة الشيوعية ولن نجد يمينا معترفا به على أن فرنسا ، وليست حركة المقاومة فحسب ، لا تؤمن بعـودة الحياة البرلمانية القديمة · وذلك لأنها تستشعر حـدوث أعنف تحول يطرأ على الغرب منذ نهـاية الامبراطورية الرومانية · وليس بودها أن تواجه هذا التحول تحت قيادة السيد هريو · ثم ان نهاية الجمهورية الثالثة مرتبطة بالهزيمة · ولو أنها لم تسىء الدفاع عن نفسها خلال الحرب الأولى عـام ١٩١٤ ·

رفع سبابته كمن يريد أن يقول : احترس !

ـ الجمهورية لم تكسب حرب ١٤ ، ولكن فرنسا هى التى كسبتها ، فعنـدما اعلنت الحرب ، أنامو الخصـومات والأحزاب ، من موقعة المارن وابتداء بكليمنصو ·

ـ كليمنصو ، اليس هو فرنسا الجمهورية ؟

ـ لقد اقمت الجمهورية من جديد . ولكن ينبغى لها أن تكون قادرة على صنع فرنسـا من جديد . الواقع القومي مختلف جدا عن القوميات ، وأنا أعترف بذلك . والشـيوعيون يدركونه على طريقتهم . ولهذا فقـد تمسكوا بحكاية الميلشـيا . هم يشـعرون أن الدولة التى لاتتكفل بالدفاع عن الأمـة دولة مقضى عليهـا . فلا الامبراطوريتـان الفرنسـيتان ولا الامبراطورية الألمانية ولا الامبراطورية الروسية استطاعت أن تبقى بعـد الهزيمة · ومن هنا يتأتى للدولة شرعيتها العميقة · وأنت على حق عندما تقول : ان الشيوعية قد مكنت روسيا من أن تعيد تكوين جيشها ···

ـ ومن أن تعثر على كيانها الروحى .

ولحظت انى قاطعته . ذلك انه كان يترك بين فقرات حديثه فترات من الصمت ليست قصيرة ، ولكنه يتابع فكرته ·

ـ ... وآسيا لاتعثر على كيانها الروحى كما تقول ، الا اذا هى

عثرت على كياناتها القومية . ربما كانت الملكية الفرنسية قد ماتت فى روسباخ ... أرجوك أن تواصل كلامك .

ـ كتب تشرشل يقول انه قد تمثل فى كليمنصو رجلا من رجال الثورة ...

غمرت عيناه شيئا قليلا وعلا وجهه تعبير الشارح المتهكم ، تعبير كثيرا مالقيته بعد ذلك كلما استطرق الحديث الى لب التاريخ .

ـ لقد أكثروا من الحديث وبرعوا فيه . وهذا أمر يعتد به . وقد انشأوا الامة المجندة ، فى مواجهة الجيوش المرتزقة . وانما انهار كل شيء عندما نزلت الامم الاخرى الى الميدان ... ولكن ذلك كان ضد نابليون ..

ـ هل تعتقد ان ميرابو كان حقيقا بأن ينقذ الملكية ؟

لقد مات فى أوانه . اعتقد انه كان حقيقا بأن يخيب كثيرا من الآمال ـ وأن يخيب ظنه كثيرا بالمثل ...

أمام الرءوس التى فصلتها المقصلة عن اجسادها ، كان ميرابو الرجل الفردى المستعد لخيانة الثورة من اجل عيون الملكة وفلوس الملك ، والذى مات على مهل ونبل بعد رحيل الفتاتين المتواجدتين فى سريره . كان يبدو كأنه مغامر عظيم . انما تنقصه الهالة المبهمة التى كان الوطن أو الشعب يكرسان بها كل الآخرين حتى يوم ٩ ترميدور . وكنت قد اطلعت على ما كتبه الجنرال ديجول عن هوسن ، وربما تذكره لأن هوسن قد مات مسموما هو الآخر :

«هوسن وجه جميل . وانما وضعوه كان جديرا بمنصبه ... لم كانت معارك «لافنديه» واقناع الناس بالاجتماع حول المائدة للحديث قبل الاقتتال ... ولكنه كان ينسج خيوطا مشبوهة عندما لقى حتفه بالسم ...

نظرت اليه متسائلا فابتسم بسخرية وقال : «.. الدكتاتورية..»

قلت : ـ عندما أفرج عنه من « الكونسيرجيرى » أفسح الطريق فى ممر السجن لوافد جديد : كان هو سانت جوست .

ـ أوه ! ان نفس الأشخاص هم الذين يتقابلون دائما ...

رأيت فى بالى سان جوست فى الممر . وجوزفين فى الحجرة . ورفع سبابته كما فعل منذ حين وقال :

– لاتخطيء فى ذلك : ان فرنسا لم تعد تريد الثورة . لقد فات الأوان .

ادهشنى خلو لهجته من كل انفعال – كانما هو يتحدث عن الامبراطورية الرومانية . كان مثقفونا يعيشون بولع وحماسة فى ميثولوجيا سياسية وكانت جيوش الشيوعية والفاشية لا تزال تتحارب . وشعرت للمرة الأولى كيف يمكن للقيم العليا عند الآخرين ، حتى الذين ليسوا من أعدائه ، أن تصبح فى نظره كما مهملا . وقد حدث أن أجاب بدون انتباه على عرض قدمه وزير التموين عن السوق السوداء التى كانت تشغل باريس : « آن للفرنسيين أن يستقروا على الاهتمام بشيء آخر غير السمك المدخن .. » لم يكن مثل مارى انطوانيت وحديثها المشهور عن الجاتوه . وقال « لقد فات الأوان » باللهجة التى يتحدث بها الصوفيون عن العشق والصبابات . ولكن الصوفيين لا يؤمنون بالتاريخ فتيلا .

– ان مانشيت جريدة كومبا ما زال : من المقاومة الى الثورة .

– ماهو توزيع جريدة كومبا ؟

« لقد أعلنت أنه فى بحر السنة سيتم تاميم كل مصادر الطاقة والائتمان . لا من أجل اليسار ولكن من أجل فرنسا . ان اليمين ليس متلهفا على تاييد الدولة ، واليسار متلهف أكثر من اللازم .

« ان ما نقله الى السيد بالوسكى من حديثك عن الدعاية قد أثار اهتمامى . الام وصل المثقفون ؟ لا فى الدعاية ولكن .. بشكل عام .

– هناك الذين قادتهم المقاومة الى الرومانسية التاريخية . وهذه الفترة جديرة بأن تشبع أمنياتهم . وهناك من قادتهم المقاومة او قادوا أنفسهم الى الرومانسية الثورية ، وقوامها الخلط بين العمل السياسى والمسرح . لا أتحدث عن الذين هم على استعداد لأن يقاتلوا من أجل انشاء السوفيتات : أنا لا أتحدث عن الممثلين ولكن عن المشاهدين . منذ القرن الثامن عشر ، توجد فى فرنسا مدرسة « للنفوس الحساسة » . وقد لعبت فيها سيدات الأدب دورا متصلا .

– ولكن ليس بصفتهن ممرضات .

– الأدب يذخر بالنفوس الحساسة التى ترى فى البروليتاريين ما كانت تراه فى المتوحشين الطيبين . ولكن ليس من السهل أن نفهم كيف أمكن لديدرو الاعتقاد بأن كاترين الثانية كانت تشبه « الحرية » .

ـ فولتير كان ينظم المقاطع التهكمية عن معركة روسباخ ·· ولكنهذا خسارة ·

ـ ان وضع المثقفين الجادين صعب · ان السياسة الفرنسية قد انتسبت عن طيب خاطر الى الكتاب ، من فولتير الى فكتور هوجو · وقد لعبوا دورا كبيرا في قضية دريفوس · وظنوا أنهم قد استعادوا هذا الدور أيام الجبهة الشعبية · ولكن هذه الجبهة كانت تستخدمهم أكثر مما تتمسك بهم · هذه الاستفادة ، من الجانب الشيوعي ، قد تم تصميمها بكثير من المهارة على يد ويلي مونزنبرج ـ وهو الآن في عداد الموتى · ولكن منذ عام ١٩٣٦ ما الذى فعله هؤلاء المثقفون الذين لم يكفوا يوما عن الانتساب الى العمل الأمر الذى لم يكن يدعيه مونتيسكيو ؟ كتابة العرائض ·

« ثم هناك الفلاسفة المحترفون · أولئك لا يرون فى لينين أو فى ستالين غير تلميذين لماركس · ويذكروننى بحاخام أصفهان الذى سألنى فيما مضى : « لقد ذهبت الى روسيا فهل صحيح ان الشيوعيين أيضا عندهم « كتاب » ؟ » أولئك يبحثون عن النظرية وراء العمل · نظرية ذات طبيعة خاصة · ماركس ولكن ليس ريشوليو · فى نظرهم « لم يكن لريشوليو سياسة » · قلت للسيد بالوسكى انهم فى الوقت الحاضر « لايعيرونكم السمع » · وهم قليلو الوعى بالتناقض الذىيعيشون فيه؛ لأن العمل لايضع هذا التناقض موضع الاختبار أبدا · ولكنهم يحسون به احساسا غامضا كما ظهر فى مؤتمر حركة التحرير الوطنى · ثم ان المقاومة الحقة قد فقدت ثلثى رجالها ·

قال بحزن : ـ انا أعلم ، أنا ···

احسست كأنه اراد أن يضيف : أعلم أيضا انك قد فقدت ذويك ·· ولكن جملته ظلت معلقة ، ثم نهض وسألنى :

ـ ما الذى لفت نظرك عندما لقيت باريس من جديد ؟

ـ الكذب ·

كان الياور قد فتح الباب · وأوصلنى الجنرال وقال :

ـ اشكرك ·

●

ونزلت أدراج السلم الهائل ، حالما تختلط فى عينى صورة السعاة والأسلحة ، وسرت فى الشارع · ما الذى فاجأنى من رؤيته ؟ لقد الفت منظره من خبار السينما ، بل ايقاع حديثه الذى يشبه ايقاع خطبه ·

ولكنه في السينما كان يتكلم وقد لقيت منذ حين رجلا يسأل ، فتتمثل قوته ، قبل كل شيء ، في طريقة صمته ·

لم يكن استجوابا · فهو يحب منازلات الفكر · لقد وجدت لديه « مسافة » ذاتية لم أجدها فيما بعد الا عند ماوتسي تونج · وكان لا يزال مرتديا سترته · ولكن بعد الجنرالات من أمثال ديلاتر وليكليرك لم يكن من شانهم ولكن من شأن اوسمتهم · وكثيرا ما تساءلت أمام هذا أو ذاك من الرجال العسكريين : ترى ماذا يكون في الحياة المدنية ؟ وتخيلت ديلاتر سفيرا وتارة كردينالا · ويبقى الجنرال ديجول في الحياة المدنية هو الجنرال ديجول ·

كان صمته سؤالا · وكان من الممكن أن يتجه ذهني الى جيد، لو لم يكن في صمت جيد طرافة صينية · قابل ديجول في الجزائر فاضفى على صوته لهجة المحقق المتأدب ليقول له : « هل تسمح لي يا سيدى الجنرال بهذا السؤال : متى استقر رأيك على عدم الطاعة ؟ » وأجابه الجنرال بحركة في الهواء والأرجح أنه فكر في الكلمة الانجليزية الشهيرة التى تقول عن الأميرال جيليكو : « ان لديه كل مزايا نلسون ما عدا ميزة عدم الطاعة » لقد حدثني جيد عن « النبالة الرسمية » في ملاقاته للناس ، وقد التقى به في حفلة غداء · لم تحفظ له ذاكرتي استقبالا رسميا ، ولكن هذه المسافة الفريدة في أنها لا تظهر بينه وبين مخاطبه فحسب ولكنها تظهر ايضا بين قوله وشخصه · وكنت قد التقيت قبل ذلك بهذا الحضور المفعم الذى لا تعبر عنه الكلمات · لم ألتق به عند العسكريين ولا عند السياسيين ولا عند الفنانين ولكن عند العقول الدينية الكبيرة التي تبدو كلمات أصحابها العادية وكأن لا علاقة لها بحياتهم الداخلية · ولهذا السبب اتجه ذهني الى الصوفيين عندما تحدث عن الثورة ·

يقيم بينه وبين مخاطبيه اتصالا قويا جدا، يبدو كأنه لايمكن تفسيره بسبب البعد الذى ذكرته · ويعود هذا الاتصال الى أنه يفرض على المرء الاحساس بشخصية شاملة ــ نقيض الاحساس الذى يدفعك الى أن تقول : لا يمكننا أن نحكم على الناس من حديثهم · لقد تبينت فيما قاله لى الثقل الذى تضفيه المسئولية التاريخية على تأكيدات في غاية البساطة (مثل رد ستالين على سؤال هيرست في عام ١٩٣٣ : « كيف يمكن أن تجرى الحرب بين ألمانيا والاتحاد السوفيتي اللذين ليس لهما حدود مشتركة ؟ يحدث وجودها ») (١) وعلى الرغم من أدبه كان يتهيأ للانسان دائما أنه

(١) الترجمة الأدق لرد ستالين هي الكلمة العامية : تتوجد

يقـــدم له حسابا . ولم نتطرق الى موضـــوع تجديد التعليم بالأساليب العصرية ولا حددنا المجال الذى يمكن أن أفيد فيه . لقد رأيت جنرالا يحب الأفكار ويحييها فى الطريق تحية لا تكاد تحس ؛ كل امرىء يشعر أمامه بالمســئولية ؛ لأنه كان يتحمل المســئولية فى مصير فرنسا ؛ هذا المصير الذى استولى عليه وملأ حياته وفكره وكان لزاما عليه أن يكتشفه وان يؤكده . كذلك عند رجل الدين : الذات والتلبية والتسامى . التسامى كما تصوره مؤســسو الطوائف المقاتلة . قبل أن أعبر من الرصيف ، رفعت عينى : كنت قد وصلت الى شارع سانت دومنيك .

وحاولت أن استوضح فى نفسى انطباعا معقدا : هذا الرجل يضارع اسطورته ولكن بماذا ؟ كان الشاعر بول فاليرى مساويا لأسطورته ؛ لأنه يتحدث كما يتحدث « مسيو تست » وبمثل صرامته ونفاذ بصيرته . وكان اينشتاين جديرا باينشتاين لما فيه من بساطة الراهب الفرنسيسكانى الأشعث ، الصورة التى أصبحت غريبة عن هؤلاء الرهبان . والرسامون العظام لا يشبهون لأنفسهم الا عند الحديث عن التصوير . ان الشخص الوحيد الذى كان يستدعيه الجنرال ديجول الى ذاكرتى فى ذلك الوقت كان تروتسكى ولم يكن ذلك لما بينهما من شــبه ولكن لما بينهما من تعارض ، مثلما يحملنا انجر على التفكير فى ديلاكروا .

●

بعد أيام من هذا الحديث ، دعيت الى مكتبه بصفة مستشار فنى . وعندئذ أمكن البدء فى دراســة خطة تجديد التربية الوطنيــة بالوســائل العصرية ، وتسلم ستوتزل المليــون فرنك الأولى التى مكنته من تنظيم استطلاعات جادة . وساعدنا القدر ، فجاء الاستطلاع الأخير الخاص بالاستفتاء الدستورى صحيحا بنسبة ٩٩٧ فى ال ١٠٠٠ . ومن ابريل الى اغسطس ، توفى روزفلت وموسولينى وهتلر ، وذهب تشرشل ، وتم تسليم المانيا ، وألقيت القنبلة الذرية على هيروشيما . وفى ٢١ أكتوبر حملت الانتخابات الى الجمعية الوطنية ٣٠٢ من النواب الشيوعيين والاشتراكيين . وانتخب الجنرال رئيســـا للحكومة باجماع الأصوات وألف مجلس الوزراء الذى أصبحت فيه وزيرا للاعلام . وكانت مهمة مفيدة فقد كان الأمر يتطلب - على الأخص - منع كل حزب من شد الغطاء الى ناحيته . وكان توريز يراعى قواعد اللعب : أن يوضع الحزب الشيوعى فى خدمة اعادة بنـــاء فرنسا . ولكن فى نفس الوقت كان الحزب ينشر أعوانه ؛ وتقارير مارسيل

بول تاتى مزيفة بشكل وقح · وفى هذه الحكومة الثلاثية ، ادت البيانات الزائفة التى يقدمها الشيوعيون الى بيـــانات زائفة يقدمها الاشتراكيون والجمهوريون الشعبيون · وبعد الاجتماع كان الجنرال لا يزال يحاول اقناع هذا أو ذاك من الوزراء · وكان يرى فى تحكيمه بينهم أمرا جوهريا يحتاجه عمل الدولة ولكنه لا يمكن ان يصبح تحكيما دائما بين الاختلافات والروايات الوهمية وكنت أشك فى ان يطول احتماله لمباراة الخداع هذه · وبدا لى كأنه يكتشف ما كان يعلمه من قديم الزمن ، علما أوهنت منه الحرب والمقاومة وربما ايضا تآلفه مع الديمقراطية الانجليزية ، يكتشف أن ديمقراطيتنا معركة بين الأحزاب وأن فرنســا تلعب فى هذه المعركة دور التابع · وقد حيره أن يسمع هريو ثم أن يسمع ليون بلوم ، بعد أن عرض عليهما الاشتراك فى حكومته بصفتهما وزيرى دولة للمساهمة فى النهوض بالبلاد ، يجيبانه بانهما يفضلان الانقطاع الى خدمة حزبيهما · وحيره ذلك بالأكثر ؛ لأنه كان يعلم أن الدافع الى الرفض (وبالذات فيما يخص ليون بلوم) لم يكن مجرد الرغبة فى الاحتفاظ بالمكانة الأولى ·

وكان السبب فيما أحس به من المرارة عنـدما هاجمه هريو ، يرجع قبل كل شيء الى تأكده من أن اللعبة البرلمانية قد اخذت تعاود سيرتها · فهل خطر له حينئذ ان فرنسا سوف تستدعيه قريبا · هذا ما خطر لنا جميعا · قبل أيام من رحيله دعيت أنا وليون بلوم الى الفيلا التى يقطنها فى نوى · وبعد تناول العشاء جلسنا نحن الثلاثة الى مائدة صغيرة ، وقال لليون بلوم بلهجة نصفها جاد ونصفها ساخر : ـ اقنعه أنت !

يقصد أن يقنعنى بالثقة التى يمكن أن نمنحها لتعاون الشيوعيين فى الحكومة · قلت :

ـ كيف تريدون من شيوعيين حقيقيين الا يروا فينا حكومة مثـل حكومة كيرنسكى او حكومة بيلسودسكى ؟ لا يخرج الأمر عن معرفة من الذى يطلق الرصاص أولا : ليست هذه دولة ، بل هى مبارزة على الطريقة الأمريكية · هل تذكر ان « الجبهة الشعبية » ···

ـ ولكن « الجبهة الشعبية » قد صمدت ·

ورفع ليون بلوم نحونا وجهه الطويل الرقيق ، وضم راحتيه ، وردد بحزم ، فى صوت هش يشبه قليلا من يفيق من الوهم ويتناقض مع صوت الجنرال العميق : ـ لقد صمدت ···

واجاب الجنرال بلهجة مرة : ـ أجل ·

والأرجح أنه قال في نفسه : وبعد ؟ كان في رأى ليون بلوم ، على الرغم من شجاعته الأدبية العظيمة ، ان السياسة تتطلب التوفيق · لقد كانت اتفاقيات ماتينيون ضربة معلم · لا فى القدرة على التوفيق السطحى الذى يصاحب الأعمال المشتركة · فالجنرال يتملكها الى حد بعيد ، ولكنه التوفيق العميق كأنه تحويل لعقيدة الخصم · (ما أسهل ميل البشر الى الفنون التى يستمتعون فيها بمواهب كبيرة ··.) أعتقد أن ليون بلوم كان يولى التوفيق نفس القيمة التى يوليها الجنرال ديجول للصلابة ·

قلت : ـ لقد صمدت لأن الاتحاد السوفيتى كان ضعيفا · وأما مع الجيش الأحمر وستالين اليوم ·

ـ قد لا تكون أمريكا متلهفة على رؤية الروس فى باريس ··

ـ اذا كان اسهم الحزب الشيوعى الفرنسى ، ولم يحدث انقلاب ، فهل تتحرك الولايات المتحدة ؟ ·· ولكننى كنت أريد القول بان الجبهة الشعبية ، فى عهدها الثورى ، قامت باصلاحات حقيقية و ···

قال ليـــون بلوم وهو يبتسم :ـ حاولت ، مثلا ، أن تعيد تسليح فرنسا ··

ـ هذا حق · ولكن ما أن انتهت الفترة الشورية ، حتى وجدنا من جديد البرلمان التقليدى · وهذا ما يأمل الحكم الثلاثى أن يجده بدوره ، ولا يفصله عن ذلك الا عمل الجنرال ديجول · ولكن كيف كانت جهودكم العسكرية ، عند اعلان الحرب ؟ لقد ارادت الحكومات ان توفق بين أنصار هتلر وخصومه ، بين أنصار المصفحات وخصومهم · وعندئذ وضعوا نصف جندى فى نصف دبابة ليخوض نصف معركة ·

زاد من ابتسامه وهو يجيب : ـ أنتم تعلمون انى لا أرى أن النظام البرلمانى أفضل حكم ديمقراطى ممكن ··

كنت أعلم ذلك ولا اشك فى أن ما كتبه حولهذا الموضوع قد ساهم فى تقريبه من الجنرال ديجول · وعاود الحديث قائلا :

ـ أى أنكم فى حقيقة الأمر ، ترون أن المســـاومة تختص بسياسة القرن التاسع عشر ·· ممكن · وربما كانت الحياة هى أيضا مساومة ·· الا أن .. ستالين لم يضع انصاف جنود فى انصاف دبابات ولكنه وضع كثيرا من النــــاس فى التوابيت ·· وعنـــدما كنت فى الحكم تساءلت كثيرا فيما اذا لم تكن المساومة هى فدية الحرية ··

ـ ان مشكلة «التحرير» الرئيسية هى بلا شك التوفيق بين ما للدولة من سلطة واقعية وما للمواطنين من حريات واقعية · شىء يسهل أن نقوله ويصعب أن نفعله ··

ـ لقد فعله الأنجلو ساكسون الى حد ما ·

ـ ولكن الحزب الشـيوعى لا يعتد به فى انجلترا ولا فى الولايات المتحدة ··

وجاءت مدام ديجول بالقهوة · وقمت لأجلس معها · ولم يكن الجنرال ديجول قد قال شيئا · وبعد وقت قليل ، كان الرجلان فى طرف الصالون تنظر اليهما المرآتان بحيرة · وكان الجنرال يصـلم ، من مقالات جريدة « البوبيلير » ، أن كل ما قاله مخاطبه منذ حين يقوم على الاعتقاد ـ الاعتقاد لا الرأى ـ بانه لن تكون هنـاك فرنسـا بلا ديمقراطية ، ولا ديمقراطية سـياسية بدون ديمقراطية اجتـماعية ولا ديمقراطية اجتـماعية بدون ديمقراطية دولية · ان ليون بلوم كان يرى فى الاشتراكية أقصى اشكال الديمقراطية ؛ ويوفق بهذا الرأى بين منـاداته بالنظام الجمـاعى وميله الشديد الى الحريات الفردية · كانت لديه ثقة فى الانسان لا تقل عمقا عن الايمان الشيوعى ، ويبرر هذه الثقة مستشهدا بسبينوزا : «اننى أرجع الى الدين كل عمل نتسبب فى حدوثه بانفسنا وبكوننا مدركين لصورة الصفة البشرية » · كانه يضع أيام نضجه فى خدمة أيام شبابه · كان لا يفتر الا بما لا يمكن للعقل أن يسوسه ·· كان هو أيضـا من الذين يسمون الداعى ـ واشد ما يبدو عليه ذلك فى تلك الأيام التى مازال يحمل فيها آثار السجن · وكان داعيه يقربه من الرجال الذين يعرفهم ؛ وداعى الجنرال يقربه من الرجال الذين لا يعرفهم · والجنرال على الرغم من التلطف الذى يصاحب ضيافته دائما ، يبدو كانه مدرع بفيض كريم·هل مـست عاطفته سفاهة قضية ريوم ؟ لقد مستها بلا شك الاصلاحات التى فرضها مخاطبه والأعمال التى انجزها والفهم المستنير فى بعض تحليلاته التى كان يوجهها ايمانه الاشتراكى ولكن بدون أن يخلط عليه الأمور · واعتقد أن الحوار بينهما قد تأسس على وعى كل منهما بقيمة الآخر ، وعلى حاجتهما المشتركة الى تصور السياسة كوسيلة للتاريخ · ولكن الأمر كان مقضيا · وقبل الانتخابات بأيام قليلة ، اقترح الجنرال على ليون بلوم ان يخلفه اذا ما أدت به الظروف الى الانسحاب ، فأجاب قائلا : « لا أستطيع ذلك ، بسبب صـحتى ؛ وأنا على الأخص لا أريد ذلك ، لأننى أجر ورائى كثيرا من الأحقاد ·· »

كان الجنرال يعلم أن الفرنسيين قد تقبلوا الهزيمة • ويعلم انهم قد تقبلوا بيتان•واعتقد أنه كان يعلم ، منذ أن رأى حماسة أيام التحرير، انه التبرير الذى يتعلل به ملايين من البشر• لقد رأت فرنسا فى «المقاومة» الوجه الذى كانت تود أن يكون لها ، أكثر مما رأت الوجه الذى كانت عليه • غير أن حواره الحقيقى كان معها ، سواء أطلقنا عليها اسم الجمهورية او الشعب أو الأمة •

قال نابليون : « ان رجل الدولة دائما وحده فى ناحية ، والعالم فى الناحية الأخرى » • ولا شك أن تفكير الجنرال يقول : «وحدى وفرنسا» • ان المتوحدين العظام كثيرا ما تربطهم علاقة عميقة بجموع الأحياء والموتى الذين يناضلون من أجلهم • ولكن هل تغتفر له الأمة ما هى مدينة به لشخصه ، ان لم تكتمل لها أسباب التبرير ، برحيله ، (ولو بأن يصبح زعيما سياسيا «مثل الآخرين») • مثلما تخلت انجلترا عن تشرشل ومثلما تركت فرنسا مجلسها يتخلى عن كليمنصو ! ولكن بعد أن استبعد الجنرال فكرة الحزب الواحد ، لم يكن من الممكن أن تتم له العودة فوق الأحزاب الا باســـم الأمة • وكان الاستفتاء الأول يحمل فى طيه فكرة انتخاب رئيس الجمهورية بواسطة الاقتراع العام ، ويتبوأ الشعب منزلة التحكيم العليا بين الرئيس والجمعية ، الأمر الذى يستنكره ليون بلوم بشدة • وربما كان رحيل الجنرال ، فيما كان ، استفتاء سريا •

●

وبعد اجتماعات مجلس الوزراء ، كنت أبقى معه ، كما تقضى العادة ، لتحرير البلاغ الصحفى • وفى يوم من الأيام وبينما كنا نهبط الدرج الذى يحاكى المرمر فى فندق ماتينيون ، بادرنى بقوله :

ـ ما الذى تنوى عمله الآن فى وزارة الاعلام ؟

ـ لا توجد وزارة ياســـيدى الجنرال • سينتهى الأمر بعـــد ستة اسابيع •

ـ أكون قد رحلت •

وعندئذ ، وبدون أى سبب معقـول ، أدركت أن الجنرال ديجـول لم يقم باستدعائى « أبدا » • ولقـد تأكد لى ذلك بعد عدة اعوام • لقـد نسجت حولنا مؤامرة غريبة ، ولا شـك أنه قد سبقنى الى اكتشافها • واظنهم قد نقلوا اليه دعوة بلســانى • فى الوقت الذى أبلغونى بندائه ،

بعد أن اختلقوا كلا الأمرين(١) • وهذا ما يفسر طابع الغرابة الذى اتسمت به محادثتنا الأولى معا ذات مساء بصحبة فكتور سيرج الذى كان يستضيفني في ذلك الوقت • لقد سبق ، لعلمك بما كان لدى قاريان فراى من امكانيات الاتصال بانجلترا ، أن سلمته رسالة موجهة الى الجنرال ديجول • وسلم فراى هذه الرسالة الى زوجتي التى كانت سكرتيرته • وللأسف ، ألقى البوليس عليها القبض فى خلال المظاهرات التى قامت بميدان « لاكانيبير » ، فى المكان الذى اغتيل فيه من قبل اسكندر ملك يوغسلافيا ، وبارتو • وفى عربة البوليس ابتلعت زوجتى رسالتكم لكى لا يعثر عليها فى حالة التفتيش • ولا أذكر الطريقة التى تم بها الاتصال النهائى بينك وبين الجنرال ديجول ، بعد هذه الحادثة المؤسفة ، ولكنى اظن أنه قد تم الوصول الى وسيلة أخرى ••

---

(١) أما عن سلاح الطيران فى القوات الفرنسية الحرة ، فلقد تسلمت بعد ذلك بعشرين عاما ، رسالة من السيد بنيديت • مدير « الدليل الدولى للاسطوانة » ، اقتطف منها الفقرة التالية :

« لقد التقينا عدة مرات فى مكتب المركز بسارسيليا ، وتناولنا العشاء •

- ٣ -

١٩٥٨/١٩٦٥

وقدر لى ان أراه من جديد في مارلى ، بكولومبى ، شارع سولفيرنيو، أيام « تجمع الشعب الفرنسى » ، ثم في الحقبة التى أطلقنا عليها « عبور الصحراء » . يقال : انه كان دائما يعلم بأنه سيستعيد السلطة . فهل تأكد من أنه سيستعيدها فى الوقت اللازم ؟ كنت ، قبل دين بيان فو ، اجلس مع بعض الأصدقاء فى كوخ صيفى باقليم فاليه ، وامامنا عدد من السياح يتطلعون الى الجبل الأبيض من خلال نظارة ضخمة . وسالتنى اليزابيث دى ميربيل : « كيف تتم عودة الجنرال ؟ — بمؤامرة يقوم بها جيش الهند الصينية ، معتقدا أنه يستخدمه لمآربه ، ثم يعض أصابعه ندما » . ولم يكن جيش الهند الصينية هو الذى قام بها ؛ وعندما كادت نبوءتى أن تصيب ، كنت أقيم بمدينة البندقية ، واثقا من أنه لن يحدث شىء .

وطاب لبيدو أن يقول ، بدافع ميكيافيلى : « هو الآن يصطاد فى لسان البحر » ، ملمحا بذلك الى الكلمة التى نسبوا الى قولها ، واظنها من دلبيك ، : « لا يذهب الانسان الى شاطىء الروبيكون (١) ليصطاد بالسنارة » .

ولم أعلم بخطورة الأحداث الا بعد عودتى .

وكان السيد بليفن قد اعلن فى اجتماع لمجلس الوزراء : « لم نعد

(١) الروبيكون نهر صغير كان يفصل بين ايطاليا وبعض قبائل الجول . ويقال بالفرنسية لمن يتخذ قرارا جريئا : انه اجتاز الروبيكون . لأن مجلس الشيوخ فى روما كان قد حرم اجتيازه لتأمين المدينة . وثار يوليوس قيصر على هذا التحريم ، وعبر النهر وهو يقول : قضى الأمر .

تمثل الا ظلالا .. لا تغرنا الكلمات . وزير الجزائر ليس في امكانه ان يعبر البحر المتوسط . وزير الدفاع الوطني ، لم يعد له جيش . وزير الداخلية ، لم يعد بيده شرطة » . وكان الكثير من الجنود السابقين في الهند الصينية والمظليين القدامى يعملون في الشرطة الباريسية التي أعلنت الاضراب في شهر مارس .

وبقى تكوين فرق الميليشيا . وكان الرئيس بفليملين يعارض هذه الفكرة . ويرى في انشائها تهديدا بالحرب الأهلية اشد خطرا من اللجوء الى الجنرال ديجول . وكان الوزراء ، على كل حال ، يتحدثون عن تكوين « لجان دفاع جمهورية » ، ولا يذكرون تسليح كتائب الميليشيا ، التي يخشى أن تصبح كتائب شيوعية . الا اذا لم توجد كتائب بالمرة . وكانت النقابات تقول : « ان تعبئة الجماهير يمكن أن تتم ، حول موضوع الأجور ، لا حول النظام البرلماني . ان العمال الذين يذكرون أن الحريات قد اعيدت عام ١٩٤٤ ، ولكثير منهم اقارب في الجزائر ، يفضلون ديجول على الكولونيلات » . وعندما تحدث الشيوعيون عن التعبئة ، لحق المناضلون بخلاياهم ، ولكنهم تركوها في الصباح وتركوا آخر المخلصين يلعبون بالورق . وفي يوم الأحد ، تتابعت على الطريق الغربي ٣٥٠٠٠ سيارة ـ بزيادة ٣٠٠٠ عن السنة السابقة .

وثورة مدينة الجزائر لم تكن أقل اضطرابا في الأذهان . وباريس لا تحسن فهما لكلمة الاندماج . قال سوستيل : انها تعني عكس مايعنيه عدم الاندماج . أى ، نعم ؟ ان خرافة الكيان الفرنسي من دنكيرك الى تمنراست ، قد تولدت من تحقيق قام به قسم الدراسات النفسية التابع للجيش ، وهو في ميمة أمجاده . وكانت هذه الأسطورة تحمل معنى الاخاء للعسكريين العاملين ولضباط القسم الادارى بل لكثير من المظليين . وان يكون قسم الدراسات النفسية هو الذي قام بتنظيم التحقيق ، ولو عن طريق نقل المسلمين في لوريات الجيش ، فذلك شيء قابل للتصديق ؛ ولكنه لم يتوقع ما حدث في ليلة الرابع من شهر أغسطس ، ولم يقدر على تجديدها مرة ثانية . ان « يوم المعجزة » ، يوم ١٦ مايو ، قد فاجأ الذين أعدوا له ، وكانوا يقولون في كتاباتهم : « ان هذا الأمل لا يمكن مقارنته الا بالأمل الذي طالعناه في باريس غداة التحرير ! » ان هذا اليوم قد فاجأ المسلمين الذين وجدوا أنفسهم في أحضان ذوى الأقدام السوداء(١) وفاجأ ذوى الأقدام السوداء الذين وجدوا أنفسهم في أحضان المسلمين .

---

(١) كناية تطلق على المستوطنين الفرنسيين في الجزائر .

وأربك الشيوعيين الذين قرروا الا يصدقوه ، بل اربك جبهة التحرير الوطنى لأنه لم يقع أى اعتداء فى مدينة الجزائر خلال فترة التآخى · وأعلن قادة المظليين : ستعتمد حركتنا على عشرة ملايين من فرنسيى الجزائر ، الأوروبيين والمسلمين · ولكن بعد أن خترت الحماسة ، لم تكن أوضاع المسلمين قد تغيرت · واصدرت « لجان الخلاص العام » قرارات بزيادة الاجور البائسة التى يتقاضاها العمال الزراعيون ، فكان المستعمرون يشغلونهم من الخامسة صباحا الى الظهر ويدفعون لهم نصف يومية محسوبة بالأجر الجديد : أى أقل مما كانوا يتقاضونه قبل الزيادة · وامتد الغضب الى الجيش الذى كان ينتظر من الحركة الجزائرية ثورة فرنسية مطورة بالتكنيك ، وحكومة قنصلية (١) تتألف من سانت جوست وماوتسى تونج ـ هذا الجيش الذى لم تكن تؤلف بينه غير الرغبة فى عمل سياسى ، وكراهية نظام لا يعرف صناعة الحرب ولا صنع السلام · أما المدنيون فكانوا يرتابون فى التآخى · وفى داخل تنظيماتهم الوطنية المعادية للعاصمة كانت الجزائر الفرنسية تعنى عند اللزوم فرنسا الجزائرية · والرجعيون المتمرسون يعلنون تأييدهم للاندماج فقد اعتبروا ان حق التصويت قد أصبح امرا مكتسبا للمسلمين الذين لهم تسعة ملايين من الأصوات سوف تكون أثقل وزنا من أصوات مليون من ذوى الأقدام السوداء ، ولكن اقل وزنا من أصوات عشرين مليون فرنسى · وفى مدينة باستيا بجزيرة كورسيكا ترك المعاون الاشتراكى دار العمديه التى احتلها المظليون ، وهو يغنى « المارسيليز » ؛ وصحبه المظليون وهم يغنون أيضا ورددت الجموع المحتشدة فى الميدان ، ولا من يعلم هل كانوا ينشدون « المارسيليز » من أجل المعاون ، او من أجل المظليين ، او من أجل الكل ··

وفى أول يونية · وصل الى باريس مبعوث « لجان الخلاص العام » وكان يتوقع أن يرى المدينة فى حالة حصار ، فبهت حين وجد الناس يلعبون بكرة الخشب فى ساحة الأتفاليد · ولقيت واحدا من أشهر مراسلى الصحف الأمريكيين يؤكد لى أن الجنرال ماسو قد جرب التعذيب على نفسه ليكتسب الحق فى أن يأمر بتعذيب الغير · الا أن الأذهان كانت تستخلص من هذا الهرج والمرج أن هناك حركة مضادة ولا يعوزها التصميم تمتلك الطائرات والمقاتلين ، فى مواجهة حكومة باتت بلا جيش

---

(١) القنصل فى روما القديمة ، كان هو المستشار المنتخب لمدة سنة ، ويتقاسم مع زميل له السلطة العليا ·

ولا شرطة · وكان سالان ، مندوب بفليملين قد صاح : « عاش ديجول ! »
وما عاد القوم ينتظرون من الجنرال أن يوقف المظليين ولكن أن يمنع الحرب الأهلية ـ التي اوشكت أن تبدأ ، كما بدأت حرب أسبانيا ، وكما بدأت ثورة أكتوبر ، ودور السينما مفتوحة والمتسكعون يتنزهون ·

وبعد عودتي بيومين ، استدعاني الجنرال الى فندق لا بيروز ·

●

وحدد للقـــائنا الساعة الخامسة ، وقـد يرجع ذلك الى أنه اعتبر حديثنا فترة من الراحة · وأمر باحضار الويسكي والشاي · وجلسـنا في قاعة الجناح الذى كانوا يخصصونه له كلما جاء الى باريس : طراز الفنادق في عهد لويس السادس عشر ، والهدوء الذى يفرضه الجنرال ديجول من حوله دائما · وحمل الشاى من أمامنا ليعود الى الجلبة التي كانت تصعد من البهو وتملأ الدرج ، مثل الفوضى التي تسود البلاد ·

وقال لى بايجاز :

ـ ان المسألة الرئيسية هي أن نعرف ما اذا كان الفرنسيون يريدون أن يبنوا فرنسا من جديد أو يريدون ان يأووا الى فراشهم·لن أبني فرنسا بدونهم · وعلينـا أن نكفل استمرار المؤسســات في عملها الى أن يحين الوقت الذى أدعو فيه الشعب الى اختيار مؤسسات أخرى · وهو مؤقتـا لا يرغب في الكولونيلات · فعلينا اذن اعادة بناء الدولة ، وتثبيت العملة ، والتخلص نهائيا من الاستعمار ·

وجدت مرة أخرى أسلوب الايقاع الثلاثي الذى يألفه الجنرال مثلما يألف غيره المقولة ذات الحدين ·

ـ بناء دولة بحق ، معناه بناء دستور بحق · واذن فالاقتراع العام هو مصدر كل سلطة ؛ والسلطة التنفيذية والسلطة التشريعية منفصلتان حقيقة ؛ والحكومة مسئولة أمام البرلمان ·

« تثبيت العملة لن يكون سهلا ؛ ولكنه أقل صعوبة مما يقال ، اذا كانت الدولة قادرة على الاستمرار والحزم ؛ أى اذا كانت الدولة دولة ·

« قضية المســتعمرات ·· يجب ان أصرح لكل الذين تتألف منهم الامبراطورية : ان المســتعمرات ، أمر زال وانتهى · فلنعمل معا على

تكوين « مجموعة » • ولنرتب معا دفاعنا وسياستنا الخارجية وسياستنا الاقتصادية •

« وفيما يتعلق بالباقي ، سنساعدهم • وبالتأكيد سوف ترغب البلاد الفقيرة بأن تشارك البلاد الغنية التي لن تبدى نفس اللهفة • وسوف نرى • فلينشئوا لهم دولا • اذا كانوا قادرين •

« واذا كانوا موافقين » •

« وأما الذين لا يوافقون ، فليذهبوا • لن نعترض على ذهابهم • وسوف نكون المجموعة الفرنسية مع الآخرين » •

كان هـذا التصميم قريبا الى ذهنه ، منذ الخطاب الذى القاه فى برازافيل ، عام ١٩٤٢ • ولكنه اليوم لا يكتفى بالأمل • وبينما تستعرض المواكب الهزيلة من ميدان الباستيل الى ميدان لاناسيون ، تريد أن تقلد « الجبهة الشعبية » التي لم تحمل وزر العدوان على السويس وحرب الجزائر ، والتى حققت من العدالة الاجتماعية ما لم تحققه الجمهورية الرابعة أبدا ، كانت فرنسا مقبلة على أن تعلن لكل مستعمراتها القديمة : « اذا كنتم تريدون الاستقلال حقيقة ، فلتأخذوه ! »

ولم يذكر الجزائر فى حديثه • كان يريد أولا أن يصبح الجيش الفرنسى هناك جيش فرنسا التى قامت باهداء الحرية لسبعة عشر بلدا ، لا جيش امبراطورية استعمارية • ويذهب الى مدينة الجزائر بعد أن يتم الاعلان بذلك • ان طريق الجزائر سيمر للمرة الثانية من برازافيل •

الى أين يمضى هذا الطريق ؟ يمكن للكاريكاتير فى بعض الأحيان أن يعطينا شبه الأشياء ؛ وقد كنت دائما أرى خصوم الجنرال - بما فيهم روزفلت - يرسمون له صورا كاريكاتيرية لا تشبهه • وخصومه الآن يعتبرونه رجعيا ؛ لقد كانوا يتناسون الاصلاحات الاجتماعية التى تدين بها فرنسا لعهده ، وهى الاصلاحات الرئيسية الوحيدة منذ أيام الجبهة الشعبية • وكانوا يعتبرونه زعيما من زعماء المظليين ؛ ويرون أن الحكومة التى يعمل على تكوينها لن تعجب الجزائر ، وانه لن يصبح رئيسا « للجان الخلاص العام » كما فاته من قبل ان يصبح رئيسا « للقوات الفرنسية فى الداخل » او رئيسا « للرماة الأحرار والأنصار » • هو يستعيد السلطة فى مواجهة فوضى عظيمة ؟ انها لأخف من الفوضى التى كانت سائدة فى عام ١٩٤٤ • واعتقد خصومه أنه سوف يمارس السلطة وفقا لما تمليه عليه أهواؤه ، ويبنى توقعه لاستقرار فرنسا على انتهاء النزاع

الجزائرى . أما أنا فكنت أتساءل هل يبنى على استقرار فرنسا ، انتهاء هذا النزاع . وكان يريد مؤقتا أن يراقب الأمور ويتدبرها بنفسه وربما كان يريد أن يتحسس سلطته .

وذكر فى حديثه المشاكل الاجتماعية بالكاد . ومن الطريقة التى ارجأ بها طرح هذه المشاكل ، بينما هو قد أولى اهتماما شديدا لمشكلتى الصلة والامبراطورية ولمشكلة الدولة بالمقام الأول ، بدا لى أنى أدركت ما يرمى اليه . فهو يناضل ضد اتجاه عقارب الساعة ولكن فى غير هذا المجال (الاجتماعى) . وربما كان لا يغضبه أن يرى الشيوعيين وأن يرى اضطراب المعمعة السياسية وهم يضلون بعيدا عما يعتبره جوهر مشاكل البلاد وصميم احساسها . وكان أن صرح لى بعد أيام من هذا اللقاء : « لا تنس أننا لم نقم بالثورة » . وكان فى ذلك قاطعا كأنه قد من صخرة واحدة ، الى درجة لم المسها من بعد الا أيام المتاريس بمدينة الجزائر .

كل انسان يتأمل الماضى فهو فى خلوة ، وبالأخص من كانت ذكرياته ملحمة ، وقد عاد الآن من خلوته : كان قبل أسبوع عاكفا على تصحيح « مذكراته » . لقد ترك العزلة الكبرى التى حملها دائما فى ذات نفسه ، لمفاوضات يباشرها ، ولكنه تركها أيضا من أجل مصير فرنسا الذى تملكه ولازم وجوده منذ أعوام عديدة . لم يتغير شىء فى حواره الرزين مع هذا الطيف . وفى هذه الأيام حين كان اعنف المنادين به يصفون انفسهم بالفاشيين واشد المهاجمين له يصفون انفسهم بالشيوعيين وبدا كأنما قضى على فرنسا بالمجابهة بين الأحزاب الشمولية ، كان هو لا يفكر الا فى أن يقيم الدولة من جديد . على أننى ، قبل أن أغادره ، ذكرت الشباب « لو استطعت ، قبل أن أموت ، أن أشاهد من جديد ، شابا فرنسيا ، فسوف يكون ذلك .. » وربما ارادت لهجته أن تقول : « .. بمثل اهمية التحرير » . ولكنه ترك جملته معلقة ، مثل اشارته . وبعد أن استأذنت منه ، تذكرت يوما من أيام الشتاء ، عند مشارف غابة كولومبى . وقفنا هناك ، وعلى مدى البصر ، أمام المقبرة التى ترقد فيها ابنته ، لم تطالع قرية واحدة . وكما فعل منذ حين فى قاعة الجلوس الصغيرة ، مد ذراعه ، نحو الوهاد الكئيبة فى هضبات لانجر وأرجون ، وقال : « قبل أن تجتاحها الحروب الكبيرة ، كانت كلها آهلة » .

●

وعند عودتى بالسيارة ، كنت أفكر فى لقائنا الأول .

أصبح شاربه بلون الرماد ، لا يكاد يرى • وفمه الآن يتصل بخطين عميقين حتى يبلغ ذقنه • قال لى بالتوس فى ذات يوم : « هل لحظت أن محياه يشبه الصورة التى رسمها بوسان لنفسه ، لقد أصبح الآن كذلك • وربما كانت للتاريخ سمات يأتى بها • لقد تشرب قناع وجهه على مر السنين عطفا باديا ، ولكنه ظل وقورا • وكأنه الآن لا يعبر عن المشاعر العميقة ولكنه ينسدل عليها • تنم تعبيراته عن الأدب والتلطف ، وأحيانا عن روح الفكاهة • فتصغر العين عندئذ وتتقد فى آن واحد ، ولمقدار ثانية خاطفة ، تستبدل بالنظرة المفعمة ، عين الفيل « بابار » •

اليوم تعنى معرفتنا بالانسان أن نعرف منه على الأخص ما يخرج عن سلطان العقل ، وما لا يخضع لزمامه ، وما قد يطيب لهذا الشخص أن يمحوه من الصورة التى يتخيلها لنفسه • ان كان ذلك ، فانا لا أعرف الجنرال ديجول • يا تعس المكر القائل : « اعرف البشر ، لكى تؤثر عليهم •• » لا يتم التأثير على البشر بالمعرفة ، ولكن بالاكراه أو بالثقة أو بالحب • غير أن تعاملى الطويل مع الجنرال ديجول قد أطلعنى عن كثب ، على بعض طرائق تفكيره ، وعلى علاقته بالشخصية الرمزية التى يسميها « ديجول » فى مذكراته ؛ أو هى اذا أردنا الدقة الشخصية التى حرر مذكراتها ، حيث لا يظهر « شارل » فى صفحاتها أبدا •

ربما كانت المسافة التى حيرتنى ، عندما التقيت به للمرة الأولى ، تأتى جزئيا من طابع لحظة ستندال ؛ لدى نابليون ، قال : « انه كان يدير الحديث •• لا يطيش سؤال أو افتراض أبدا •• » •

ولكن ما ان يخلع الامبراطور دوره (بل فى بعض الأحيان وهو يلبسه) حتى يظهر نابليون السريع الغضب أو الممثل ، زوج جوزفين وغاوى المقالب • وكانت الحاشية كلها تعرف هذا الشخص • والجنرال ديجول فى حياته الخاصة ، ليس عند معاونيه بالرجل الذى يتكلم فى الشئون الخاصة ولكنه فقط الرجل الذى لا يتحدث فى شئون الدولة • لا يرضى لنفسه الانسياق وراء انفعالاتها ولا التوانى عن ضبطها • وكان يتقبل عن طيب خاطر ، فى أثناء الحفلات أو فى مناسبات يختارها بنفسه أن يخوض فى حديث سطحى ؛ ولكن ذلك لا يعدو ما تمليه عليه الكياسة التى لا تنفصل عن شخصه • نابليون قد أفزع جاراته • وأما الجنرال فهو فى رأى جاراته متباعد و « جذاب » (جذاب معناها : يحسن الاصغاء) لان هذا الرجل ، حتى وهو يحدثهن عن أطفالهن ، لايزال هو الجنرال ديجول • ثم انه لمن النادر الا نعثر فى تراجم الرجال الذين صنعوا تاريخ

بلادنا ، على نساء غير زوجاتهن ٠٠ كل ذلك يتفق مع شخصية الرجل الذى استقبلني فيما مضى بوزارة الحربية وذكرنى بمؤسسى الطوائف الدينيه المقاتلة ٠ وفى نظر الجميع ، باستثناء أسرته بلاشك ، كان يبدو مثل شعاع لطيف من شخصيته الاسطورية ٠

سيتضح يوما ان الرجال يفصل بينهم ما تمتلىء من الذكريات بقدر ما يفصل بينهم ما اكتسبوه من الطباع ؛ وتختلف الذكريات من حيث الأعماق التى تمتد اليها ومن حيث الشبكات وما يقع فيها ٠٠ ولكن أكثر الذكريات عمقا لا يعبر عنها الحديث حتما ٠ وكان هذا الرجل الذى اشتهر بذاكرته وانتمت حياته منذ ثمانية عشر عاما الى التاريخ ، يبدو كأنه يواصل حواره الخفى مع المستقبل ، لا مع ماضيه هذا لم اسمعه يتكلم عن نفسه الا مرتين ـ وكانت المناسبة فى كل مرة هى موت انسان٠ ولم أسمعه يتكلم عن الآخرين بافاضة أكثر : لقد حدثني قليلا عن تشرشل وعن ستالين (« طاغية أسيوى كما اراد ان يكون ») وفى نصف سطر عن روزفلت (« وجيه ديمقراطى ») وصور الشخصيات فى حديثه ، كما هى فى مذكراته ، لا تتعدى صدر قوامهم ٠ كان يفكر فى رجال التاريخ باعتبار اعمالهم ، وربما فى الرجال جميعا باعتبار الأعمال التى يراهم قادرين عليها ٠ وكانت الأحاديث التى حضرتها تتجه ، عندما يخرج بها عن الأعمال الجارية ، الى ميدان الفكر أو التاريخ ، تتلاطم الحياة من حوله مثل البحر المضطرب ، ولا تختلط به الا من خلال نبرات الخبرة المرة ٠ وحديث داخله وذاته لا يظهر أبدا ؛ وكان يرجع فى المواضع التى يستشهد بها والمقارنات التى يعقدها (ما اشد دلالتها على الانسان !) الى مجال التاريخ ، وكثيرا ما يرجع الى مجال الأدب عندما يريد ان يتهكم، ولكنه لا يطرق مجال الأديان أبدا ٠ ينسبون اليه القول عند الاجتماع بالبابا : « والآن يا صاحب القداسة ، ماذا لو تحدثنا عن فرنسا ؟ » غير أن النبرة المتميزة التى وصف بها ستالين فى مذكراته ، تعود الى ذكرى الدكتاتور حين قال له : « فى نهاية الأمر ، لاينتصر الا الموت » .

كتب يقول : ان الشخصية التى يروى عنها هذه « المذكرات » قد ولدت من الهتافات التى حيت عودته وبدت له كأنها ليست موجهة اليه ٠ ولكن هذا الكتاب ليس من كتب المذكرات بمعنى « الاعترافات » ولا بالمعنى الذى يفهمه سان سيمون ٠ ان ما استبعده المؤلف من شخصيته (استبعد « شارل » أولا) لا يقل دلالة عما انتخبه من تلك الشخصية ،وكما تحدث قيصر واكسنوفون عن نفسيهما بضمير

الغائب ، جاء هذا الكتاب عن عمل تاريخي يرويه الرجل الذى أتمه . بطله بطل رواية « حد السيف » الذى لا اسم له . وقد أذهل الناس طابع التنبؤ في هذا الكتاب الذى يتنبأ بشخص اكثر مما يتنبأ بالأحداث - هو صورة بطل بلوتاركي ، ابدعته في المخيلة تلك القيم التي ستبدع في التاريخ مصير هذا البطل ، وبهذا كانت الصورة تشبه صاحبها . لا شك أن الازدواج يمس معظم رجال التأريخ وكبار الفنانين : نابليون ليس بونابارت ، والتيتيانو ليس الكونت تيزيانو فيشيليو ، وهوجو ، عندما يفكر في الشخص الذى أطلق عليه في البدء اسم أوليمبيو ، كان يدعوه ، بكل تأكيد ، فكتور هوجو . ان تماثيل المستقبل ، تمتلك الرجال الجديرين بها ، أرادوا ذلك أو لم يريدوا . شارل قد شكلته الحياة ، وديجول القدر والمصير ، مثلما شكلت الحياة فكتور ، والعبقرية هوجو . ولكن عمل الانسان ، قدرا كان أو عبقرية ، يستدعيه شيء قد سبقه الى الوجود ، وهذا الشيء ، مثله مثل الحياة ، يصادف اتفاق الحوادث والظروف ؛ الآية تضمن العبقرية والعبقرية لا تضمن الآية . لاشك ان معظم البشر مزدوجون ولكن لايمكن لكل منهم أن يرى الا ازدواج نفسه . على أن خلق شخصية ما ، أندر حدوثا مما يبدو : الازدواج مشترك في الوجوه الدينية العظمى ، ومشترك في الكواكب اللواتي لاتنتزع منهن شخصياتهن فقط ، ولكن وجوههن أيضا ، بعد أن تحورها الشاشة . « فينوسات » لساعة من الزمن لا يتجسدن الا في الأدوار التي تعرض عليهن . وليس الدور هو الذى يصنع الشخصية التاريخية ولكن الداعي الذى تسمع دعوته .

وكل الدعوات تثير من الأحقاد (معاداة الحرب أو معاداة الاكليروس) ما لا تثيره المهن . ان النصاب لا يثير نفس المشاعر التي يثيرها الضابط الجبان أو القسيس المتلوث أو القاضي المرتشي ، لأن هؤلاء ، وقد خانوا الدعوة ، أصبحوا منتهكين لحرمة أزيائهم . ونضال الانسان مرتبط بطباعه ، هذا ما يعلمه الجميع ولكننا أقل علما بان نضال الانسان يتطلب تنظيما معينا لعمله ، تمليه عليه الدعوة في الوقت نفسه الذى تختار له المعركة .

والجنرال ديجول كان عسكريا بمقدار قليل ، ولكنه يتصور العمل وفقا للعقلية العسكرية ، بالمعنى الذى نقول به عن انسان ما انه متشرب بالروح الكهنوتية أو بروح القانون . ولكن الفرنسيين ، وقد توزعت أذهانهم بين الروايات الخيالية والأهاجي الساخرة ، بين دارتانيان(١)

---

(١) بطل رواية الفرسان الثلاثة لاسكندر ديماس الكبير .

وكروكبول ، قد انتهى بهم الامر الى أن يتجاهلوا هذه العقلية . والقول بأن الاسكندر وقيصر وفريدريك الثاني ونابليون لم يكونوا الا رجالا ممتلئين يحملون السيوف (وهو قول أناتول فرانس) رأى يتسم بالخفة على أقل تقدير . وبفضل كورتلين ، وعلى الرغم من معركة فردان ، كان الجيش ، حتى منتصف هذا القرن ، يعنى الثكنات . أن استاذ الكلية الحربية وخريجها المثقف أكثر الفة عند الألمان بفضل التقاليد التى أرساها فريدريك والهيئة العليا لأركان الحرب البروسية ، وعند الانجليز بفضل جنرالاتهم من العازفين على الكمان ومن حكام القدس ، مثل ستورس . والجيش أداة معقدة ، لم يكن يعلق منها فى أذهان الفرنسيين غير الانضباط . على أن الانضباط ليس من الأمور التى تتأتى ببداهة أو بطبيعة الأشياء : لقد اضطر نابليون فى جيش ايطاليا ، وبيتان فى فردان ، أن يعيدا الانضباط أولا . واذا كانت الدعوة العسكرية ، فى روسيا والصين، قد اتخذت من جديد وبسرعة شكل الدعوة الوطنية ، فلا «الفرقة الأجنبية» ولا الوية المرتزقة فى قرننا هذا ، وحدات وطنية .

واعتقد ان العقلية العسكرية كانت تعمل فيه اثرها بطريقة عميقة ومحدودة : لأن الجيش ، عندما دخله ، كان مهيا للقتال . وبدا له من هذه العقلية العسكرية أنها توحى بمناهج وأساليب فى الحكم تتفوق على المناهج والأساليب المدنية . ان تنظيم سير العمل أولى مهام رجل الدولة ، كما هو اولى مهام الاسكندر وقيصر .

وكانت اشد الأساليب فعالية فى هذا الميدان ، هى أساليب الجيش والكنيسة ، وقد اخذت بها الأحزاب الشمولية ، بل الى درجة أقل ، الشركات الكبرى الراسمالية والشيوعية . ولكن نابليون لم يجعل فرنسا بلدا يحكمه ماريشالاته ، لقد أوجد أقوى ادارة مدنية عرفتها فرنسا . وكان الجنرال ديجول فى عام ١٩٥٨ ، كما كان فى عام ١٩٤٤ ، يريد ان ينشىء جهازا يخدم فرنسا فى السلام ، كما كان من الممكن لجيش حديث أن يخدمها فى الحرب .

ان فكره قد ورث ، من تكوينه العسكرى ، طبائع أخرى . وقبل كل شيء ، تصور الحكومة على أنها أداة لمعركة من أجل تنمية وتطوير فرنسا. لم ير فى الحكومة أبدا ثكنة أو جيشا ، ولكنه اعتبر قوميسيرى « الحكومة المؤقتة » ، ثم اعتبر الوزراء هيئة أركان حرب — وعلى الأخص اعتبر فيما

بعد ، معاونه المباشر ، ســواء كان مدير مكتبه أو رئيس الوزراء ، قائدا لهيئة الأركان العامة •

وثمة طابع عسكرى آخر : يقينه أن القرار المتخذ لا يجب تأجيله • لأن السرعة جزء من القدرة على الحسم • ولأن الصيد لن يعود ثانية ، ولكن قبل كل شيء لأن القرار التاريخى لا يمكن أن ينفصـــل عن اللحظة التى اتخذ فيها • على هذا الاساس كان الحوار التالى بينه وبين الجنرال جوان، الذى قال له :

ــ لو انك انتظرت ، ربما تهيأت لنا فرص أفضل •

ــ أجل • ولكنها لم تكن تتهيأ لفرنسا • ان المستقبل يدوم طويلا•

لأن قدرته على القرار المفاجيء لم تكن تتعارض مع التنبؤات التى لا ينتظر لها التحقيق الا من المستقبل : نداء ١٨ يونية ، تأكيد قوة الجيش الأحمر فى الوقت الذى كان مهزوما ؛ وفيما بعد تتابع موقفه الفورى ، الى جانب الولايات المتحدة ، ضد ارســال الصواريخ السوفيتية الى كوبا ــ وموقفه ، البعيد الأجل ، ضد الولايات المتحدة ، فى موضوع جنوب شرق آسيا •

لقد حاول دائما أن يجعل الزمن الى جانبه ، أو بالأحرى أن يجعل نفسه الى جانب الزمن ، بقدر ما يســـتطيع الزمن أن يســـهم فى نجاح مقاصده ــ وكان فى ذلك يشبه المزارع أكثر مما يشبه الرجل العسكرى• كان ينتظر من الجمهورية القـــادمة أن توفر له استمرارا فى العمل ، لم يتوفر من قبـــل ــ وبطريقة ما أسواها ــ الا للحظة • وعند العقلية العسكرية أن الوقت ، حتى الوقت الذى تقتضيه صناعة الحرب ، يكون جزءا من الاعداد والتأهب ؛ وعنده أن الكلام وسيلة للنطق بالأوامر ــ وسيلة عمل • وكان الجنرال ديجول يرتب العمل ، وفقا «لتصميم كبير» متغير ، مادام محكوما بحدود الممكن ، والممكن متغير هو أيضـــا • ويعزم على انجازه بكل الوسائل الموجودة فى متناوله • وكان واعيا بالدور الفعلى الذى يمكن أن تمارسه ، فى فرنسا وفى الخارج ، شـــخصيته الرمزية ؛ ولكنه شديد الاهتمام بأن يكون على حق ، بأن يقـــول للفرنسيين ما يجب «فعله من أجل فرنسا» • لم يكن فى خطبه وفى مؤتمراته الصـــحفية شيء يشبه الوحى المنزل • ان قوته كانت ــ ولاتزال ــ فى سلطانه على النفوس، لا فى سريان الحمية • يقول القائد العسكرى : « نحن والعدو » ، ويقول القائد التاريخى : « نحن ومصير العالم » • ويدين الجنرال ديجول للخاطر

الثاني بعقليته ؛ ويدين للخاطر الاول ، بمعظم أساليبه في العمل • وهو مثل الماريشال فوش الذي اشتهر بسؤاله الدائم عن « جلية الأمر » • كان قد ادهشني في اجتماعات مجلس الوزراء و « لجمع الشعب الفرنسي» والمقابلات • أن سمعته يلخص الأفكار والآراء التي تعرض أمامه • وسرعان ما أدركت أنه يريد تصفيتها • يبدو عليه أنه يعدد رءوس المواضيع ، بينما هو في الحقيقة يعدد الأجزاء التي تقبلها بعد أن يقوم بتجميعها ، ثم يعطي تعليماته وفقا للتعديلات التي أجراها على الصورة الأصلية • وتقتصر المداولة على المسائل الرئيسية • كان الحوار التقليدي في شئون الدولة ، غريبا عليه • كان يصغي الى مخاطبه ، دون أن يقاطعه • وقد يستوضحه بعد ذلك في بعض النقط ، واذا اقتضى الأمر، يصدر تعليماته• واحيانا يقول للبعض ، بلهجة من يولي الثقة ، لا من يأتمن على سر ، : «طيب ! سأقول لك ما أراه :» والأمر يتعلق عندئذ بمسألة خطيرة أو برئيس دولة • بكيفية التصرف في واشنطن أو لندن أو موسكو ؛ في الغد أو في مدينة الجزائر أو في مجال المنشآت الذرية •

ومن القرار الذي اتخذه في ١٨ يونية ، أعتقد أن الأمل قد احتفظ لديه بنبرة فاجعة • جلبة الاستعداد للقتال تسود ارجاء الفندق ، حول القدر الذي عاد الى الظهور • ربما تخيل الجنرال فرنسا فيما مضى «أميرة أسطورية » ؛ ولكنني كنت على يقين من أنه أقل ارتباطا بفرنسا أو ستريليتز ، منه بفرنسا المحتضرة في عام ١٩٤٠ ، فرنسا التي تسير نائمة والتي يقبل على لقاء جمعيتها الوطنية غدا • وعلى الجانب الآخر من الباب، سوف أطالع الحماسة الدافقة • ولكنني عندما استأذنت منه ، تذكرت المثل العربي الذي استشهد به أمامي فيما مضى : « اذا أهانك عدوك ، فاجلس على باب بيتك وسوف تمر عليك جنازته » •

●

ان الجلسات التي تعقدها الجمعية ليلا ، لها دائما طابع لا واقعي كمثل مسرى الضوء في حوض الأسماك ، يرتد عن زجاج النوافذ وينتشر كضياء يوم يسقط فيه الجليد ، على اللوحة المنسوجة بعنوان « مدرسة أثينا » ، وفوق المنصات الثلاث المتوالية على شكل هرم ـ الرئيس والخطيب وكتبة الاختزال ـ والنحت البارز من الطراز الامبراطوري يشبه فصوص الجواهر العملاقة •

نصف الدائرة المنابي كان مشغولا عن آخره • والمقاعد المخصصة

للجمهور بالمثل ٠ وبالأمس قال بيـــدو للنواب : «بينكم وبين السين ، لايوجد غيره ٠ هو المظلة الأخيرة ضد الجراد ! ٠٠ (جو من الخطر والتهديد» لم يحل محله الهدوء ولا الهياج ٠ الجلسات التاريخيه فى عهد الجمهورية الثالثة ، وروايات «باريس» عنها واضطراب النواب نحو المنصة ٠ والمجابهة بين كليمنصو وجوريس ، واعلان النصر عام ١٩١٨ !٠٠ هؤلاء النواب فى مقاعدهم ، والجمهور المكتظ بين العمدان العالية ، يبدون لى كأنهم معلقون فى الزمن ، وكان الفيلم الذى يروى مائة سنة من تاريخ الجمعية الوطنيه قد توقف عند صورة ثابتة ٠ و « التصريح الوزارى » الذى أعلن فى المساء كان يختلط بطلبات التعديل واستفسارات عن التصويت ، غارقة كلها فى نفس الضوء الذى تسرب فى حوض الأسماك ، بنفس اللاواقعية الآتية من أن أحدا لا يتكلم من أجل الاقناع ٠ وكان الجنرال قد قال : «تحلل الدولة الذى يسرع مهرولا ٠ والوحدة الفرنسية يهددها خطر مباشر ٠ والجزائر غارقة فى عاصفة من التجارب والانفعالات ٠ وجزيرة كورسيكا تفترسها الحمى المعـــدية ٠ وفى الوطن الأم حركات تسـير فى اتجاهات متعارضة وتعنف ساعة بعد ساعة فى أصواتها وأعمالها ٠ والجيش الذى طالما تمرس بالمهام الدامية والرائعة ، يصدمه اليوم افلاس السلطات ٠ ومركزنا الدولى مضروب بشدة حتى داخل التحالفات التى نشترك فيها ٠ هذا هو وضع البلاد اليوم ٠ وفى هذا الوقت نفسه الذى تسنح فيه لفرنسا فرص عديدة فى كثير من النـــواحى ، تجد نفسها مهددة بالتفكك بل وربما بالحرب الأهلية » ٠ وحجج الخصوم كانت معروفة مثل المعنى الذى يحتوى عليه بيـــان الجنرال ٠ وما غشينى من كل ذلك لم يكن عدم المبالاة ، ولكن الانتباه المفعم والذى لا ضعف له والذى يقف بالمرصاد لما لا يمكن توقعه ٠ كان جاك ديكلو يدافع عن الديمقراطية ، فلا يمكن أن يكون جادا ، ولكن منديس فرانس كان يدافع عن المبـــادىء التى وجهت حيـــاته ٠ كلهم يؤكدون أنهم الشعب ، والدولة ، وفرنسا ، وكلهم يعلنون أن الشعب لن

يدافع عنهم ٠ كانوا يخافون من أن يصبح الكولونيلات فيما بعد أقوى من ديجول ٠ ولكن الكولونيـلات كانوا أقوى من الجمعية ٠ وكيف يمكن أن ترمى بالفاشية حكومة تضـم بين وزرائها الرؤساء السابقين جى موليه وبفليملين وبيناى ؟ الفاشية حزب وجموع وقائد ٠ ولم يكن للأوروبيين فى مدينة الجزائر حزب ، وكان لباريس أكثر مما يلزمها من الأحزاب ٠ وكأن أجنحة التاريخ تتحطم على زجاج النافذة الكئيبة، وآخر بسمات الاستخفاف البرلمانى تمحى فوق وجوه وردية وتائهة ٠ وجمهور منهك ينظر الى النقر وهى تتضاحك ٠ وفى ختام آخر كلمة ألقاها ، قال الجنرال : انه اذا قدر

لثقة البرلمان أن تمنحه الحق عن طريق الاقتراع العام فى تغيير مؤسساتنا. « فإن الرجل الذى يحدثكم سيكتسب من ذلك شرفاً يحمله طوال ما بقى له من الحياة » ، عندئذ دوى التصفيق معلنا نهاية المسرحية ، وراح السيد ميتران والسيد بينو يتحدثان أمام الستارة المسدلة .

هذا ما أطلق عليه الشيوعيون : « عملية الفتنة بعد عملية الشغب » متناسين أن الجنرال ديجول ليس بالشخص الوحيد الذى يجب أن يفتن عندما ينتصر . وبعد انتهاء الجلسة ، انفض المسرح (ان مجلس العموم قاعة ولكن الجمعية الوطنية نصف دائرة) بدون ضـجة . وفى طريق العودة ، تجاوزت فى سيرى امرأة فقيرة ترتدى ثياب الفلاحات ، انتعلت خفـا وشرعت فى يدها مكنسة فكأننى التقيت بمـا كان يدعى فى أيام فلوريس ، باسم « الجمهورية » .

كان من السهل التكهن برد الفعل الذى يمكن أن تحدثه لدى المسئولين فى مدينة الجزائر ، حكومة تخلو من جاك سوستيل ويتولى فيها جى موليه وزارة دولة . ان جى موليه وبيير بفليملين ، قاما بمعاونة بعض الوزراء من البرلمانيين ، بتحقيق الاتصـال المستمر بأعضاء الجمعيتين ، وبذلا مجهودا مرهقا حتى أنهما حضرا فى الصـباح عند الساعة التاسعة دون أن يحلقا ذقنيهما ، ليشـتركا فى الاجتماع الأخير الذى عقد بفندق لابيروز . وفى المسـاء قام الجنرال كمـا تقضى العادة ، بتقديم حكومته لرئيس الجمهورية . وكانت أضواء قصر الاليزيه ضعيفة جدا ، تضفى على المكان اللاوقعية نفسـها التى قابلتها فى المجلس . وبينما راح الرئيس كوتى يتحدث بمرح وود الى الوزيرة الجديدة الآنسة سيد كارا ليرفع عنها الخجل الطفيف الذى اعتراها ، لمع برق شكسبيرى أصاب احدى الشجرات الكبيرة فى حديقة القصر ، فبزغ من غبش الظل ، مقدار ثانية من الزمن، الجنرال ديجول يحيطه مجلس وزراء منصعق .

وبما كان تثبيت العملة يجرى بسهولة ، مثل الحرب وفقا لما يقول نابليون . وأما الدستور فكان بالعكس موضوعا لاجتماعات عديدة يعقدها مجلس الوزراء وكثيرا ما يواصلها ليلا . وذات يوم سألنى الجنرال عند الخروج « هل يسليك هذا ؟ ــ نعم ، تسلية غير قليلة .. » لم يكن يخطر فى بالى أن يرى القرن العشرون ولا أن ترى فرنسـا مولد دسـتور يحاط باحترام رومانى ، مثل دستور الولايات المتحدة ؛ وكنت اعتقد أن دستورا يجعل من الاستفتاء وسيلة للحكم ، سوف يوضع من أجل الشعب ، لا الشعب من أجل الدستور . وكانت المداولات الخاصة بالمواد «الاجتماعية»

تبدأ بحوار سرعان ما يتوتر ، بين جي موليه وانطوان بيناى · وسوف يمر كل ذلك كما مرت الجلسة الليلية في الجمعية الشبيهة بساعتها الواقفة ، ومثلما ظهر الوزراء في ومضة البرق الأزرق · ولكنني كنت أتابع بانتباه لعب هذه القوى المتناقضة المختلف أشد الاختلاف عن دور النشوة الثورية · وكنت أتبع الطريقة التي يقرن بها الجنرال بين هذه القوى · هذا ما كان «يسليني» · وربما كان يسليه أيضا ـ على هامش العناد الذي يوالي به بناء القاعدة التي يأمل ان يقيم عليها فرنسا من جديد · ومن مقعدي في المجلس ، كنت أرى شجيرات الورد في يونية شبيهة بشجيرات الورد أيام الهزيمة · (في عام ١٩٤٥ لم أشاهد هناك غير المطر والجليد) · وفي يوم ٤ سبتمبر قدم الدستور الجديد في ميدان الجمهورية · وتصاعدت بالونات الأطفال فوق رءوس الجموع تحمل شعارات تؤكد وهي تتموج أن الفاشية لن تمر · وبعد أيام ، كان السيد ليتروكي ، رئيس الجمعية ، يؤكد للوفد الفيتنامي أن الجنرال ديجول لن يحصل على ربع الأصوات في الاستفتاء ·

- ٤ -

١٩٥٨/١٩٦٥

كان الاستفتاء يتضمن دخول مقاطعات ما وراء البحر فى المجموعة الفرنسية ، او استقلالها . وقد أبدى المحافظون تشاؤمهم . وايمى سيزير نائب المارتينيك وعمدة « فور دى فرانس » لم يكن بعد قد حدد موقفه ، ولما كان الجنرال ديجول لا يستطيع حينئذ ان يغادر فرنسا ، فقد كلفنى بتمثيله : وسالته :

ـ لم الذهاب الى غيانا مادام المحافظ يؤكد أنها مفقودة ؟

ـ هى آخر ارض فرنسية فى امريكا... ثم يجب الذهاب؛ لأن القلب ينفطر .

كنت أسمعه يستخدم هذه الكلمة لأول مرة ، وسرعان ما قدر لى ان ادرك لماذا استخدمها .

●

بدأت بالجاديلوب ، فوصلت فى الصباح الى مركز مدينة « بوانت أبيتر » ، وهو منزل بأروقة يلتف حول حديقة من أشجار الموز ، ومصاريع الأبواب مشطورة الى نصفها تروح وتجىء ، والمراوح معلقة فى السقف ، الدنيا التى رأيتها فى جوريا والبلاد التى كانت تدعى فى الماضى بساحل العاج والذهب ، وكأن تجارة الرقيق قد جلبت بيوت المستعمرين القديمة مع العبيد . وكنت قد اصطحبت معى بعض المعاونين ، ومنهم تريمو ، المحافظ الأمثل ، الذى أصبح بعد ذلك سكرتيرا عاما لمقاطعات ما وراء البحر . وهو من كبار الموظفين ، رجل ليبرالى وذكى ، قتلت زوجته وهى

تفتح طردا ملغما ، عندما كان محافظا لستراسبرج ٠

وفى الحال وصلتنا الشكاوى والتظلمات ، ثم ذهبنا لنضع باقات الزهر على النصب التذكارية ، واستمعنا الى المجالس البلدية والى خصوم الحكومة ٠ والغيث ما ينتظرونه من الوطن الأم ، منافيا للعقل ويشبه التخريف فى معظم الأحيان ، ولكننى عندما طفت بالأحياء الفقيرة ـ وليس بالمدينة أحياء كثيرة سواها ـ تبين لى أن لهم بعض الحق فى التخريف ٠ فى المستويات الدنيا يتعاطون الجدال ولا يفعلون شيئا كثيرا وفى المستويات العليا يبذلون الوعود ولا يفعلون شيئا ٠ وكان أعقل الذين تحدثت معهم واوفرهم رزانة ، زعيم عمال الموانىء ، وكان على الأرجح من النقابيين الشيوعيين ٠ أما المحافظ ، وهو محافظ طيب بلا شك ، ورجل صالح بالتأكيد ، فقد كان يطالب عبثا بان تيسر له وسائل العمل ٠ ان وضع الأمور فى نصابها لن يخلو من جهد ومشقة ، ولكن اوانه قد ازف منذ وقت بعيد ٠ لا أظن النفوس قدمت فى أى مكان آخر هذا القدر من الاخلاص والتضحية لفرنسا ، عبثا وبدون طائل ٠ اما الاستفتاء فقد كان سكان الأنتيل يريدون أن يقولوا « لا » تعبيرا عن استيائهم ، و « نعم » ليظلوا فرنسيين ٠ ومن يفكر فى احتمال انفصالهم كمن يتصور استقلال مقاطعة لوزير (١) ٠

وفى المساء تجمع الأهالى فى الميدان للاستماع الى الخطاب ٠ ومن النوافذ اطلت النساء بأثواب المدارس وفى الأشجار تناثرت عناقيد من الأطفال ٠ وخلف كشك الموسيقى تدور خيول خشبية مضحكة ، قصها المنشار منذ مائة عام أو يزيد . لم تلعب المسماة بالسياسة أى دور . فليس بين نواب الأنتيل ، ديجولى ٠ لقد لعب الدور الوحيد نداء فرنسا والثقة التى يثيرها الجنرال ٠ وكنت أتحدث لأول مرة فى حياتى أمام جموع سوداء ، فكنت احس بسكونهم المرتعش يتآلف مع ايقاع الخطاب مثلما يتآلف رقصهم مع الموسيقى ٠

وتقرر مبيتنا فى قصر الحاكم القديم ، فى الجهة الأخرى من الجزيرة وخيم الليل قبل أن يسير الموكب (بالموتوسيكلات والمحافظ الخ ٠) ليجتاز بنا قرى عمياء ، يخوضها الأسود فى الليل المضىء ، واقواس القمر على أوراق الموز المنحنية ٠ وقد بدأت الاذاعة فى نقل الخطب ٠ ومن قرية الى قرية رأيت الأنوار توقد فى النوافذ ، والأبواب المفتوحة تلقى الى الشارع

---

(١) مقاطعة فى وسط فرنسا ٠

بفقرات نلتقطها فى عبورنا ويصفقون لها احيانا فى البيوت الصغيرة . واصبحت الآن فقرات من خطابى ، وأنا استغرب سماعها ، لاننى اخالها متفقة مع وصولنا ، ولأن الانســـان لا يعرف صوته عندما يصـــدر من المذياع :

« هو الرجل الذى قام ، فى رقدة الوطن الرهيبة ، فابقى على شرف البلاد مثل رؤية لا تنهزم ... » .

دكاكين وبيوت .

فقرات لا تفقه .

طوابير من الرجال السود .

قرية . وانا اسمع الجمل على فترات ؛ لأن المذياع ينقل الخطاب فى جميع المنازل تقريبا :

« وامام نكبـــة من افدح النكبات التى ألمت بتاريخنا ، وفى لیـــل المهاجرين اذ لا تزال طرق بلادنا على أفق الحريق ، تغص بعربات الفلاحين بلا نهاية ، ارتفع صوت ليعلن تلقاء الجميع ... » .

الغابة والحوص والسكون . وأريج الزهر فى الليل .

وبلدة . فى ضوء فوانيس الســـيارة ، ظلال بعيون بيضاء تلوح بايديها . الشرطة تركن اللوريات التى سدت الطريق حتى تفسح لمرور بيت صغير مرفوع على منصة تجرها الخيول .

« وكانت فرنسا فى خطر جسيم والاتحاد الفرنسى يوشك أن يمزق اربا . فقام الجنرال ديجول بتصفية الحرب الأهلية . وفرض قبول الدستور الذى ستتولد منه المجمــوعة الفرنســية ، واعاد الثقة الى النفوس وكفل الاستقرار للحكومة . وفى أقل من اربعة اشهر أعاد الى الجمهورية ، من أجل فرنسا ، وجه الأمل ، وفى بضعة اسابيع أعاد اليها ، من أجل العالم ، وجه العزة والاباء ... » .

ومرت الخيول بالبيت واصبح الطريق سالكا .

« ...دون أن يتخلى عن شىء من الحريات الأساسية ، ولا حتى... »

توالت القرى ، أسماؤها «البلدة الصغيرة» و «الجوافة» و «كابستير» و «شجرة الموز» «الينابيع الثلاثة» .

دخلنا الغابة من جديد ٠ وترامت الينا من الشلالات الخفية ، أصوات مهيبـة ٠

وما زال المذياع يلاحقنا حتى اجتزنا القرى الأخيرة وسط الهتافات٠ ووصلنا أخيرا الى الدار التى كان حاكم الجزر يقيم فيها سابقا ؛ قد انتشرت أزهار الجهنمية فى ضوء الفوانيس ، ومن فوق أصوات الصراصير الليلية ، سرت فى الجو اغنية هى من أشد الحان المولدين اكتئابا :

« وداعا يا مناديل ، وداعا يا وشاحات

يا ثياب الحرير والعقود الزاهية

فقد تولى حبيبى

يا حسرتى ، يا حسرتى ، للأبد ٠٠٠ »

وقد الف هذه الأغنية حاكم من أيام لويس الخامس عشر ، هجرته فتاة خلاسية فانطقها بحزنه ٠ ومطربات يأسرن اللب ، كن ينتظرننا فى الدهاليز الواسعة ، يواصلن الترنيمة النادبة :

« صباح الخير يا سيدى الحاكم ٠٠٠ »

وفى قاعة الطعام ، امتدت مائدة بيضاء على شكل الحدوة ، ومن حولها ثلاثون مقعدا ، وفى وسطها وقف الأسقف وحيدا ، فى انتظارنا ٠ ومن ورائه ، كانت النوافذ مفتوحة كلها ، تجلو لنا البحر الكاريبى وقد تخلجه القمـر ٠

ولم تكن المارتينيك اقل عجبا ٠ وكان علينا ، لكى نبلغ عاصمتها القديمة « سان بيير » ، أن نعبر جبلا تكثر فيه أشجار الصنوبر بعـد الأدغال الأمازونية ؛ ثم نصل الى مدينة يقال انها هدمت بفعل سحر رجيم٠ ذهبت أسطحها ؛ ورأيت كل شىء فيها مهجورا ولكننى لم أر شيئا تصدع أو شدخته الجراح ٠ شوارعها خاوية ، بلا أبواب ولا نوافذ ، تمتـد حتى دعائم جبـل « بيليه » ٠ لا أثر من الرماد أو اللافة ، ولكن درجات ، قد انثلمت حجارتها ، تصعد نحو السماء الساهية ٠ وفى الشارع الرئيسى الذى كان يشق المدينة فيما مضى ، تبدى لى متحف شبح ، دليلى بين أرجائه ترجمان شبح ٠ وهنا عثرت على اللافة ، وقد تشرنقت بها أشياء متواضعة

غريبة . كأنما هي مدينة بومبيي ، واستبدل فيها بالمصباح القديم طاحونة فلفل ، وبالشارع الروماني شارع أعمى ضرير مثل الشوارع التي تصطف دكاكينها وساحاتها الزائفة حول مصانع الضواحي . اشياء متآكلة مثل جذوع الأشجار التي يلفظها البحر . بدت لي كأنها لعب يلهو بها عفاريت البركان ؛ وتبوأت أعلاها وردة من رمال ، مليكة تحكم على هذا البلاط الرجيم .

ألقيت نظرة على بطاقات بريد تصور متحف «تاشير دى لاباجيرى» . كذلك بيتا من بيوت الجزر ، وأنقاض أطلال . وكنت قد أبصرت العرافات العجائز يوسوسن في أذن « الأنسات » . ترى في هذا المكان مدت الفتاة روز ، ولم تكن بعد اسمها جوزفين ، يدها الى قارئة الكف « ستصبحين أكثر من ملكة ... » قول يضيع صداه وتجرفه رياح المحيط من فوق الديار الموحشة .

وكانت كل قرية أمر بها ، تأتيني بالأزهار ، فاذهب لأضعها عند أقدام تمثال الجمهورية . وكثيرا ما أفتقده وأجد بدلا منه تمثالا « لفكتور شولشر » مصنوعا من الجبس . عدو الرق والعبودية القديم كان هو أيضا عنوانا على الحرية .

وتقرر أن اتحدث في مدينة فوردى فرانس مع ايمى سيزير . وكان قد استقبلني في دار العمدية بقوله : « انى أحيى في شخصك الأمة الفرنسية العظيمة التي تربطنا اليها علاقات الود الصميم » . وكان الميدان رائعا ، رحبا ، يفيض بالناس ـ كأنما اعد للاحتفال بعيد وقور . والفساتين الفاتحة قد اصطفت في طمأنينة الماء التي خيمت فوق البحر . وقد سكنت كلها بلا حراك . وختم سيزير تقديمه قائلا :

« فلتكن سفير الأمل المستعاد ! »

وبدأت خطبتي بأن تلوت رسالة الجنرال ديجول :

« سيقول لكم أندرى مالرو حين يحمل اليكم تحيتي ، اى تذكار احفظه لكم وللحفاوة الرائعة التي لقيتها منكم عام ١٩٥٦ . ان فرنسا بأسرها لتذكر مساهمتكم المجيدة في انتصارها في الحربين العالميتين » .

ومضى خطابي على منوال الخطاب الذي ألقيته في الجواديلوب . وتم نفس الاتصال بيننا ـ الا أنه في هذه المرة أوقع وأشد ؛ لأنني قد أصبحت أعرفه ، ولأنني كنت أفكر في القرى التي تستمع الينا (قال لي بعض

المنظمين « لا تنس اننا هنا نرسل على الهواء مباشرة ، ومن عادتنا أن ننشد المارسيليز فى ختام الحفل ») ولأن الميدان كان من الاتساع بحيث لم أعد أميز حدوده تماما والمساء يهبط · وارتفعت النبرة فأدركت الجموع التى لم يكن يصدر منها أى صوت ، أن خطابى قد اقترب من نهايته ·

« ان الوطن الأم الذى آثر أن يختار جزر الأنتيل فيما مضى ، بدلا من كنـدا ، والذى رأى أبنـاء الأنتيل يسقطون الى جانبى فى معركة ستراسبرج ، لن يتخلى عن الأنتيل · وأنا أعتقد ، مع الجنرال ديجول ، أن المارتينيك تريد · اليـوم مثل الأمس ، أن تظل فرنسية ، كما أريد ان أظل فرنسـيا » ·

« اشهدكم فى هذا اليوم ساعة مغيبه ، انتم يا رفاقى فى معركة الأمس ومن الممكن ان تصبحوا رفاقى الى الأبد · يا من خضتم الحـرب العـالمية الأولى ، ويا من قاتلتم فى لواء الأنتيـل مع رفاقى من أبنـاء « دوردونى » ، ستجيبون نعم مثلما كان ليجيب الذين سقطوا شهداء » ·

وكانت الكشافات تعبر فوق الجـوع التى غمرها غسق المسـاء ، وتضىء جذوع الأشجار العالية والجدران التى الصقت عليها فى كل مكان اعلانات تقول : لا ·

« يا من هربتم من الجزيرة منذ عام ١٩٤٠ ! وعملتم بحرارة فى قواتنا البحرية الحـرة وصمدتم فى لواء الباسفيك الذى أصيب بقسوة عنـدما احرزنا معا انتصارنا الثانى فوق نهر الرين ، ستجيبون نعم مثلما كان ليجيب الذين سقطوا شهداء ! » ·

« يا أيها الرجال والنساء ، ستجيبون نعم مثلما اجبتم منذ سنتين الرجل الذى قال ان ترحيبكم الذى لا ينسى قد محا ما لقيه من صروف النسـيان ! » ·

فى قلب الليل تصـاعد التهليـل الذى يحيى النصر فى ساحات الميادين . الى أن قلت :

« يوم أن نقلت الاذاعة على امواج الأثير نشيد المارسيليز فى عيـد الجمهورية ، وقف المستمعون اليه فى ديار فرنسا · والآن ننشده معا · فليستمع اليه الفرنسـيون من أبناء الألزاس وروان وقوفا فى كل القرى التى استشهد دونها أبناء المارتينيك ! وقوفا يا أبناء المارتينيك فى ديار السهول والتلال ! » ·

كان أمامي ثلاثون صفا من الكراسي ، واحسست بالمستمعين كلهم وقوفا . أما الذين لم يجلسوا من قبل فقد شرعوا فى غناء المارسيليز على مهل مثل نشيد الأممية فيما مضى عندما كنت أسمعه بموسكو وغابات من اعلام المخمل العنانى تبزغ شيئا فشيئا من وراء قبة القديس باسيل . ولكن نشيد الأممية رتيب حين يتئد ، وأما أنغام المارسيليز فتختلج ارتعاشا من كبح انطلاقها :

« هل تسمعون فى قراكم ...

حتى نفرت الصيحة المدوية :

« الى السلاح يا مواطنون !

كان زئير الحرية السوداء ، زئير المناضلين تحت لواء « توسان لوفرتير » وهبات الفلاحين الخالدة - لا ينفصم امتزاجه بالأمل الثورى وبالاخاء الجسدى . لم أعرفه من قبل غير مرة واحدة ، منذ خمسة عشر عاما ، فى السجن . هبطت من المنصة فى صحبة سيزير ، وخضنا فى جموع الليل ، لا نستبين غير تدويمها . ولا تزال الكشافات تخطف إبصارنا وتشتبك أضواؤها فوق الجدران والأشجار والاعلانات التى تقول « لا » . ويعود مطلع النشيد لينمو بجلال وينتشر : « هيا أبناء الوطن ... » ولا يغادر أحد مكانه ، كلهم يوقعون نشيد الحرب ، بدقة من الأقدام بطيئة تصاحبه مثل الطبل الأجش وتربطه بالأرض مثلما ترتبط أغانى الملاحين بالنهر .

« ارتفعت الراية الدامية ! »

لم أستمع فى حياتى الى كورس من عشرين ألف صوت ، ودبيب كأنه يستشهد بالأرض : الرقصات الأوروبية تسيل فوق الثرى ولكنها لا تدقه أبدا . ومضيت مع سيزير جنبا الى جنب فى الطريق الذى يخترق الميدان ، جمع يتبعنا وجمع يحاول أن يعبر الميدان فى اتجاه لقائنا . تقابل فى الليل تحت أشعة الكشافات ، نطالعه فى الصيحات التى تتدفق وتدور مع النشيد . حتى بلغنا الشارع الذى يساير الميدان وتضيئه أنوار الفوانيس . وما هى الا ثوان حتى غطت على صوت الغناء هتافات بحياة ديجول وسيزير « عاش ديجول ! عاش سيزير ! » تدفقت من غياهب البحر الشاسع الى قلب المدينة ، لا تريد أن تنقطع ، والنوافذ كأنها امتلأت بأثواب المدارس ؛ وأمامنا شباب يسيرون القهقرى ويصفقون بأيديهم على ايقاع الصيحات التى نغوص فيها وتضيع ، من ورائنا ، فى صخب الحشود .

قال لى سيزير « هم يريدون أن تكون « فيديه » هائلة » . و « الفيديه » هى حفلة العيد التى ترمز الى موت الكرنفال حين يحرقون تمثاله وترقص الجزيرة كلها حول أشخاص متنكرين فى ثياب الشياطين ... وربما كانت كذلك ... وأما الآن فهو العيد الألفى الذى تتخلص فيه البشرية من نفسها ؛ احتفال الرجال الأسود كما رأيته فى افريقيا ، ورجال نقشوا بالطلاء فى أرض تشاد تسرى منهم الرعشة الى عشرة آلاف متفرج فوق ميدان « فورلامى » الذى لا يحده البصر . سيزير يوزع التحيات الودود فى طريقه ، وأراه يعلم عن هذه الحماسة المشتعلة أننا ان كنا أطلقناه ، فلسنا أبطاله . وانما يتوجه الى شخصية علوية تنتسب الى الجنرال ديجول كانتساب الجمهورية الى رئيسها : تشفع بين الحياة البشرية والعالم المجهول ، بين البؤس الراهن والسعادة المقبلة ، تشفع قبل كل شىء بين العزلة والتآخى . كثيرا ما قابلت هذا الهياج المضطرم فى أوروبا فلا يدهشنى أن أقابله فى غيرها من البلاد ؛ غير أنى لم أطالع فى أوروبا الانتقال من الحماسة السياسية الى النشوة العلوية وهذا الهياج الموقع الذى ألقى فى روعى أنه يستشهد بالأرض . هو الرقص ، ولكن لا كما تلعب أوروبا أو كما تؤدى آسيا طقوس الباليه ـ هو الجلالة . « عاش سيزير عاش ديجول ! » وصلنا الى المحافظة بعناء . وبينما دارت كئوس الشمبانيا وتبودلت السلامات الأوروبية ، كان اصطخاب الأمل يملأ جو الجزيرة ، يفاجىء الملاحين العابرين بشطآنها ، وكأنه صوت الآلهة القدامى .

●

كانت غيانا اذن تبشر بالخير . وأكثرت الطائرة من المحطات على طول الشاطىء الكاريبى مثل الأوتوبيس ، وحلقت فوق الغابة التى تمتد الى نهر الأمازون . وعبرت جزيرة الشيطان ، ودارت حول الحقل . لقد طالعت فيما مضى تحقيقات صحفية عن « كايين » وليمانها الذى لم يعد له وجود . وكنت أتوقع أن أجد جحيما متربا مهجورا ؛ فطالعتنى منازل جديدة ، أقل تواضعا بكثير من أكواخ المارتينيك ، وشارع جميل بلون الرمال . وأمام محطة المطار المبنية من الخشب ، رأيت فتيات صغيرات فى ملابس فولكلورية ، يقفن فى انتظارى وقد حملن باقات امتلأت بالأزهار مثل باقات الهند وتناثرت عليها بالمثل قطرات الماء . ومن ورائهن جميلات البلد فوق عربة أزهار ، مقبضها يمكن أن يرمز الى قوس النصر ويمكن ان يرمز الى سلة من السلال .

واستقبلني المحافظ في سيارة كاديلاك باذخة . حتى الآن لم يكن لدى الموظفين (ولدى الوزراء في باريس) غير سيارات ستروين . وتحدثنا في تنظيم الخطاب الذي يجب ان القيه بعد ساعات . او بالأحرى سألته عن التنظيم والمكرونونات والوضع السياسي واجابني متحدث في التشريفات . اخبرني باني قد اجد في أثناء الخطاب «بعض المشاغبين» وان الأفضل الا التفت اليهم . وأنه سيقيم بعد الخطاب احتفالا كبيرا : كل المستعمرة مدعوة الى دار المحافظة . ثم قال : « يهمني جدا ياسيدي الوزير ان توافق على استقبال السلطات الدينية . قبل الجميع . فقد اعددت حفلة كوكتيل صغيرة في قاعة منعزلة . الأسقف ، للأسف ! لايزال في فرنسا ، وكبير القساوسة البروتستانت وهو من موظفي الادارة ، يقوم بمهمة في مدينة « سان لوران دي ماروني » ، وهذا أقل اهمية بلا شك . على اننا سنستقبل مختلف رجال الدين ، وسيحضر رئيس المحفل الماسوني ، بل انني قد وجهت الدعوة الى الحاخام أيضا : » ثم كانت هناك مشاكل خطيرة تتعلق باليوفيه . استمعت اليها منذهلا وساهيا اتطلع بين الحقول الى المنازل الجميلة التي كنت أود ان توجد في الأنتيل ، والعشش القديمة وقد تساقطت انقاضا . ورأيت كشك موسيقى ومحلا يحمل هذه اللافتة : « بقالة وشراء ذهب » . والشوارع المستقيمة تمتلىء بأنغام الجاز وبالسكارى . وعبرنا ميدان « فليكس ايبوى » ، وفيه التمثال الحقيقي الوحيد لمدينة كايين ، وفيه ستلقى الخطابات . واشجار نخيله قد زرعها الآباء اليسوعيون من مائتي عام ، وهي من أجمل النخيل في العالم . ليس ميدانا كما نتصور الميادين ، فلا تكاد تميز المنازل التي تحده ولكنه رواق عملاق ، عمدانه من النخيل الملكي ، في بلاد تحني رياحها أشجار جوز الهند الشعثاء . والشالات ومناديل المدارس من كل الألوان ، مثلها في المارتينيك ، تتراقص في الأصيل .

وتقع المحافظة في ميدان آخر وتشبه ان تكون ديرا استبدلت ابوابه بمصاريع نوافذ تروح وتجيء . وقد طلب زعماء المعارضة مقابلتي . وأبلغتهم أني مستعد للقائهم قبل الخطاب ساعة حضورهم الى المحافظة . وامتعض المحافظ لذلك ، ولابد انه كان يعد لحفلة كوكتيل اخرى لغير رجال الدين .

وكان الوقت كافيا منذ أن تركنا المطار ، ليستعلم المعاونون الذين اصطحبتهم معي ويعلموني أن ليس بين المعارضين من يعتد به الا زعيم واحد : خلاسي يدعى كاتايه ، سيرشح نفسه في الانتخابات القادمة ، وهو خطيب هستيري قدير — ومن « زملاء التحرير » .

ولم يكن يتوقع أن يراني على انفراد ولا أن يسمعني اقول : « يا زميلي العزيز » ، كما تقضي العادة · كان يرى في المحافظة معقل العدو ، ويرى في المحافظ « وجه الشر » · ولم يكن لذلك من السذج ، بل هو بالأحرى متـاهب لأن يهجم او لأن يفلت ، تبي مطــارد ، مثلما يظهر في بداية الثورات : لومومبا ـ ولكن في ذلك الوقت لم يكن الحديث بعد شائعا عن لومومبا ·

ـ لقد انشأت عيادة للفتيات الحوامل ، اليس كذلك ؟

ـ كلهن فتيات حوامل ! أنا اعالج أسوأ الحالات ·

ـ هل كنت طبيبا ؟

ـ لا ، بل كنت مريضا ·

ـ ولكنهم سيتمكنون في النهاية من اغلاق عيادتي !

ـ لا أعتقد ·

ـ سيقولون ان الأطبــاء الذين يعملون عنـدي ليسوا جميعا من الأطباء ··· وسيخترعون الحكايات عن حالات الاجهاض ··· وفي بعض الأحيان لن يحتاجوا الى اختراعها ··· فالحال هنا كما تظن !

ـ اعتقد أنهم لن يغلقوا عيادتك !

ـ أنت لا تعرفهم !

ـ سوف اعرفهم · ولكن المستشفى لن يغلق ·

ـ هل تعتقد ، انت ، أن شارل العظيم يعلم بالذي يحدث هنا ؟

ـ سيعلم على الأقل ما قلته لي · بل أنا استمع اليك لهذا السبب ·

نظر الي ثم نهض وبدأ يسير وقد عقد يديه خلف ظهره :

ـ طلبت لقاءك لانني كنت اعتقد انك لن تستقبلني · ولكنني الآن أتساءل اذا كنت تعرف مثل هذه « الادارة » · لا في تفاصيلها بالطبع ···

ـ اعمل على تغييرها !

ـ بمـاذا ؟

ـ يقال انك تريد ترشيح نفسك للانتخابات القادمة · في مثل هذه البلد يمكن للنائب أن يفعل الكثير ·

ـ أنت الذي تنصحني بالترشيح ؟

ـ اما انك ترى وجود امة غيانية ينبغي لها أن تتطور بمفردها ·

وفى هذه الحالة يجب ان يكون التصويت « بلا » ، وانا اعتقد انها لن تظل بمفردها طويلا دون ان تقع فى بؤس شنيع ؛ ولكن اطمئن ، فهى لن تظل بمفردها : ستجد الهواة · واما انك ترى بان غيانا ارض فرنسية مثل الأنتيل وانها ستنمو وتتطور بمساعدة فرنسا · وفى هذه الحالة يجب التصويت بنعم ، والعمل من الداخل · سيزير ليس من رجال الحكومة ...

كان مضطربا ، لا بفعل الحجج التى اسوقها ، ولكن للمشاعر التى تثيرها فى نفسه ·

ـ اى انك تريدنى ان ارفع لافتات مكتوب عليها : فرنسا نعم والمحافظ لا ؟

ـ انا لا اعرف محافظكم ، ولكن هذا لا يمكن ان يوافق تفكير ٤٠٪ من الفرنسيين ... واقرب الى الرشد من : « تسقط فرنسا » والتوقيع : « زميل فى التحرير ... » ·

ـ لماذا ؟

ـ لأن اللافتة الأولى تعبر عن تفكيرك حقيقة · واما الثانية ، فلا ·

وكان الحاجب قد اطل من فرجة الباب مرتين او ثلاثا · فنهض كاتاييه ومد يده مصافحا وهو يقول :

ـ يجب ان افكر · وعلى كل حال هذه اول مرة يجرى الحديث معى كما يجرى فى فرنسا ·

وذهب · لم تكن الأمية ولا البروليتاريا من مفردات قاموسه · ولكنه ، ايا كان انتماؤه ، اخ من بعيد لرجال الكومونة · وجاءنى تريبو ، بين لقاءين ليخبرنى ان الحال تنذر بالسوء · واستقبلت بعد ذلك عددا من الامعات · وذهبنا الى ميدان فليكس ايبوى ·

وبعد دقائق وصلنا الى المنصات التى ارتفعت فى الجهة الجنوبية من الميدان · وفى طريقنا اليها ابتسمت لنا فتيات يلبسن مناديل المدارس والفساتين الزاهية · وكنت فى الأنتيل قد سمعت عند حضورى بعض الهتافات المتناثرة بحياة ديجول ، واما هنا فلم يقابلنى غير الصمت · وكان شيئا يشبه الحلم ان تدلج موتوسيكلاتنا وسياراتنا المستطيلة بدون ان تحدث صوتا ، وسط جموع متعددة الألوان تنغلق وراءنا فى الليل ·

والمنصة تتألف من مدرجات اصطف عليها الأعيان واحاطت بمنبر

للخطابة . واقيمت خلفها الكشافات الموجهة نحو الجمهور تضيئه الى بعد خمسين مترا ثم يغيب بعد ذلك كما غاب منذ لحظات وراء فوانيس سياراتنا . وافترضت أن هناك كشافات فى الاتجاه المعاكس لتضيئنا وقام بعضهم وقدمني وسط همهمة لا تلتفت اليه . وطالعت هنا وهناك شعارات تقول : عاشت فرنسا فوق لافتات ضيقة تحملها الفتيات الصغيرات اللاتى قدمن الى باقات الزهور فى المطار . وهذا الديكور الذى يشبه ما يقيمه أصحاب العمل ، كان لا يتفق مع القلق والتوتر الذى يسود الجموع .

وصعدت الى المنبر .

عرضت نفس الحجج التى عرضتها فى الأنتيل . وعندما انتهت الفقرة الأولى من خطابى ، صفقت بعض الجماعات الصغيرة ، وتاه تصفيقها فى السكون الهائل . واعتقدت أنهم منظمون . فقد كان منهم من يقف فى الظلام ، ولكن بعضهم أيضا يقف فى الضوء . وقد ازدادوا كثافة فى الفقرة التالية ولكنهم لا يزالون تائهين فى الخضم الذى لم يعد صامتا ولكنه الآن يثرثر : مكبرات الصوت لا تعمل ، باستثناء بعض المكبرات التى يحاول أن يجتمع تحتها بضع مئات من الأشخاص ـ تائهين بين العشرة آلاف . وبدأت أصيح فى بطء شديد كما كنت أفعل قبل زمن الميكروفونات ، ولكننى كنت واقفا فوق الجموع ، ولا يمكن لأى خطاب أن يسمع على بعد ثلاثمائة متر . وعندئذ طلعت فى الضوء الساطع وفوق الرءوس وفوق شعارات « النعم » لافتات تقول : « لا » ، وعلى مهل نشروا فى الجو شريطين ، طول الواحد عشرون مترا ، وتمسك الصوارى باطرافها وسرى الخوف بين الجموع وهى تقرأ : « تسقط الفاشية » .

ثم « يسقط ديجول » ..

ثم « تسقط فرنسا » ..

ما زال فى حنجرتى ما يكفى من صوت لأصرخ :

ـ اذا كنتم تريدون الاستقلال .. خذوه يوم ٢٨ ! ومن الذى ، قبل ديجول ، منحكم الحق فى أخذه ؟!

سمعت تصفيقا يتجاوب مع صوتى ، ورأيت الجموع تتأخر عن حاملى الصوارى . واحسست بهرج فى الصفوف الخلفية . وبعيدا ، على اليمين ، تعالت الصيحات : بعض المتظاهرين يحاولون أن يشقوا النظام ويقتحموا المنصات . ثم سمعت صيحات قريبة جدا وانفض الجميع من حول المنبر

وصفرت في أذني اليسرى كتلة لامعة ، ارتطمت في ظهر المنصــة بعنف وسقطت عند قدمي • وانحنيت لالتقطها وفي الحال رفعتها فوق رأسي وأنا اواصل خطابي • كانت نوعا من السلاح لم اره من قبل أبدا : قطعة من الخشب طولها اربعون سنتيمترا بمسمار ضخم قد زرع فيها عموديا • ووصلتني خشبات أخرى • وكان من السهل على الرماة اذا اقتربوا ان يصيبوني اكيدا • واخذت اتفحص نظام الأمن وأنا اتابع خطابي بين الرماة وبيني تقف الفتيات اللواتي حملن الى الزهور ؛ وعلى اليمين فتيان الكشافة، الذين اخذوا في الاقتراب ، ومن ورائهم اذرع تلوح وهي مترددة ، كأنها تخشى الضوء • لم يتحرك حاملو اللافتات • والرماة لم يتحركوا • فهم قلة ولا شــك • اقترب مني احد معاوني ليقول : « المحــافظ ينصحكم بالانسحاب • ـ لا يا شيخ ! » • ووصلتني مسامير اخرى • في الجلبة التي حلت الآن محل الصمت ، لم يكن احد يسمعني • ان الجموع لم تعد تصغي ولكنها تنظر وتتطلع • قال معاوني : « ان كاتاييه يمتلك مكبرا عظيما ، ويقترح ان يحضره لك • ـ لا ••• » لم يكن المكبر ليغير شيئا : التجهيز الصوتي كله كان هزيلا • ان جزءا من سيل المهاجمين الذي يتقدم ويتأخر عند حافة الضوء ، ولكنه يوشك أن يتدفق ، يتكون بلا شك من رجال كاتاييه : لم يتسع له الوقت ليلغي أوامره • ولن اضع نفسي تحت حمايته• الكتلة التي تلوح بأذرعها تنفذ الى الضــوء شيئا فشيئا ، بينما ظل الذين يحملون لافتات « تسقط فرنسا » بلا حراك ، مثل الدعايات اللامبالية التي تطل فوق المباريات في الاستاد • ولم تكن كتلة الكفاح الســياسي والمناضلين كتفا الى كتف ولكنها كتلة العربدة القاتلة • وتذكرت أول رواية قراتها : « جورج » لاسكندر ديماس • العبيد الثائرون في جزيرة « ايل دي فرانس » يهاجمون الفرق الملكية ، فيأتي المزارعون الى رأس الشارع ويدحرجون نحوهم براميل العرقي وتنتهي القصة بمهرجان ومذبحة • وحلت صيحات الغضب محل الشعارات • في الجو «فيديه» أخرى يعد لها ، ولكن ضحيتها لن تكون « الكرنفال » • رايت رجلا أسود يمسك بفتــاة صغيرة كانت تحمل بشجاعة لافتة « تحيا فرنسا » ، ويرفعها من خصرها ليطيح بها في الظلام وراءه . ويفعل نفس الشيء بثلاث أخريات . وعندئذ دخل الى منطقة الضوء موكب زائغ النظرات ، مترددا مبهورا • يحمل أمامه جريحا مدمى ، تتدلى ذراعاه وساقاه من النطاء الذي حمل عليه • وخلفه مائة في سورة الغضب ينتفضون بنشوة الهياج والدم مسلحين بالأخشاب ذات المســامير • واتجهوا نحوي وأنا لا ازال أواصل خطابي ، ثم انحرفوا نحو المنصة التي كانت تغص بالسيدات . كانما يريدون أن يقدموا هذا

الجســد اللاهث للاسترحام • وارتد زحفهم فجأة • وتركوا الجســد وهم ينكمنون • أمام المنصة فرقة من مشاة البحرية ، جاءت بأمر من تريمو ، متجهة الينا بالخطوة السريعة ، وبنادقها الى الأرض •

وقع صمت خارق ، في وسط همهمة المثرثرين الذين لم يروا بعد شيئا • وامام المنصة اصطف البحارة بلا حراك ، كل واحد منهم على بعد مترين من أخيه (كنت أعلم أن تريمو لن يأمر باطلاق النار قبل أن يوجه الانذارات) ؛ رأيت كل النساء واقفات ؛ وفراغا كبيرا ينتفض فيه الجريح المهجور ؛ والمائة الغاضبون يتقهقرون خطوة خطوة مثل الوحش المكسور، الى حدود الظل حيث انفتحت الجموع امامهم • واللافتات التي تقول « تحيا فرنسا » ، فيما عدا الأربع فتيات ، والشريطان القائلان « يسقط ديجول » ، لم تتحرك من مكانها • وكان كل شيء قائم في الأبد ، والموكب يتراجع في الليــل •

وانتهيت من خطابي ، ولكني صعدت الى المنبر مرة أخرى لأصيح بصوت متهدج واعلن اني سأذهب في الغداة . لأحيي نصب الشهداء واني سوف اتحدث في فندق المدينة • وقدرت أن الذين سمعوني سيبلغون الآخرين . وكان نفير عربة الاسعاف يصاحب صوتي . والمرضــون يحملون النقالة ويتجهون الى الجريح . وكل البحارة قد لحقوا بزملائهم لحماية المنصات • وخفضت اللافتات وطويت الشرائط • وذابت الجموع وهامات النخلات الملكية تصعد نحو الســماء المرصــعة بالنجوم ، مثــل عمدان بعلبك .

وفي المحــافظة ، كان رجال الدين ، من ذوي الرتب الصــغيرة ، في انتظارنا . خــسارة أن الآخرين غائبــون ! وليــكن ، ســنعوضها في المرة القادمة يا سيدي المحافظ . وبدا لي انهم رجال طيبون . ولكن بدا لي أيضــا من الصعب أن اتحــدث في نفس الوقت الى المبشرين والى رئيــس المحفل • ولذلك لم اقل لهم شيئا ، ولكنني قلت لتريمو : « ارجوك أن تأخذ كل معاونيــنا معك ، باســتثناء واحد ، وأن تبدأ التحقيق فورا .
ـ لقــد استدعيت قائد الشرطة • هنــاك عدد من الجرحى • والأمر لم ينته بعد » .

على انه لم تكن تأتيــنا من النوافذ المفتوحة اية اصوات . والمحافظ يريد أن يشرح لي قواعد البروتوكول التي لا أفقه فيها شيئا • وحيث ان كايين اصغر بكثير من نيويورك ، كان يبدو لي من ابســط الأمور ان يقدم لي المدعوين الذين يرغب في أن اتحدث اليهم قليلا . كلا ! اضــطرت

زوجتى الى الجلوس فى فوتيل واسـع ، وانا والمحافظ واقفان الى جانبها ، واحـد الحجاب يعلن بامتياز رفيع « الكابيتان دوران ، ومدام دوران ، السيد ديبون ، مستشار البلدية ، ومدام ديبون » .

ـ اين وجدت هذا المنادى ؟

ـ اوه يا سيدى الوزير ، فى الليمـان بالطبع : كان من المنفيين . وعلى كل ، فهو رجل عاطفى بسيط ..

قيل لى بعد ساعة من هذا الحديث ، انه ذبح زوجته . ولكنـه : كما قال المحافظ ، صاحب اسلوب ! وكان يواصل التقديم :

« السـيد مسجل المحكمة ، ومدام ماسون ، السيد النائب ! »

قال « السـيد النائب ! » بنبرة مختلفة ، لم ادر منها هل يريد أن يحيى النيابة أو العزوبة . واسفت بدورى على غياب الأسقف ـ من اجل التقديم ..

ـ « السيد مدير الـ ا . ف . أ . ت ! »

من هذا ؟ تقول النبرة انه مدير صغير

ـ « السـيد السكرتير العام لمؤسـسة ب.ا.ف.و.ج ! »

« السيد وكيل سان لوران دى مارونى » .

لقب مجيد ، بموجب الاعلان . هذا « العاطفى البسيط » يروق لى اكثر فاكثر . ربما اكتسب اسلوبه ، لا من انه كان يطيع الاوامر ، ولكن من انه كان يصدرها . أمير روسى سابق ، سفاح الى حد ما ؟ . تذكرت اننى كنت أكتب روايات ! ماذا لو طلبت من المحـافظ أن يدعو غدا على الغداء عشرة من المنفيين ؟ قيل لى ان واحدا منهم اخصائى مرموق فى الفراشات . . وفجاة ادركت ما غاب عن ذهنى مدة بسبب الفوتيل ، لأن زوجة رئيس الجمهورية لا تجلس بالطبع عندما يقدم اليها مدعووها : لقد كنا نحاكى مثل القرود حفلات الاستقبال فى قصر الاليزيه .. ويجرى ذلك بين الصيحات التى عادت من جديد ، والجرحى ، و « العـاطفى البسيط » ، الذى انوى ان ارسل اليك اعمال بروست ـ وغيانا التى ضاعت منا بلا شك .

ونصب معين مجتمع كابين . وانتقلنا اخيرا الى البوفيه الذى قدمت عليه ماكولات باردة ، واجتمع حوله اناس اسالهم عن غيـانا فيجيبونى

بما يجب ان يفعله الجنرال ديجول . اولا ، هل راح افواج الدرفيل . وهل يظن انها جنيات العصور القديمة ؟ وهناك جواهرى فى الشارع الرئيسى يبيع صفائح معدنية يمكن أن « تصنع منها عقود جميلة جدا » هناك ضجيج ما زال يأتى من النوافذ المفتوحة ولكننى لا اسمع اية طلقات . حضر المعاون الذى بقى معى وقال « لقد حدثت مشاجرات كثيرة ، ويرى تريمو اننا يجب ان نتصرف فى هذه الليلة . ـ تعال معه الى غرفتى » . صافحت بعض الايدى واستأذنت من المحافظ وذهبت الى غرفتى فوجدت المعاونين هناك .

قال تريمو :

ـ الشرطة جادة لحسن الحظ . ومدير الامن مصمم على مساعدتنا وعلينا ان نحميه . نحن فى مكان يشبه ان يكون «كلوش ميرل» وان يكون فيلما من افلام الجانجستر فى نفس الوقت . والمحافظ رجل راديكالى من العينة التى لم يعد لها وجود فى فرنسا ..

ـ تصدر الى الخارج !

ـ من رأيه ان الاهالى سيصوتون ضدنا بنسبة ٩٠٪ وان ما نفعله لا يعدو أن يكون استفزازا . ولديه ، رغم ذلك ، مرشح من رجاله للانتخابات القادمة . وعلاقاته أسوأ ما تكون مع النائب ، الديجولى الى حد ما . ويوشك ان يتقاتل بالسكاكين مع كاتايه الذى يرمى بالجنون ، ولكنه موجود بالتأكيد . المحافظ اذن لم يقم بتنظيم اية حماية . ا لأنه أكد لباريس ان غيابنا مفقودة ؟ ام ليقيم الدليل على أن النائب ليس فى استطاعته أن يفعل شيئا ؟ أم ليحصل على الاذن باجراءات يتخذها ضد كاتايه ؟ ام بسبب الغباء المحض ؟ احضر الكشافة والفتيات الصغيرات للاستقبال فى المطار . واستأجر السيارة الامريكية من اجلك .

ـ « قل ما تريد أن تقوله بالورود ! » .

ـ واعتقد الآخرون أنهم لن يواجهوا بشىء . فلم يكن رماة البحرية فى البرنامج . وقد ساروا كأنهم رجل واحد : اثار سخطهم الاعتداء على الفتيات الصغيرات . وقد تطلب الامر أن اذهب بنفسى لاستدعائهم ، فلم تكن السلطات المحلية لتحرك ساكنا . والذين رفعوا الشرائط من رجال كاتايه ، وهو الآن يلقى بنفسه بين احضانى .

« كان لا يدرى أن التجهيزات الصوتية لن تعمل . كان على المحافظ أن يجرى تجربة فى الصباح ، وان يتخذ الاجراءات اللازمة ، وقد أراد كاتايه أن يبرهن على عجز المحافظ . أما التصويت مع فرنسا ،

فهو يؤجل التفكير فيه . ويضايقه ذلك على الارجح .

ـ هذا اعتقادى أيضا .

ـ لو كان التجهيز الصوتى سليما، لرقصوا لك وأنشدوا المارسيليز بحماسة فى الختام . وهنا تتعقد الأمور :

« الذين يحملون الشرائط كانوا من رجال كاتابيه ، ثم من أشباه الشيوعيين ، الخ . . ولكن رماة المسامير ليسوا منهم » .

ـ هل تعرف هذا النوع من السلاح ؟

ـ لم أره من قبل . ولكن الأمر كان خطيرا . فقبل الخطاب حمل البعض براميل الروم ووضعوها فى الأماكن التى وقف فيها متظاهرون معروفون بميلهم للعنف . ثم خرقوا البراميل وذهبوا .

ـ من هم : هؤلاء البعض ؟

ـ لا ادرى . ولن ادرى الا غدا . ولكن الأمر لا يتعلق بالسياسة وان كان عدد الجرحى غير قليل . قال لى رجال الشرطة ان الشيوعيين بعثوا برجال من غيانا البريطانية ، والانجليز يغمضون أعينهم . وقد ألقيت القبض على بعضهم وهو امر مشروع لأنهم دخلوا البلاد خلسة ، وسهل لأنهم فى حالة قصوى من السكر . وليسوا باكثر شيوعية من كاتابيه ، ولا دخل للانجليز فى هذه الحكاية . انهم من المهربين المعروفين : لقد وقعنا اذن فى « كلوش ميرل » يضاف اليها منافسة بين عصابات اللصوص مرتبطة ولا شك بالمنافسات السياسية . اما عن الشوشرة ، فيكفى أن اقول لك الآتى : ان المنشورات التى تهاجم فرنسا قد طبعت فى مطبعة المحافظة ، ان الفتاة الأولى التى أطيح بها فى الهواء ابنة الناظر ، والمتهم واحد من المدرسين .

ـ هل عندك تاكيد بان المنشورات قد طبعت فى مطبعة المحافظة ؟

ـ تاكيد مطلق .

ـ من حقى أن أحل محل المحافظ مؤقتا ، أليس كذلك ؟

ـ بل انه يتوقع ذلك . أنت تمثل الحكومة .

ـ بعد مغادرتى ، تامره بان يتوقف عن العمل ، حتى يبت فى ذلك وزير الداخلية . سأكون فى باريس بعد غد فى الصباح . وأنت تحل محله هذه الليلة . كم من « الشاغبين » تريد أن تلقى عليهم القبض .

ـ لقد تم القبض عليهم ، باستثناء اثنين او ثلاثة .

ـ حسنا . يحجزون لأقصر وقت ممكن ، ماعدا الأغبياء الخطرين مثل المدرس . يجب فقط ان يدرك الناس ان المزاح قد انتهى . أما عن السكر ، فان موردى البراميل اهم عندنا من الشاريين . ما هى الحالة النفسية فى المدينة ؟

ـ السخط على الجميع . لقد جاء الناس ليصغوا الى ما تقول ، وقد منعوا من سماعك .

ـ انتهى مجدى عند أبواب كايين ! ..

ـ كلا ، لأنك صاحب القول المحفور على تمثال ايبوى .

ـ لا يضيع المعروف ابدا . اذن فالمحافظ لا يجرى له ذكر حتى يتم الاستفتاء . فلياخذ اجازة . من الذى يحل محله ، حتى يصل من يخلفه ؟ ستدبر الامور ، المدة اللازمة ، بالطبع . اى رجل هو السكرتير العام ؟

ـ كفء . هو ابن اندرى فيليب .

ـ فليكن . ولكن يجب أن نطلب موافقته ، لأنه مقبل على المخاطرة بحياته . سيصاحبنى الى نصب الشهداء والى فندق المدينة .

ـ فى حالة الرفض ، ساعمل محافظا .

ـ شكرا . ولكن السلطة المحلية افضل ، كما تعلم .

« اما ان يأتيهم الليل بالنصيحة ، فلا يحاوَلون بالنهار ما حاولوه بالليل ، وتهدأ الفتنة اذا اتخذنا الاجراءات اللازمة :

انت تعرف كل ذلك خيرا منى ...

« واما ان الأمر جاد ـ وهذا مالا اعتقد ـ فلا حماية ممكنة اثناء نشيد المارسيليز امام نصب الشهداء . طابت متابعة التحقيق او طاب ليلك » .

وعادوا الى العمل . وكانت نافذتى مفتوحة وسريرى تغطيه ناموسية مكعبة . وجموع لا تزال غفيرة ، تمر دون ان تحدث صوتا ، وكان الرجال السود بكم . وضجات متناثرة تزيد ندرة وبعدا وتضيع فى صخب انغام الجاز . وفيما وراء المنازل ، تصعد النخلات الملكية التى اظلت المبشرين

والليمانية ، في سماء اسفه ليلة عشتها فى حيــاتي • وعلى بعد عشرين كيلومترا تبدا الغابة ، كانها عنصر بذاته ، حية مثـل الجبـال او مثـل المحيط ، وتمتد بيبغاواتها المنكوسة الأوضاع وبانهارها المليئة باســماك تاكل اللحوم ، حتى أقدام الهضبات العليا • قال لى الرئيس كوبيتشيك ، فى برازيليا : « وعندئذ شرعنا طريقين كبيرين يشقان الغــابة : فوقعنــا احيانا على أعشاش من البشر لم يتغيروا فى شيء منذ العصر الحجرى . » وعلى مقربة منى نهر المارونى وميدان فليكـى ايبوى الجميل الذى كان ميدان النخيل وكانت العناكب البشعة تأتيه لتلدغ المنفيين النائمين تحت ظلاله لدغة الموت .

وفى انتظار أن يغلبنى النعاس ، تناولت «البوم» الصور الموضوع على مائدة الـسرير . وفى اولى صفحاته طالعت مدخل الليمان . كنت اتخيل منظره مثل قضبان الباستيل فوجدت بدلا من ذلك زخارف بالارابـــك مثل بيـوت موثقى العقود عندنا ، يعلوها فانوس تتدحرج منـه اوراق شجرة الجهنمية . ثم رايت الكنيســة المهجورة والأعشاب البرية والأشواك قد نبتت تحت التصاوير التى نقشها المحكوم عليهم فوق الجـدران ، ورايت « رسل » الكنيسة يلبسون زى الليمانية . والزنازين والحشرات تجرى بين الكتابات المحفورة على جدرانها ، والســلاسل التى تقيـد الاقدام ، والثقوب التى كانت تمر منها الســيور التى تربط اجــسام المسجونين . و « سكة حديد » الادغال ، يجرها بعض الرجال : ومقابر (الحراس) غريبة فى هـذا الجحيم الذى يعم ، وفى قلب هـذه الفزارة الشوكية ، ميدان مستدق الصغر ، مبلط لا ينبت فيه النبـات ولـكن تحيطه أزهار الجهنمية البنفسجية مثل مدخل الليمان : ميدان المقصلة .

وارتفعت من جاراج المحافظة القريب انات الناى الهنــدى : العالم الآخر . الليمان قد اختفى كما اختفى هياج النصف تمرد الذى تذكرنى به قطعة من الخشب تنشز منها المسامير موضوعة فوق المائدة . بقى التحنان العلوى ، والنزهة الليلية الصامتة فى الميدان ، وذهاب آخر المدعوين من الحفلة التى تشبه حكاية من حكايات هوفمان يودعهم المنادى السفاح الوجيه ...

●

وبدا الصباح بداية طيبة • الزى الرسمى ضرورى للمحافظ فى كايين . ولم يكن تحت يدنا الا زى المحافظ المعزول ، والسكرتير العام اطول منه بعشرين سنتيمترا • وبدت «الكاسكتة» ذات الخيوط الذهبية فوق هامة راســه وكانها عش غراب صغير ، فقرر أن يمسكها بيده •

ولكنه لا يستطيع ان يمسك بالمثل بنطلونه الذى كان لا يصل الى حذائه الا بفضل حمالات مطوطة بشكل غريب . وبقيت السترة ولابد من ارتدائها بسبب الشرائط والأوسمة . ويمكن ان تفتح ياقتها ، بدعوى الوقاية من الحر ، اما الأكمام فينقصها عشرة سنتيمترات على اقل تقدير كأنه بحار بشراشيب فى الرسوم المتحركة ، اكثر منه موظف كبير للجمهورية . شارلى شابلن محافظ . والسكرتير العام قد اخذ دوره فى هذا الفيلم بروح طيبة . وذهبنا الى نصب الشهداء . وكانت السيارة الجميلة قد اختفت .

وما ان خرجنا حتى شعرت الى اى مدى كانت مغامرة الامس مرتبطة بالليل . ورايت الناس ينظرون الينا بتعاطف ، كانوا من صغار البرجوازيين ، لا من رماة السامير . يقوم نصب الشهداء فوق ميدان ضيق : فلايمكن ان توجه الى الرماية الا من مسافة عشرة امتار على الاكثر ، بطريقة مرئية . والحاضرون قد وقفوا حذرين وتناثروا فى المكان . وبينما كان جرس الموتى يدق ، وقعت عيناى على ظل قصير الاكمام يمتد الى جانب ظلى ، أمام التمثال ..

●

وبعد ان انتهت المراسيم ، ذهبنا الى فندق المدينة . هناك كانت الجموع تملأ الشارع ، وقد تم تركيب المكبرات فى اماكنها . والمجلس البلدى بكامل هيئته يقدم لى نخب التكريم . والقى العمدة خطابا حارا ، وصاح هاتفا فى ختامه : « تحيا فرنسا ! » وخطبت من الشرفة (وكان صوتى مسموعا فى هذه المرة) وفقا لتقاليد ١٨٤٨ . واعدت المواضيع التى تناولتها بالأمس ، يقاطعنى التصفيق كل حين ـ كان اهالى النهار يريدون ان يستنكروا مظاهرة الليل . وقصصت عليهم ، دون ان أرفع صوتى : الحديث الذى دار بينى وبين الجنرال ديجول : « قال لى من اجلكم انتم : « يجب الذهاب الى غيانا لأن فرنسا يجب أن تعمل على مساعدة غيانا » وقال لى ، من اجلى أنا : « يجب الذهاب اليها ، لأن القلب ينفطر » . امتلأت أرجاء الشارع بالموافقة ، مثل تهليل المارتينيك. ونزل العمدة معى وتأبط ذراعى وذهبنا الى المحافظة . يتبعنا المحافظ الجديد وكاتابيه . وتكونت « الفيديه » خلفنا ، مثلما تكونت من قبل فى فوردى فرانس ، آلاف من الرجال ، وبضع نساء ، قد تشابكت أذرعهن ، وراحوا يرتجلون رقصات هائلة . وعندما وصلنا ، ظل الهتاف بنعم

يطرق ابواب المحافظة لبضع دقائق . واستعاد السكرتير العام ملابسه .

وصاحبنا الى المطار فى ثيابه المدنية · لا فتيات ولا عربة ازهار على هيئة قوس النصر ، ولا حتى على هيئة مقبض السلة . « وداعا يامناديل، وداعا يا وشاحات . . » بعض اشجار جوز الهند ، وطيور كئيبة ، والتراب الذى يدوم حول هذه المحطة التى يعجب المرء كيف لها ان تنتظر الطائرات . . .

وعند وقوفنا بالمارتينيك ، كان أصدقاؤنا الذين وصلتهم أخبار الليل ولم تصلهم اخبار الصباح ، ينتظروننا بقلق باد . لا داعى للقلق ، لقد صوتت غيانا وصوتت الأنتيل «نعم» بنسبة ٨٠٪ ، واصبح كاتايه نائبا ، واصبح المحافظ سكرتيرا عاما . ولم يتح لى أن أرى بائع الصفائح المعدنية ، ولا حتى الشارع الذى يقوم فيه دكانه . اتراه القال الذى قرأت لافتته ؟

- ٥ -

١٩٦٥/١٩٥٨

ومن بعد هذه الصورة وكل ما تحفل به من المناظر والألوان ، كلفني الجنرال ديجول بالذهاب الى بعض الدول الأسيوية التى تراخت علاقاتها بفرنسا ، لاقابل قادتها ، مبتدئا بنهرو .

وكنت مطلعا على أوضاع الهند ، فقد التقيت حديثا بجايابركاش نارايان الزعيم الاشتراكي لمدينة بومباى . كما ان صديقى الكاتب راجاراو ، خير من يعرف فرنسا من الهنود ، قد مر بباريس أخيرا . وكان سفيرنا أقل تشاؤما من حكام المحافظات فى جزر الأنتيل .

كان ينتظرونى فى المطار ، الساعة الثانية صباحا ، ومعه وكيلة الخارجية وقد وقفت بالسارى الأبيض فى ضوء الفنارات . اسمها لاكشيمى . يمكن لوكيلة وزارة فى دولة غربية ان تدعى ماريه باسم العذراء . ولكن ربات الديانات الأخرى أدعى الى سرحات الخيال . والكونت أوستروج ، سليل الغزاة المغول ، وابن بير لوثى سرا فيما تدعيه شائعات « الكى دورسيه » ، كان رجلا جديرا بالمعنى الذى توحى به الى الشعراء كلمة سفير فى الهند . وكان هناك كاميرا خيالية تلتقط انامله المعقدة المرهفة التى تعمل فى رسم صورة للهند من نبع العاطفة والهوى، لم تصمد الكاميرا لتجلو محيا قرصان وجيه . هذا سليل الحاكمين على البرارى ، نبيل اسبانى ، كاردينال رومانى ، مثال الفرنسى سفير البحر الأبيض وحضارته الألفية لدى بلاد كانها اليوم فى شرخ الشباب ــ فى مثل هذا تهيم الأذهان ، عندما تعلم ما الهند وما عراقتها . وفى مأدبة عشاء أقيمت فى الكابيتول ، ــ هكذا كانوا يسمون حينئذ قصر نواب الملوك الذى اصبح قصر الحكومة ــ رحت اتأمل يدى أوستروج ، اثناء خطاب يلقيه

رئيس وزراء وقور ، فتهيأ لى أنهما تداعبان القـــدم الايطالية الشـــهيرة وكأنهما ساقا راقصة ٠٠٠

وصلنا الى الكابيتول (كنت ضيفا على الهند) فلم أر منه فى الليل الا كتلته المظلمة ، واروقة القصر ، وصورة كبيرة لغاندى بالازار ، ورئيس التشريفات فى الجناح المخصص لى ؛ يحيطه خدم من أيام نواب الملوك : لكل باب خادم يفتحه ٠ وبعد أن انصرف وصفاء على بابا هؤلاء ، أخذنا فى ترتيب شـــئون مهمتى . وكان مقررا ان يـــستقبلنى وزير الثقـــافة فى الـــساعة الثامنة .

وقبل أن أصحو من نومى ، كانت الجرائد قد احضرت . لقـــد بدأ الأسبوع الأفرو اسيوى ! ٠٠٠ وكان ترحيب الوزراء كما هو دائما يجرى بلطف وحذر ٠ كانوا ينتظرون محادثاتى مع نهرو ٠

هأنذا اخيرا قد رايت الكابيتول وقدر لى ان اشاهد دلهى الجديدة. ولم أكن قد احتفظت منها باية ذكرى ، فى عام ١٩٢٩ كانت الهند تهمنى اكثر من انجلترا ٠ ولكن ذهاب انجلترا يهب الآن روحا لهذا المعمار الذى كان خاليا من الروح . لقد نسبت الى غاندى كما نسبت الى كليمنصو جملة تقول : «سيكون خرابا جميلا» . ولكنه لم يتحول الى خراب ولا الى قصر تم الاستيلاء عليه مثل الكرملين . فنيودلهى ليست مدينة ولكنها « عاصمة ادارية » . غير أن منـــاظرها الشـــاســـعة ذات الحجر الاحمر ، وحرسها من الســـيخ يحيون بالسلاح فى عزلة الوحدة ، لا تطل على مقرات الادارة ولو كان منها البرلمان ، وانما تطل على الامبراطورية الزائلة .

قصور ووزارات وبوابات . ان الامبراطورية البريطانية كلها تحمل طابع العظمة الانجليزية .ثم النبرة التى يضفيها الفن القوطى الفكتورى على نهر التاميز . وهنا ، مثل ممر خيـــبر ، كانت العظمة رومانية ، حلم قيصر فى الاسكندرية ، كتلة عظيمة من الحجارة نسقت على منوال المسرح الهيلنيستى الفسيح ٠ يخالطه حلم آخر يريد أن يقوم قران بين انجلترا والهند ينافس قران الهند والاسلام . من الواضح تماما أن الكابيتول كان يريد أن ينافس مسجد دلهى الكبير ، وهو من أكبر مـــساجد العالم الاسلامى ، ويريد أن ينافس فاتبور سكرى ، والقلاع الحمراء والمعمار المغولى كله الذى كان بمثابة أمريكا لفارس . الاسلام لم يزل قائما هناك. وانجلترا ؟ هل هى موجودة اكثر مما يبـــدو ؟ لم يكن وجودها هو الذى يبث الحياة فى هذه الطرق الامبراطورية المرصوفة بالحجر الرملى الاحمر، والتى أصل منها الى البرلمان ، ولكنه التصميم الذى تخلت به عن هـــذه

الطرق وفى هذه البلاد التى شيدت كثيرا من القبور الشهيرة ، أرى ان العمل المعمارى الوحيد الذى ينافس أعمال خلفاء الاسكندر . قد أصبح رائما على الرغم من قصور هندسته ، منذ ان اصبح قبرا للامبراطورية.

قمت بزيارة نهرو فى مكتبه بالبرلمان ، فكأننى انتقلت من عظمة الكابيتول الى دهاليز مبنى المحافظة وقاعات انتظار لأصحاب الالتماسات المتواضعة . ولكن الجدران ، كما هى فى الكابيتول ، مزدانة بكثير من صور غاندى .

وكان غاندى حينذاك موجودا فى الهند كلها ، بأعماله وبقدوته وبصوره . بينما أوروبا لم تعد ترى فيه غير محرر طاهر اليدين . وجه قديس والرونق الذى يصاحب معظم القديسين : وجه راهبة عاملة . مصرة ، ذات بسمة خالية من الاسنان ، ترتدى نسيجا شعبيا متواضعا كأنه كساء الحرية وزيها . لقد بدأت الهند ترى فيه آخر تناسخات فيشنو ، ولكن هناك جوانب كبيرة من سيرته ما زالت دقيقة الملامح فى اذهان الهنود : التبشير عام ١٩٢٠ تحت شجرة البانيان الوارفة . ثم الجموع على ضفاف السابرماتى ، ومذبحة أمريتسار ، وأصابع يده اليسرى قد ارتفعت وبانت للجموع كأنها واجبات الهند . والملابس الأوروبية والياقات والحمالات التى أصبحت حطبا غريبا تصاعدت منه النيران بعد ان طرحها الذين صمموا على الا يرتدوا بعد ذلك غير الخادى . وفوق هذا الحطب كانت تشتعل القبعات ــ والجثمان الذى اشعلت فيه النار وتليت فبالته آيات الباغافاد جيتا . والعصيان المدنى وعدم التعاون الذى بدأ يوم وفاة تيلاك . وبقيت فى الأذهان على الأخص ، صورة الزحف لاستخراج الملح .

وفى الثانى من مارس ١٩٣٠ ، قام غاندى باعلان نائب الملك بأن العصيان المدنى سوف يبدأ بعد تسعه ايام من هذا التاريخ . وفى الثانى عشر منه ، اتجه الى البحر يتبعه بعض تلاميذه . وأقام الفلاحون الزينات ونثروا سعف النخيل واغصان الشجر فوق الطريق وجثوا عند مرور الحجاج راكعين . وتنازل ثلاثمائة من شيوخ القرى عن مناصبهم . وأمام السبعين وقد أصبحوا آلافا مؤلفة ، التقط غاندى الملح الذى تخلف عن الأمواج بعد انسحابها خارقا بذلك قانون ضريبة الملح. ان حرارة المناطق المدارية تجعل من الملح شيئا لا غنى عنه لكل من يعمل من البشر والحيوان . ولكن الكل يعلمون أن غاندى الذى كان مريضا لم يستخدم

الملح منذ ست سنوات . بلمسة واحدة ، اهتزت الهند قاطبة .

وعلى طول الساحل ، جمع الصيادون الملح ولحق الفلاحون بهم . وبدأت الشرطة حملات اعتقال بالجملة . وكان المتطوعون لا يقاومون الاعتقال ولكنهم لا يسلمون الملح الذى فى حوزتهم . وفى بومباى تجمع ٦٠٠٠٠ نسمة امام دار المؤتمر ، وعلى سطح الدار كانوا ينقون الملح من رمله . وقد بيع الملح الذى جمعه غاندى بـ ١٦٠٠ روبية . وعندما حكم على نهرو بالسجن ستة أشهر ، اجابت الهند على الاعتقالات بتنظيم « الهارتل » . وفى باتنا ارتمت الجموع على الأرض امام خيالة الحكومه الذين وقفوا عن التقدم . وفى كراتشى تجمهر خمسون الف هندى للنظر الى الذين يجمعون الملح ولا يتمكن البوليس من القبض عليهم . ولكن سرعان ما وصل عدد المسجونين الى مائة الف . وفى الليلة من ٤ الى ٥ مايو القى القبض على غاندى فى احدى القرى ، وهو بين تلاميذه .

وفى داراسينا ، شمالى بومباى ، زحف الهنود على مصنع الملح الذى تملكه الحكومة ويحرسه اربعمائة شرطى . وراحوا يلقون مصرعهم تباعا كلما اقتربوا من المصنع ، وفى صمت كان آخرون يأخذون مكانهم ويسقطون بدورهم . واحضرت النقالات لتحمل اجسادهم الدامية . وبالقرب من المصنع الذى لم يتوقف ، فتح مستشفى مؤقت . وادركت الهند كلها رقها وعبوديتها . واضطر تشرشل بعدئذ ان يتحدث عن « هذا الفقير المتمرد ، النصف عريان فى قصر نائب الملك » . ذهب الآن نائب الملك ، واسطورة غاندى ، التى أصبحت فى الغرب أسطورة السلبية النبيلة ، بقيت هنا اسطورة للنضال . اسطورة تشهد لها اقواله . فعندما اعلن انه سيمتنع عن كل طعام ما لم يتم الاعتراف بحقوق « المنبوذين » ، لم يكن يخاطر « بالصوم » ولكن بالموت جوعا . عذاب فرضه على نفسه ليجابه اعظم تحريم تعتقد به الهند ، وكلاهما لا يجرى مع العقل . وتابعه الهنود كأنهم يتابعون عذاب صلب بطىء . وكان ٩٥٪ منهم لا يملكون الراديو ، ولكن كل واحد منهم يعرف أخبار غاندى ومتى يتهدده الموت . وكل واحد يعرف ان هدفه الأخير هو تطهير الهند ، وما الاستقلال الا النتيجة المثلى لهذا التطهير . لقد اراد لدعوته ان تمس اشد الناس انكارا ، حتى فى قوله . « لن يأتى «السواراج» من انتصار بعض البشر ، ولكن عندما يصبحون جميعا قادرين على مقاومة الظلم والصمود له » . وراحوا جميعا فى تلاوة الصلوات عندما علموا ان الخرطوشة قد سقطت من غطاء رأسه ، وان كل شىء قد انتهى برصاصة حمراء داكنة على رماده الأبيض . ولكن غاندى كان لا يزال حاضرا فى هذا

البرلمان كما هو حاضر فى الكابيتول وفينوبا بهاف الذى لم يرفع سلاحا غير الدعوة التى بشر بها . قد حصل على مليونى هكتار (ليست من أجود الأرض طبعا ...) للفلاحين . وفى عالم لم يغب عنه بعد ظل ستالين وظل هتلر ، كانت الهند تعرض على الدنيا تحررها من انجلترا دون أن تسقط ضحية واحدة من الانجليز . فكلمة الديمقراطية . على رغم البؤس ، تتخذ فيها معنى يكاد أن يكون دينيا . لقد اوضحت باندونج سلطان نهرو ـ كما اوضحه بالمثل ما اصاب النفوس من جراء سكوته عن تصرف الروس فى بودابست . ولكن سياسة الهند لم تكن ترسم فى الكونجرس أو فى البرلمان بأكثر مما كانت سياسة المانيا الهتلرية ترسم فى الرايخستاج : سياسة الهند هى وريث الرجل الطيب الصغير الذى اخترع أن يصطحب ملايين الهنود للبحث عن الملح فى المحيط الهندى ضد الضريبة الانجليزية ، ليجدوا هنالك الحرية . وفى المكتب الذى دخلته اولا ، رايت « الصحافة » وحوالى خمسين مصورا فى حالة هياج يقفون فى انتظار مجىء الحاجب ليطلبنى . ولكنهم نكصوا على اعقابهم فجأة : فقد انفتح الباب الآخر ، ولم يكن الحاجب الذى أطل منه ، ولكن نهرو .

كان يعلم أن صحافة دلهى تلومه على استقبالى . لاسباب قوية : منها الهند الصينية ومنها الجزائر . ولاسباب واهية : منها ان كثيرا من الصحفيين المخلصين لبعض المجلات الأسبوعية فى لندن ، كانوا من فرط الفطنة يعتبرون الجنرال ديجول خليفة لهتلر . ثم لسبب آخر كنت اجهله ، ولكنه لا يغيب عنه : ان معظم هذه الصحافة ستظل عدوة له مهما فعل . تراجع الصحفيون امامه ، وهم يهمهمون باسمه (١) ، كما يقال ان الجموع قد فعلت عندما حضر ليرى جثمان غاندى بعد مقتله . وعانقنى وقال لى (والتليفزيون يسجل) وكأننا التقينا منذ شهر ، بينما نحن لم نلتق منذ عشرين عاما : « يسرنى ان اراك من جديد ، كانت المرة الأخيرة بعد اصابتك فى اسبانيا ، وأنت خارج من المستشفى وانا خارج من السجن ... » اعجبت بالموهبة التى اسكتت هذا القطيع مؤقتا ، واعجبتنى فيها ميزة الانسان ، فالموهبة وحدها ليست كافية . واخذنى من ذراعى وانتقلنا الى مكتبه .

لا اذكر الآن سوى المائدة المصنوعة من الخشب الثمين ، التى عكست آخر ومضات التليفزيون ، ثم لم تعد تعكس الا وجهه والوردة التى كانت تفصل بيننا ـ نفس الوردة التى يحملها دائما . وربما طالع

---

(١) الاسم الأول .

الناس كلامى وهم اقل الفة بهذا الوجه ، ومضى التاريخ فلم يحتفظ منه بغير القناع . كان وجها رومانيا تثقله الشفة السفلى قليلا ، وتمنح ابتسامته « المهداة » فعل الفتنة التى تضيفها مسحة البراءة على رجل من رجال التاريخ . الامر الذى لا يختلط على الانسان ، ولا يغر صاحبه . ولكن وراء قناع الصور الفوتوغرافية ، كانت هناك هذه الابتسامة الموصولة بتعبير حالم يوحى بعيون زرقاء : على الرغم من سوادها ، تتآلف مع لون بشرته الاسمر .

كنت قد عرفت له طلعة قائد من قواد المقاومة فى الجبل : تثبتها فى ذهنى قلنسوة الشرطة التى كان يرتديها قبل عام ١٩٤٠ . وهو الآن يبدى تجاه الكون تهكما ودودا ، به شىء من الكلل : يغلف حزمه دون أن يخفيه . (عندما لقيت أمه الاهانة وهى تحمل الطعام الى المسجونين ، تنازل عن حقه فى الزيارة ، لمدة سبعة اشهر : فى سجن دهرا دون ـ قال غاندى : « هو الشجاعة بعينها » . أصابت السن وجهه ، بل أبدلته ـ بالكاد ـ وجها جديدا ، مثلما يحدث لكثير من الرجال تشابهوا مع امهاتهم ، ويتشابهون مع آبائهم عندما تتقدم بهم السن . وفى صوته وفى هيئته كانت تظهر (أم كانت تعاود الظهور) تحت ثوب المثقف السرى : صورة الهدوء والرقة التى كونها لنفسه فى الصغر عن الجنتلمان .

قرأ رسالة الجنرال ديجول ، وهى رسالة اعتماد ، ثم وضعها على المائدة وسألنى وقد اتسعت ابتسامته :

ـ اذن فأنت الآن وزير ..؟

لم يكن يعنى ابدا بقوله هذا ، اننى مشترك فى الحكومة الفرنسية . ولكنها كلمة هندية يريد من ورائها ان يقول : هذا آخر جسد تناسخت فيه ... اجبته :

كان مالارميه يقص ما يلى : فى ليلة من ذات الليالى ، كنت استمع الى القطط التى عقدت عند ماسورة السطوح مجلسا للحديث . الا وقط أسود ، محاكم ، مفتش ، يأتى ليسال قطى السمين الألوف :

ـ وأنت ، ماذا تفعل الآن ؟

ـ انا الآن اتصنع ان اكون قطا عند مالارميه .

اتسعت ابتسامة نهرو ، وأبدى الرضى . حركاته التى كانت منطلقة فيما مضى ، أصبحت الآن تتجه نحو الجسم ، واصابعه مطبقة تقريبا . وفى هذه الحركات المنقبضة التى تمنح لسلطانه على النفوس فتنة لم اصادفها

من بعد ، كنت أرى الإختلاف الحقيقي الوحيد بين نهرو في الماضي والرجل الذي يخاطبني الآن · فالهيبة عصر من عصور الحياة ، لا يغير منها مر السنين · عرضت عليه ، في عجالة ، كيف أتصور معرض الفن الهندي الذي نتمنى أن نستقبله في باريس · منحني موافقته وسألني عما نقترحه للتبادل ، .فاقترحت النحت الروماني المسيحي أو معرضا تاريخيا عن الثورة · أجاب :

ـ فرنسا ، لدينا ، هي الثورة ··· عندما اكتشفها فيفكاندا قضى يوما وهو يصيح مع أصدقائه : تحيا الجمهورية ! هل تعلم ان «البؤساء» من أشهر الكتب الأجنبية في الهند ؟

سبق أن التقيت · ثم التقيت مرارا بعد ذلك ، بهذا الوجود لفرنسا · ان روسيا السوفيتية لم تطمسه · ان الآلة تصطنع للبلاد الحديثة النمو عمالا مهرة ، أكثر مما تصطنع بروليتاريا عاملة · وفي كل مكان يدعو الشعب الى الثورة ، وليس البروليتاريا ، فان دعوة الثورة الفرنسية ، وحماسة المعركة المعلنة من أجل العدالة ، من سان جوست الى جوريس ، الى ميشيليه وعلى الأخص فكتور هوجو ، هذه الدعوة تحتفظ بتأثير يضارع الماركسية على أقل تقدير · وفي افريقيا وفي أمريكا اللاتينية ، حتى عندما كان تكنيك الثورة روسيا ، كانت لغتها لاتزال فرنسية · لقد رأيت في برشلونة ايام الحرب الأهلية ، أكواما من كتاب « البؤساء » بين « باكونين » وكتابات تولستوي النظرية ·

وقال نهرو :

ـ النحت الروماني ؟ ان النحت الهندي في العصور القديمة ، لم يعد يعجب أحدا في بلادنا حقيقة · وقد يكون له وقع السحر على الجموع الى حد ما ؛ كذلك الأصنام على جانب الطريق ··· ان أعضاء البرلمان يحترمون « ايلورا » ولكنهم لا يذهبون اليها ···

ـ بين البرلمانيين والفن ، علاقة لا تخلو من التعقيد أبدا ؛ واعضاء برلمانكم يعرفون « الباغافا وجيتا » على الأقل .

ـ مثل معرفة النواب الانجليز للتوراة ···

ينشأ الهند ويحيط به اعداء من رجال السياسة ، مثل الطوق الذي يحيط بكوكب زحل · وأبديت له دهشتي من الفكرة الغريبة التي تكونت لدى صحافة دلهي،عن الحكومة الفرنسية·فأجابني « اوه ! وعن الحكومة

الهندية أيضا ! ... » وأكد قوله باشارة من يده ، وكأنه يريد أن يأمل ويتوكل .

والمحت الى ان موقف الجنرال ديجول فى ذلك لايختلف كثيرا عن موقفه . وقد أثرت فضوله ولكننى أشك فى أن يكون قد اقتنع .

ولما كانت الأحزاب الشمولية لا تزال تتمتع بماض مذكور أو بوجود قوى ، فقد كانت فرنسا ترى نهرو أشبه بستالين منه بروزفلت ؛ ولا شك فى أنه بالمثل كان يرى الجنرال ديجول اشبه بموسولينى منه بتشرشل . ولكنه أشد ذكاء وأوسع اطلاعا على الأحداث ودراية بالأمور ، من الاعتقاد بأن الجنرال ديجول زعيم فاشى أو ان حزب السيد سوستيل يوشك ان يجرفه ، فقد كان يتابع ما يجرى فى فرنسا باهتمام . ولم يتدخل فى الهند الصينية أو فى الجزائر ، بسبب الآراء التى كان يعتنقها وتقضى بأن الاستقلال الوطنى يجب أن ينال بدون مساعدة اجنبية . وكان لا يأخذ الجمهورية الرابعة مأخذ الجد ــ ذهب الى فرنسا ، وكان الوقت ربيعا ، فاستقبله رئيس الوزراء الحذر ، فى مطعم بغاب بولون . وكان يرى عن كثب أفول انجلترا ، بعد أن عرف فيها ، لأمد طويل ، الدولة الأولى فى العالم اجمع . وكان يرقب افول أوروبا ، دون أن ينسى أنه قد شاهد ألمانيا وروسيا وهما يولدان من جديد . وكان من ناحية أخرى معنيا بافريقيا ، يصعب عليه أن يوفق بين انشاء المجموعة الفرنسية وحرب الجزائر . وقد جاءت كلمة الجزائر فى الحديث ، ورأيت منه حركة تراجع خفيفة فأدركت أنه يأسف على نطقها وانا فى ضيافته . ولم ازد على قولى :

ــ ان الجنرال ديجول هو الذى سيحقق السلام فى الجزائر .

ونظر الى نظرة من يحيره الأمر أو من لا يصدقه .

واتجه ذهنى الى ما كان يدعى فى ذلك الوقت بـ « سلام الشجعان » ، والى مظاهر التآخى التى لا أعلم حتى اليوم الى أى مدى كانت صادقة أو مصطنعة . ولكن فى رايى وفى رأيه بالمثل ، لم يكن بقاء « المجموعة » ولا استقلال مستعمراتنا الافريقية القديمة اذا حدث وتخلف عن « المجموعة » ، ليسمح بمتابعة حرب الجزائر الى ما لا نهاية . وسألنى :

ــ ما الدور الذى يلعبه الشيوعيون ، فى رأيك ؟

ــ دور كبير فى باريس ، صغير فى الجزائر . ولكن هل تعتقد بأنه لا تزال توجد سياسة شيوعية ؟

واستوضحنى بنظرته . قلت :

« أريد أن أقول الآتى : لقد تصورت بريطانيا العظمى ، على طريقتها ،

سياسة كونية ، فيما مضى . وأما الولايات المتحدة ، فلا . لقد أصبحت اقوى بلد فى العالم ، بدون أن تقصد . تختلف فى ذلك عن الاسكندر وقيصر وتيمور ونابليون : فقد تمت لهم السيادة نتيجة للغزوات والفتوح . وربما كان هذا هو السبب فى أن الولايات المتحدة تحسن مباشرة الحرب ، وتسىء مباشرة السلام » .

لقد رأيت سيارة فوستر دالاس ، وزير خارجية الولايات المتحدة ، تثب وهى تجتاز مدخل فندق ماتينون ، فأحسست كأننى أرى واليا . من قبل روما يعبر من احدى البوابات فى بعض المدن الشرقية ... وغداة ذلك اليوم ، قال لى الجنرال : « اما أن هناك « غربا » فينتهج سياسة مشتركة تجاه سائر العالم ؟ واما ... ولكن لا ، لن يوجد « غرب » . وقد كان .

وواصلت حديثى قائلا :

ــ ان السياسة الأمريكية الحالية على نطاق العالم سياسة معادية للشيوعية ، وبالتالى ، فان السياسة الروسية هى التى تحددها . حتى فى مشروعها الضخم : « خطة مارشال » . وعلى عكس ذلك ، عرفنا سياسة روسية عالمية ، وضعت فى خدمة الاتحاد السوفيتى القوات التى نشأت فى خدمة « الأممية » . ولكن منذ وفاة ستالين ، لا يبدو على هذه السياسة انها تواصل البقاء . هذا على الأقل ماتوحى به الجزائر ، وحتى افريقيا ، بل حتى باندونج . ان المثقفين اليوم هم الذين يطرحون المسائل السياسية ، تبعا للشيوعية .

ــ وما هو موقفكم الآن ازاءها ؟

ــ الشيوعية فى فرنسا هى الحزب الشيوعى كما تعرفونه ، بخيره وبشره . وكثير من المثقفين ممزقون بين العدالة الاجتماعية والأمة ، لا بين الشيوعية والرأسمالية . وفى أيام المقاومة اخترت فرنسا ، ولست الوحيد .

« أما فى الولايات المتحدة فالأمر يبدو لى مختلفا . ان أصدقائى الأمريكيين ، بعد قضية هيس ، وبعض قضية أوبنهايمر ، رأوا فى الشيوعية « مؤامرة » وفى الشيوعيين عملاء سريين للروس ، يناضلون من أجل البروليتاريا ، ولكن البروليتاريا هى النقابات ، التى ليست شيوعية »

وابتسم من جديد وقال :

ــ كل واحد يعتقد فى الشيوعيين الدين عند سواه .. ولكن كل انسان يذهب الى الله من خلال آلهته ، كما تقول الهند .

هل يمزح ؟

« أيدهشك قولى ؟ منذ عودتى الأولى من أوروبا ، وأنا مندهش لدهشتك · هل يفعل الغرب ، فى مجال الفكر ، شيئا آخر غير الاتجاه الى الله من خلال آلهته ، حين يعجب فى نفس الوقت بأفلاطون وسبينوزا وهيجل وسبنسر ـ دون أن نتحدث عن الذين يعجبون فى نفس الوقت بنيتشه ، أو بماركس ، وبالمسيح ؟ » ·

واستطرد فى الحديث عن الشيوعية · كان ، مثل الجنرال ديجول ، لايعتبرها طرفا اساسيا . قال « ان الشيوعيين هنا مشغولون على الأخص بالنقاش · وقال : « ان احدى ولاياتنا ، كيرالا ، شيوعية ، أعضاء اللجنة المركزية على كل حال من البراهمة ... » كنت اعلم انه لا يشاطر غاندى رأيه فى معاداة الشيوعية ، غاندى الذى قال : « لدى روسيا ديكتاتور يحلم بالسلام ، ويرى من الممكن الوصول اليه عبر بحر من الدماء » ولكنه قال ايضا : « ان المثقفين يمقتون آرائى وأساليبى » · وقد اعجب نهرو من الثورة الروسية ، حرب تحرر من القيصرية الشبيهة بالاستعمار · وكان لا يشعر بخطر يتهدده من الحزب الشيوعى الهندى أو من الجيش الأحمر ، فهو يفكر فى روسيا من بعيد ؛ ولأنه لا يعتقد فى حدوث نزاع مسلح بين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة ، فربما كانت لا تكدر باله الحرب الباردة التى يتحقق بها للهند معاونة الخصمين الكبيرين· عندى ، ان تاريخ القرن منذ اربعين عاما ، هو تاريخ المد الشيوعى وقيام امريكا فى محل أوروبا · وعنده انه تاريخ الخلاص من الاستعمار ، وتحرير آسيا بالمقام الأول · لم تكن الاشتراكية التى ينتهجها فى سياسة الدولة مرتبطة بالسوفيت ولا هى مرتبطة بالرأسمالية « التى لا تخلو ايضا من العنف ، على طريقتها » · كان الغرب (وربما كانت روسيا ايضا) ينظران الى الهند باعتبار الحرب الأهلية ، ويتحدثان عن « العالم الثالث » وعن الحياد · ولكن بالنسبة لنهرو ، كان هناك عالمه هو ، الذى لا يتحدد تبعا للعالمين الآخرين : عالم البلاد المتحررة والمتخلفة فى نفس الوقت ، التى يجب قبل كل شىء أن تغير حضارتها · هل يتم ذلك بأن تتفرنج ؟ « الى درجة ما ؛ ولكن العلوم والآلات قد صنعت فى مائتى عام مدنية تختلف كثيرا عن المدنية التى عرفتها الثورة الفرنسية وحرب الاستقلال الأمريكية؛ وان الهند التى سوف تصنعها فى مائة عام لن تشبه هند اليوم ، وربما لن تشبه أوروبا أيضا » · كان الاتحاد السوفيتى ، فى نظر الغرب ، يرمز الى ثورة ماضية ، وفى بعض الأحيان الى ثورة قادمة ؛ ويرمز فى نظر نهرو الى التخطيط قبل كل شىء · قال : « لم يدهشنى شىء ، بعد

اكتشاف عدم العنف ، أكثر من التخطيط فى آسيا الوسطى • وربما كان الاوروبيون لايدركون أن التصنيع قد أصبح الآن فى آسيا شعارا وأسطورة ولا تقل قوته عما كان الاستقلال فى الماضى • • • » •

وفى بعض الحالات ، كان عليه ان يستخدم المناهج الروسية ورموس الأموال الأمريكية • دون أن تغلبه الأوهام ، فهو يرى أن المساعدة الأجنبية شىء لا غنى عنه لنمو الهند ، ولكن نمو الهند لا يمكن أن يتاتى الا من العمل الهندى « حتى لا نرى استعمارا ذهنيا يولد أمامنا ؛ وأنا على كل حال لا اعتقد بأن كل هندى شديد التمسك بامتلاك الفريجيدير والسيارة » • أية فريجيديرات ؟ كانت المأساة التى تمسك بخناق الهند ، هى مأساة الجوع • فهل يتضح أن التخطيط الشيوعى أكثر فعالية ضد المجاعة ، من الليبرالية الراسمالية ؟

كنت أدرك لماذا هزت كلماته ما اعتدنا ان نطلق عليه اسم العالم الثالث • كان فى هذا المجال ، مثل غاندى ، يكشف للناس الأمور البديهية • واشار فى حديثه بالفعل ، الى « مؤتمر المائدة المستديرة » ، وذكر غاندى وقد التف هناك بعباءته من شدة البرد ، بين السادة الرسميين يكسوهم طلاء من الذهب مثل العرائس المنقوشة على سقف القاعة ، وقال : « كان هذا فى الوقت الذى ظهر فيه اغا خان بمظهر المدافع عن الاستقلال ، وأطلق اشتراكيو الصالونات فى لندن والهند لقب الرجعى المتطرف على غاندى » • أمام هذا الطيف كان ستالين لا يزال شاهقا ، ولكنه يبدو كالدخيل • وقد حضر خروشوف وبولجانين الى الكابيتول ، رئيسى دولة بين غيرهما من رؤساء الدول • ان التكوين الانجليزى لنهرو لم يكن ماركسيا ، واما تكوينه الهندى فكان يدفعه الى كفاح ضد الطوائف أكثر منه ضد الطبقات ؛ فى سبيل المنبوذين الذين يموتون ، رغم الدستور ، فوق أعشاب فناء الكابيتول ، أكثر منه فى سبيل البروليتاريا •

ولكن المحافظة على الاستقلال الحقيقى ، وتصنيع الهند بالمثل ، لايمكن أن يتم الا على أساس وجود « دولة » • وكان نهرو واعيا بالدولة التى ينشئها • وكان يرى أن كل ثورة لا يمكن أن تنفصل عن الارادة الأخلاقية وارادة العدالة ؛ وهذه الارادة فى الغرب قد كانت ارادة الأفراد، المبنية على العقل والمساواة أمام القانون ، وهم يعتبرونهما من القيم العليا • ولم يكن لهذه الارادة وجود فى الهند • كانت الفردية ، بل كان الفرد نفسه ، يلعب هناك دورا ضعيفا • انما الواقع الأساسى هو الطائفة • ليس الهندى فردا ينتمى الى طائفة ما ، كما يقال عن الرجل الأوروبى انه فرد ينتمى الى

هذه الأمة او تلك • ولكن الهندى عضو فى طائفته كما ان المسيحى الحقيقى يتنصر بالتعميد قبل أن يصبح فردا • لا العلمانيون فيما مضى ، ولا حتى البراهمة استطاعوا ان يحدثوا تغييرا عميقا فى الفلسفة الأخلاقية الهندية• ولم يحدث مثل هذا التغيير الا الزهاد : لأن الزاهد يعيش خارج الطوائف ولأن حياته نذر للآلهة • والهند لا تتصور وجود فلسفة أخلاقية علمانية • ان غاندى الذى كان فى نظر الغرب زعيم الهند السياسى ، كان فى نظر الهند ، وفى نظره أيضا بلا شك ، زاهدا تقليديا عظيما •

ان الكفاح من أجل التحرير لم يضع طبيعة المجتمع الهندى موضع السؤال • كان الشيوعيون يأخذون على حزب المؤتمر أنه حزب برجوازى• متى ادعى أنه حزب بروليتارى ؟ ان هدفه كان الاستقلال وهو هدف وطنى وليس اجتماعيا • وقد ناضل من أجل الجميع • ولكن بعد بلوغ هـذا الهدف ، أصبحت العدالة الاجتماعية مشكلة ذات اهمية بالغة • الا أن الوعى الطائفى كان أقوى من الوعى الطبقى • ولم يكن الجهاز السـياسى يؤلف فئة منظمة مثل الحزب الشيوعى ؛ والنواب لا يخلصون من طائفتهم الا جزئيا • ان رجل البرلمان المثالى يصـدر من الصورة المثالية للبرلمان البريطـانى ولا يوجد الا فى تراث انجلترا ؛ وكان نهرو ، الانسـان اللا ادرى ، يبحث عبثا عن الصورة الهندية • ولكى ينشىء الهند الحديثة ، كان مضطرا الى ان يعتمد مباشرة على شعبه ، ويشرك أقل الهنود شأنا فى صنع ملحمة (لم يقل عنها الا أنها « مشروع كبير ») وقال : « ان الهند يجب أن تعبىء نفسها بنفسـها ، لا بأمر من الحكومة ••• » ولكن الهند الألفية ترى فى انتفاء العدالة الاجتماعية جزءا من النظام الكونى ، والنظام الكونى عادل بالضرورة • كان غاندى مصمما على ازالة النبذ ، فهل كان مصمما على ازالة الطوائف • وكان كفاحه ضد النبذ كافيا لكى يغتال ويلقى مصرعه ، لا على يد شيوعى ، ولكن على يد رجل من رجال التقاليد الذين مازالوا يعلقون فى منازلهم صـورة القـاتل ، وما زالوا يلعبون فى الجيش دورا لاينظر اليه وزير الحربية باستخفاف • فليحيا النظام الأبدى ، بفرقه المصفحة ، واسطول طيرانه من « الكشاترية » (١) وادارته من البراهمة ، ولتسقط جثة نهرو بعد جثة غاندى !

هذا ما كان يطلق عليه ، حتى خصومه الاشتراكيون ، مأساة الهند الثانية • قال :

— بالطبع أنا لم أحلم أبدا بمؤتمر كل نوابه من الزهاد •

واضاف بلهجة حزينة :

---

(١) طائفة المحاربين •

ـ ولكن ما قيمة هيئتنا من السياسيين ، اذا قورنوا بامثالهم فى حزب شمولى او فى الديمقراطية البريطانية ؟ على اذن أن أدعم الدولة ٠ ان الشخصيات التاريخية العظيمة فى زمننا هذا كانت مرتبطة بمعركة ، وفى اغلب الأحيان باستيلاء الحزب المنتصر على الحكم ٠ وحتى غاندى ، قد ظل مرتبطا بتحرير الهند ٠

وعندما كانت هذه المعركة هى معركة الاستقلال أو الثورة ، ايا كان الاستقلال أو الثورة ، فقد كانت تحمل فى طياتها جنين تحولها ٠ لقد سبق أن سمعت تروتسكى يحدثنى عن تروميدور (١) ٠ ولكننى كنت على وعى ، فى هذا المكتب العادى الذى يحيط به المجد والمجاعة ، بأن القوة الملغزة التى تحول قوميسيرى الشعب السائرين فى ثياب من الجلد ، الى ماريشالات باشرطة مذهبة ، تفوق بكثير مكاسب المنتصرين البائسة وتجرف الفاتحين فى طريقها كما يجرف نهر الجانج بقايا الحطام ٠ لقد ختم لينين حياته وهو يرتدى الكاسكتة كما يظهر من صوره الفوتوغرافية فى السفارات السوفيتية ـ ولكنه قال : « ليس هناك مثل لثورة لم ينته بها الأمر الى زيادة سلطة الدولة » ٠ وكانت كاسكتة ستالين هى كاسكتة الماريشالات ٠ كان الثوريون الذين يصفون ترومیدور بالردة يدرسونه بروح البرجوازية نفسها ٠ ان العقبات التى تعترض حكومة الهند لن تعيد السلطة الانجليزية ٠ لم يكن الماضى هو الذى يقف فى وجه الثورة المستمرة وزمن المساواة ولكنه المستقبل ، والبراعم التى يحملها الاستقلال والثورة فى داخلهما ٠

ـ يجب أن أحافظ على المشاعر التى أثرناها ، لأنشىء الدولة فى بلاد يتميز ضميرها الوطنى بأنه دينى قبل كل شىء ، بلاد كانت كلمة الدولة عندها تعنى الادارة دائما ، سواء فى أيام الامبراطورية المغولية او نواب الملوك الانجليز ٠٠٠ ولقد كتبت فيما مضى ، أقول : ان تنظيمنا الذى تكون من أجل الاستقلال فى سبيله الى أن يصبح تنظيما انتخابيا ٠٠٠

مسكينة الانتخابات ! كنت ألمح من وراء الكلمات الصديقة البصيرة ، وقع القدر الذى لقيه من قبل لينين وماو وموسوليني ، والذى لم يكن يتمثل فى سلطة الحزب فقط ، ولكنه أيضا « الدولة » ، التى يمكنها وحدها أن تكفل للهند البقاء والمصير ، الدولة التى ربما ساورت ذهن الاسكندر ، والحت بالتأكيد على ذهن قيصر وشارلمان ونابليون ٠٠٠ ولكن هل كانت الهند قبل الاسلام (وحتى فى أيام الاسلام ٠٠٠) دولة أبدا ؟

---

(١) طائفة المحاربين ٠

ـ لا تنس أن أوروبا تداوم على أن تطلق اسم اللا عنف على ماتسميه نحن المقاومة اللا عنيفة . متى كانت الهند ، قبل الاسلام ، دولة ؟ لم يكن ذلك في ظل الجوبتا ، فيما أظن ؟

ثم أضاف بلهجة حزينة : « والى اى مدى يمكن لدولة ان تتأسس على العمل اللا عنيف ؟ ولكن هل ما أردنا أن نصنعه كان بالفعل دولة ؟ »

كان مشفقا على الهند .. وكان يعرف بؤسها . ولكنه يريد لها قدرا فريدا ، يريد لها ان تصبح ضمير العالم . ولا شك أنه لم ينس لقاءاتنا الماضية لعلمه بأني أحب هذه الهند . قلت :

ـ ان الجنرال ديجول يرى أن الدولة التي لا تبني شرعية وجودها ، ان آجلا أو عاجلا ، على أساس « الدفاع » عن الأمة ، مقضى عليها بالزوال ...

ـ أجل... واذا أرادوا أن يقصفوا الهند بالقنابل ، فليقصفوها ... يمكن القضاء على الجيش وعلى الحكومة وربما القضاء على النظام : لا يمكن القضاء على الشعب .

هل يقصد : الغربيين ؟ ولكنه أضاف :

ـ كلما عادت الصين صينا من جديد ، عادت امبريالية ...

لقد ذكر في كثير من خطبه أن شعوب الهند لا تزعم لنفسها التفوق على الآخرين ، ولكنها تعلم أنها مختلفة . وقد نذر حياته لهذا الاختلاف ، لهذه القيمة العليا التي جاءت بها الهند الى العالم . لهذا العمل اللاعنيف ، الذى جعل من تحرير الهند منافسا للثورات التاريخيه وكان يعلم ، خيرا منى ، لماذا ترجم غاندى «الباهافادجيتا» ، ويعلم ، خيرا منى ، لماذا أطلق هو نفسه على بوذا لقب « أعظم أبناء الهند » . وعلى الرغم من مآسى الفصل بين الهندوستان وباكستان ، وعلى الرغم من كشمير ، كان لعدم العنف بريقه الذى لا يزال محتفظا به . ولم تكن كلمة الديمقراطية هنا لتثير الابتسام . كانت أوروبا تخلط بين الأيديولوجية الموروثة عن غاندى وبين نوع من السلبية ، ولكن نهرو كان لايزال مؤمنا بما كتبه فيما مضى : « قيل ان العمل اللا عنيف خرافة ؛ ولكنه كان هنا ، هو الوسيلة الوحيدة «الواقعية» للعمل السياسى . ولكل عمل سيىء نتائج سيئة ، حتى فى السياسة . وهذا ، فيما أعتقد ، قانون من قوانين الطبيعة، يضارع فى صحته أى قانون فيزيائى أو كيميائى » .

كنت أذكر راما كريشنا وقوله : « لا يمكن أن يظهر الله حيث تكون

الكراهية او العار او الخوف ... » ولكننى اذكر ايضا غاندى وقوله : « افضل للانسان أن يناضل من أن يخاف » .

وكما اكد ستالين انه ينشىء الاتحاد السوفيتى كمثلما قام لينين بالثورة ، كان نهرو مضطرا الى أن يبدو وكأنه ينشىء الهند كمثل ما ظفر غاندى بالاستقلال . فكل شىء فى هذه الدولة الفدرالية وبالمقام الأول وحدتها ، يقوم على هدى الدعوة . ولكنها لا تنبنى على عقلانية بريطانية قد يلجأ اليها نهرو طواعية فى كثير من الأحيان ، بقدر ما تنبنى على التعبير عن أعمق أحاسيس الهند . ومن هنا جاءت فعاليتها التى كانت تثير دهشة الغرب . وعندما التقيت بنهرو ، لأول مرة فى باريس عام ١٩٣٥ ، سألته : « ما هى الصلة التى تعقدها بين عدم العنف والتناسخ ؟ » واطرق يفكر ؛ وكان ذهنه لا يزال يحمل من أيام السجن طابع التمهل الجاد فى التفكير ، الذى يختلف كثيرا عن المرح البادى تحت وقاره الباسم وهو الآن رئيس للدولة . وكان يعلم جيدا أن « الأهيمسا » ، اللا عنف الهندى ، لا يختلط بطريقة للحصول على الاستقلال دون المخاطرة بالتناسخ فى صورة سيئة ؛ وكان يرى فى الأهيمسا شعارا مقتدرا ، لا نظرية . وتذكر نهرو حديثنا ذلك ، فقال :

ـ يقال ان تولستوى قد طرح على غاندى نفس السؤال .

ـ وبماذا أجاب غاندى ؟ بمثل ما اجبتنى ؟

ـ ماذا أجبتك ؟

ـ قلت تقريبا ان التناسخ كان بمثابة السماد ..

الكفاح ضد البؤس ، ولكن دون مبالاة بمستوى الحياة ، ورفض الاختيار بين الأمم الشيوعية والأمم الراسمالية ، ثم رفض تبرير الوسائل بالغايات ، ليس مصدرها ليبرالية القرن التاسع عشر ولكن آلاف السنين من الفكر الهندى . ألم يلعب غاندى فى حياة نهرو دور الجورو (١) ؟ ان باندونج قد منحت الهند سلطانا معنويا أكثر منه سياسيا . وسألنى، بين الابتسام والجد .

ـ الم يدهشك قول الباغافادجيتا : « من يفعل فعلا ما ينبغى له ، سوف يحصل على ما يأمل ... » .

كنت مهتما الى أقصى درجات الاهتمام ، فلصيب السخرية فى قوله

(١) القديس هندى .

لم يكن الا قشرة سطحية . على كل رئيس دولة او حكومة أن يعمل حساب مصلحة الدولة ان آجلا او عاجلا ، فيصطنع لها قناعا من القيم التى يؤمن بها محدثه او من اقدم القيم التى رسخت فى ضمير شعبه ، وهى قيمة فى أغلب الأحيان . لقد سمعت الشيوعيين الروس يستشهدون بقيم اورثوذكسية ، والشيوعيين الصينيين يستشهدون بقيم كونفوشيوس ، وقد استبدلت اسمها بالكاد . ولقد سمعت كل الناس يستخدمون مفردات الديمقراطية . أما هنا ، فقد كانت النظرة الأخلاقية ، اساسية حقــا . وسالته :

ـ منذ الاستقلال ، أى شىء كان هو الأصعب ؟

وأجابنى فى نفس واحد ، بينما كان حتى الآن يتحدث عن الهنـد وكانه يتحسس كلامه فى أغلب الأحيان ، قال :

ـ اقامة دولة عادلة ، بوسائل عادلة ، فيما يبدو لى ...

واردف بعد لحظة :

ـ وربما كان أيضا اقامة دولة علمانية فى بلد متدين خاصـة وان دينه لا يقوم على كتاب منزل .

الفيت نفسى واقفا أمام الهند الخالدة وفى الوقت نفسه أمام هند تقارب ما ارتسم فى ذهننا من صورة فرنسا وجنود العـام الثانى من الجمهورية . والولايات المتحدة أيام واشـــنطن . ختام زمن مثالى من أزمان التاريخ . « ايام عاشها البشر على مرام فؤادهم .. » التاريخ يمر من أمامى، حاملا ما لن يعود . وفى هذه الساعة ، على الجانب الآخـر من الأرض ، مثقفون غربيون ، يدخلون الهند فى صناديقهم الصـغيرة ، ماركســية كانت أو ديمقراطية . ونهرو يحاول أن يقوم بتحويل من أعمق تحولات العالم ، فى هذا البلد المتحد اتحادا فدراليا واهيا ، والباكـستان فى مواجهته تشيد بنيانها ـ فى هذه العاصمة التى يعسكر فيها المنبوذون على اعشاب النجيل الانجليزى ، والسيارات بالليل تدور من حول الأبقار المقدسة التى نامت هياكلها الضاوية فوق أسفلت الطرق المنتصرة.كنت أتخيل ستالين وهو يسمع : « اقامة دولة عادلة بوسائل عادلة » ، وخلفاءه الصغار والكبار ، وهتلر فيما مضى . وأتخيل على الأخص ماوتسى تونج ، وهو أسيوى مثل نهرو ، محرر مثل نهرو ، والذى لم يكن ليرى الا أن بؤس الفلاحين الهنود هو الواقع الوحيد ، وفى الامكان سـحق الطوائف مثلما سـحق المرابى والمالك الصـينى ؛ وان جيشا شيوعيا قوامه عشرة ملايين من الرجـال

يستطيع أن يحول وهو مبتهج سعيد ممالك الأمير سيدهارتا والمهراجات الآخرين الى كومونات شعبية ـ وأن أسطول آلهة الخشب سيهبط نهر الجانج يوما برفات بنارس ٠

وواصل نهرو حديثه قائلا :

ـ ومن بعض النواحي ، كيف يمكننا الحكم بما هو الأصعب ؟ كان الأصعب عند غاندى هو التغلب على قسوة قلوب الناس المثقفين ٠ وكان زعماء الكفاح من أجل الاستقلال رجالا استمعوا داعيهم ٠٠٠ ويجب الآن أن تكافح الهند ضد نفسها ٠ ولكن كل سنة افضل قليلا من سابقتها ٠ الأم ؟

« لن أرى كيلاسا من جديد ٠٠٠ »

كيلاسا جبل الأسفار المقدسة ، سيناء الهند ، وهو من أجمل جبال الهملايا ٠ لقد أحب في أيام شبابه صعيد كشمير وحلم برحلة اليه ٠ وأعد لها بدقة وهو في السجن : اختار الأرض المقلوبة في ساحة السجن لأجمل بحيرات التبت وأجمل جبال كشمير ٠ ثم أجل حلمه عندما حمل عبء السلطة ، وكتب يقول : « ربما كان حمل الهند من الثقل بحيث يدنو الأجل دون أن أرى بحيرة وجبل أحلامى » ٠٠٠

كان ينظر ساهيا الى غلاف مجلة أطفال ، تصفحتها في الكابيتول ، حيث كانت « الصحافة » تصاحب وجبة الافطار ٠ ووجدت حديثا يقول فيه أ « انس أحيانا أنني منذ وقت طويل جدا كنت طفلا » ٠٠ ورفع عينيه ليقول :

ـ لقد سجنت أيضا أثناء الحرب ، أليس كذلك ؟ لم يعد فى الامكان أن نقابل شخصا لم يذهب الى السجن ٠٠

لقد امضى فى السجن ثلاث عشرة سنة ٠ وكنت أذكر فقرات من مذكراته (التى كتبها فى السجن) يتحدث فيها عن اكتشافه للون السحاب ، وابتهاجه بسماع كلب ينبح للمرة الأولى منذ سبعة اشهر ؛ وميله الى كتب الرحلات ، وحبه فى ساعات الحر الشديد للأطالس التى رسمت عليها جبال الجليد . وقلت له : ـ اذكر السنجاب الذى كان يأتى ليجلس في حجرك ، ويفر ساعة ان يقابل نظرتك ٠ هل كان ذلك فى ديراه دون ؟

ـ فى لوكناو ٠٠ وكانت هناك أيضا السناجيب الصغيرة التى

تسقط من الأغصان ، فتهرول اليهم أمهاتهم وتكورهم مثل الكرة وتعود بهم ٠

ولم أكن أعلم ان السنجاب يمكن أن يكور بهذا الشكل ، ولكن سناجيب الهند ليس لها ذيل مفروش مثل سناجيبنا ٠ وأردف نهرو قائلا.

ـ كان غاندى يقول انه لولا الفكاهة لما استطاع أن يعيش ٠٠٠

كنت أعلم انه قد حدث مرارا ان اختفى نهرو من المواكب الرسمية تاركا للسلطات مئونة تفسير تصرفه ٠ كان فى نبرة صوته ما يبعد عن الظن كل مزاح ، انما هو يريد ان يقول ما يقوله مثل من قابلت من رجال التاريخ ، ومثل أغلب الرسامين ٠ وعاد الى ذكريات السجن ليقول :

ـ بعد كل هذه السنوات ، هل تعلم ما تستدعيه الى ذهنى كلمة : السجن ؟ بناء بنوافذ متشابهة ، والكفاح الذى مازال مستمرا فى الخارج ، وبالقرب من السور رأس عشب صغير يشق من الأرض المقلوبة ، ويبدو عليه الدهشة وانت ؟

ـ أرى الذين تم تعذيبهم وهم يحملون تحت البواكى الكبيرة بينما رجال الجستابو يلعبون النطة ٠٠٠

وامضينا فى الحديث عن السجون وقتا لم يتوقف خلاله عن الابتسام وكانت سجونه تذكرنى بالأبنية الصفراء الكبيرة التى يرسمها شيريكو ويمتد ظلها فوق الشوارع الخالية ٠ سجون انجليزية « ادارية » كان لنزلائها الحق فى الخروج لحضور وفاة والدهم ، وكانت القطارات الخاصة تحمل الى غاندى ونهرو زعماء الكفاح من أجل الاستقلال ، المسجونين مثلهما ٠ وهى على الرغم من ذلك ، عدم منفصل عن الحياة ، ولكنه محدود فى الزمن ٠ لا تعذيب ، وفى هذا الاطار الهندسى من الحجر ومن الساعات الميتة ، حيوان يعبر الساحة أو غصن ينمو ببطء فوق الجدار ٠٠٠ أما ذكرياتى فقد أثارت دهشته : كان سجنى وسجنه يتشابهان من حيث عزلتنا عن الكفاح الذى يستمر فى الخارج ، ولكن الفارق رغم ذلك كبير ! » وبدأ السفير يحس بالخجل لأنه لم يسجن بل لم يستدع الى النقطة أبدا ٠ ولم يكن يسيئه أن يرى رأس الحاجب يطل أكثر من مرة عبثا ٠ وقال نهرو :

ـ سنعلم غدا عن طريق الجرائد ماذا قلنا لبعضنا البعض ٠٠٠

ـ أنت تعلم أن الزواج الكاثوليكى يسبقه (ليلة الزفاف) اعتراف العروسين ٠ وقد ذهبت أمى لتعترف وعادت بعد دقائق ٠ وتبعها والدى ٠

ومكث هناك خمس دقائق ثم عشرا ثم خمس عشرة ! ماعدد الآثام التى يستغرقها هذا الوقت الطويل ؟ وعندما خرج والدى من الكنيسة غامرت والدتى بهذا السؤال على استحياء ، فاجابها : « لم اقض الوقت فى الاعتراف ولكن القسيس كان يتولى الشئون الدينية فى فصيلتنا ، فتجاذبنا اطراف الحديث ... »

واجاب نهرو :

ـ ولكن الجرائد ، حتى اذا هى اعتقدت أننا قد تجاذبنا اطراف الحديث ، فسوف تعدد الآثام ..

ونهض وهو يقول : « الى المساء » · وكان السفير قد نقل الى الدعوة الى حفل العشاء ·

●

والعشاء فى الكابيتول يسكنه شبح الامبراطورية ، مثل نيودلهى · وفى الحدائق طرق هندسية من الحجر الرملى كانها تصبح فى أحواض الزهور : « النبـــاه » · وكان نهرو مرتديا زيه الرمادى المعروف ، وعلى راسه طاقية الشرطة البيضاء ، يستقبل حوالى مائة من المدعوين فى قاعة ضخمة يظلها سقف ساذج كأنه يروى قصة فارســـية · وقال لى نهرو : «الا ترغب فى الذهاب لمشاهدة مغارتنا المقدسة ؟ احب أن اعرف رايك فى عمل مصلحة الآثار عندنا ··· هل أراد أن يسرنى ؟ لقد مضى بخطوات قصيرة مسرعة بين الجماعات المزركشة ، وتذكرت الخطاب الذى القاه فى الجموع المحتشدة أمام القلعة الحمراء ، يوم الاستقلال ، وقوله : « لقد ضربنا للقدر موعدا منذ أمد بعيد ، وها هو الآن القدر ! »

●

واتجهت افكارى الى الحديث الذى دار بيننا عصر هـذا اليوم ، والى راس العشب الذى يشق طريقه مندهشا الى الحياة فوق ظهر الأرض ، والى الحيوانات التى استؤنست تقريبا · كان السجن بالنسبة اليه كمـــا كان بالنسبة الى ، هو الجدار الذى يفصل عن الأحداث · وفيما يتعلق به ، كان وراء هذا الجدار ـ على مدى ثلاثة عشر عاما ـ قدر الهند ومصيرها · اما هذا المساء فكان فى الحيـــاة ـ بل فى مسرحها · يحيطه الاحترام الذى يحيط بالدكتاتوريين لا بالرؤساء البرلمانيين ، ولو ان الأسباب مختلفة · وأعلم أنه قد تساءل مرة هل يمكنه أن يحتفظ باللاعنف فى حالة ما اذا رأى

الشرطة تضرب أمه ، وأن والده أمضى ليلة فوق الأسمنت ليعلم كيف ينام الناس في السجون • وأن زوجته قالت له وهي تموت : « لا تعط أبدا كلمة بالتخلي عن الكفاح » • وكنت أفكر في الرسالة التي بعثها اليه والده ، ودارت حول العالم حتى وصلته بعد خمس سنوات من وفاته • ولكن هذه الحياة الشخصية أقل قدرة على تصويره من التأثير غير المباشر الذي يمارسه على العالم ، والتأثير المباشر الذي يمارسه في بلاده. وأكثر من خطابه في القلعة الحمراء ، كنت أتذكر دفاعه في قضية جوراخبور (في ٣ نوفمبر ١٩٤٠ ، يوم هروبي الأول) ، وقوله : « لست أنا من تريدون محاكمته وادانته ، ولكنهم مئات الملايين من أبناء شعبي ، وانها لمهمة ثقيلة حتى على امبراطورية متكبرة ... » ووجدت نفس الشعور الذي احسست به في البرلمان ولكن بشكل أعمق : ان نهرو ، مثل غاندي ، كان جورو أمته ..

ان انتظار عشاء دبلوماسي لا يستدعي الى الذهن صور التاريخ الكبرى • والهند نفسها تستبعد هذه الصور ، لأن رومانسيتها غريبة عنها • لا وجود في عالم الباغافادجيتا لشيء يشبه تكليل نابليون امبراطورا ولا لمدافع السفينة « أورورا » وهي تبحث بأناملها الغليظة عن مرمى قصر الشتاء • وحياة نهرو لاتناسب الألبومات كثيرا • لقد ارتبطت الأسطورة بغاندي من يوم الزحف الى الملح ، حتى يوم اغتياله • ولكنها اسطورة تبدو نائية بعيدة تكتنفها ظلال من بطء الهند وأحلام الهند ورقعتها الشاسعة • أسطورة لا تحضر جموعها الى الحياة مثلما جماهير ثورة أكتوبر، ولكن مثل النجوم في ليلة هندية . ورأيته في كل مكان صورة غاندي، وكان نهرو ينتقل من جماعة الى أخرى • لم يبق من كل ما صنعاه ، غير ملحمة عميقة ، مبهمة . لقد عاش خمسمائة مليون من البشر تحت قانون أجنبي ، وفي جيل واحد ، استطاع العمل المعنوي الذي اضطلع به بعض الرجال ان يحررهم ، لا بسلسلة من المعارك المتتابعة ، ولكن بموكب من الرموز المتتالية تضيع منذ الآن في غمرة الاستقلال ، غير أن الوعي الذي منحته هذه الجموع ، والثبات والعزم اللذين أعطيتهما ، كانت تحيط نهرو مثلما تحيط المقبرة الشاسعة بأضرحة الفاتحين. ومن ناحية أخرى، تبين لي من أحاديث الهيئة الدبلوماسية ان ليس هناك شيء قد انتهى أمره . عندما سألت نهرو عن أي شيء كان هو الأصعب في نظره ، جاءني الرد سريعا جدا ، وكأنه يريد ان يستبعد ردا آخر ــ لابد أن يكون: الباكستان•لا لأنه يخشى وقوع هجوم باكستاني كما توحي بذلك الصحافة الغربية ، ولكن لأن التقسيم يهدد العمل اللاعنيف أكثر مما هددته انجلترا • لقد سبق لغاندي أن أعلن . «انى أكافح ضد ثلاثة خصوم : الانجليز والهنود وذات نفسي» •

ولم يكن يتوقع النصر النهائي الا من تطهير الهند · دعوة لا انتهاء لهـــا ، ومطاردة القتل والجريمة من قرية الى قرية ، وبيوت الهندوس تحرق · ومنازل المسلمين تنهب ، والسيخ ينتظرون القطـــارات المحملة باللاجئين المسلمين في محطة امريتسار وسيوفهم فى أحجارهم ، كما كان المسلمون ينتظرون اللاجئين الهندوس فى محطات البنغال ، « موعظة الجبل » يلقيها فى اعداد وأعداد من القتلى حتى يسجى جثمانه يوما فوق كوم الحطب· ومنذ ساعات قال لى نهرو قبل أن يتحدث عن « السنوات الأفضل » : « ويجب الآن على الهند أن تكافح ضد نفسها ··· » خليفة النبى العجوز الضاحك يصنع الهند ، وظهره الى شياطين الدم ، كما أراه الآن وظهره الى المدخنة الحمراء · ان ما أطلق عليه غاندى « رقصة الهند الجنائزية » ، تتبعه الآن مغامرة كبرى للانســانية تحـاول وهى تتحسس الطريق ، إن تبنى أمة من اربعمائة مليــون نســمة على أساس من ايمانها فى النصر الحتمى للمغفرة والرحمة ·

●

واتجه المدعوون الى المائدة بين صفين من رماة البنغال· وبعد الرماح المنحنية ، رأيت طابورا من الخدم ، لايقل عددهم عن عدد المدعوين ، يرتدون سترات بيضاء ، وعمائم حمراء ،ويملئون قاعة الطعام التى مازالت تغطى جدرانها صور ضخمة لنواب الملوك الانجليز · عندما هبطت من جناحي ، قدم لى عامل المصعد البوم الأوتوجراف لأوقع عليه باسمى · فأخرجت قلم الأساتذة الكبار بحركة عريضة ، ولكنى وقفت مشدوها فقد رأيت عشرة توقيعات ملكية أمامى · أما زال الملوك بهذا العدد العديد ؟ فصل من روايات بروست تتبعه اقصوصة من تاليف فولتير ·

وساءلت نفسى أين ومتى شعرت من قبل بهذا الشعور الذى يتملكنى الآن ، وكأننى بازاء مشـــهد سيزول المدعوون اليه عند الفجر · الجو جو الحكومات المؤقتة وأهواء القدر · لا أحس فيه شيئا من احتـلال الثورات المبرجزة للقصور الشهيرة ، ولكن لا أحس بالمثل شيئا من حكومة للهند · وحتى اذا أبطأ الفجر فى قدومه ، فســوف يأتى يوما برجال طلوا وجوههم بالرماد الأبيض ، أو بجحافل المنبوذين يشهرون مشاعلهم ·

وكان نهرو يلقى خطابا عاديا ردا على خطاب عادى القاه احـد وزراء الخارجية الاسكندنافية · ورحت أكرر : اين ومتى شعرت من قبل باني احضر مثل هذا المشهد المقضى عليه ؟ كان ذلك فى فندق بوهلرنيه الذى

تسند واجهته أعمدة من عصر بونابارت على هيئة التماثيل النسائية ، بعد ان أصبح الفندق مقرا لوزارة « التعاون » . وكان زعماء افريقيا الوسطى الذين حضروا لتسلم اعلام « المجموعة » ، يصعدون على بسطة السلم درجة درجة . وتنفرج الجموع البرلمانية أمام أزيائهم المعتمة وأمام المداحين الذين يتغنون بأمجاد قومهم ...

●

وبعد العشاء ، اصطحبنى نهرو ، عن طريق سلم حلزونى ، مع بعض مدعويه انرثيسيين، الى مسرح صغير أقيم تحت الأرض. وتتابعت الرقصات الكلاسيكية بينما كانت الأوركسترا تعزف « الموسيقى التى ينبغى أن تعزف ليلا » . وبعد أن جلسنا جميعا ، مال نحوى وقال : « كان السجن بالنسبة اليك حدثا عارضا ، وكان بالنسبة الينا ، غاية . وكلما القى القبض على واحد منا ، كان غاندى يبرق اليه بتهنئاته . وفى تلك الأيام ، كان يقول : « تطلب الحرية بين جدران السجون وأحيانا فوق أعواد المشانق ولا تطلب أبدا فى المجالس والمحاكم والمدارس » .

وكانت الشخوص العريقة تمد حركاتها المتماوجة على أنغام حنين لا يحد بزمن

●

وعندما انتهت الرقصات ، تركنا فى الكابيتول وعاد الى منزله .

- ٦ -

١٩٦٥/١٩٤٤

قال غاندى وقال نهرو «اطلب الحرية بين جدران السجون» . وأنا لم انزل سجونا بمعنى الكلمة او لم يطل عهدى بها . لقد ادخلت المعتقل عام ١٩٤٠ ، فسرعان ما تيسر لى سبيل الهروب رغم حذائى الضيق . كان مرجا واسعا ضربوا نطاقا حوله . نيران وردية فى ساعة الفجر، وعربات فوق الطريق وراء الاسلاك الشائكة ، وعلب الطعام المحفوظ ملطخة بالدم، واكواخ بابلية صنعت من عمدان قصيرة ومن مواسير المصارف ومن فروع الشجر ، فيهـــا جنـــود يحررون خطابات لن ترسل ، وقد انكمشوا فى جلستهم مثل موميات بيرو .

أما فى عام ١٩٤٤ ، فقد كان الأمر أشد خطورة . ان رفاقى اللذين قبضت عليهم الشرطة الألمـانية (رجال الجستابو فى أغلب الاحيان) قد سلكوا الى الموت النهج الذى نعرفه ، بينما كنت أرتدى سترتى الرسمية عندما قبضت علي دبابات فرقة الرايخ » .

فى حقل من الحقول بدات سجونى . ساعة أن افقت فالفيت نفسى فى نقـــالة مدت فوق الأعشاب ، أمسك بها جنديان المانيان . وغطيت بالدماء من تحت ساقى . وقد اعمل فـــوق سروالى ضماد كيفما كان . اختفى جثمان الضـــابط الانجليزى . وفى العربة جسدان بلا حراك هما زميلاى . أحد الألمان ينتزع العلم . اتجه اللذان يحملاننى نحو جرامات . بدا لى أن المدينة مبتعدة بعض الشىء . الى جانب النقالة ملازم يصطحبنى .

كنت قد ذهبت لأحكم فى نزاع قام بين فريقين من منظمات المقاومة (فريق من «البوكماستر» وفريق من «الرماة الأحرار والأنصار») . وعند العودة - قبيل الحادث بعشرين دقيقة - نال منا النعاس ونحن نقترب من جرامات ، وصليب اللورين على بيرق السيارة يخفق فى الريح الساخنة .

طلقات كانى لم اتيقن من سماعها ، ثم ينفجر الزجاج الخلفى وتغوص السيارة فى الحفرة بعد أن تنقلب راسا على عقب مات السائق برصاصة فى راسه فارتمت قدمه على الفرامل بعنف شديد • وسقط الحارس فوق السلاح • الضابط الانجليزى قفز الى الطريق من جهة اليمين ، وسقط وقد تشنجت يداه المخضبتان بالدم على بطنه • وقفزت الى اليسار وركضت وقد تخدرت قدماى من ثلاث ساعات قضيتها فى السيارة • اتضحت فى مسمعى رماية مدفع رشاش ، يطلق من سيارة أخرى تحمينى منها سيارتنا • أصابتنى رصاصة قطعت رباط الساق فى تزلكى اليمين فانتشر مثل كاس الزهرة وقد أمسك به رباط القدم • على ان أتوقف لأنتزعه • رصاصة فى الساق اليمنى • الم خفيف جدا • لا أستدل على اصابتى الا من الدم . التواء فظيع فى الساق اليسرى •

هذان اللذان يحملاننى مثل الصرة الملفوفة ، لا يبدو عليهما الشر بتاتا • سوف ياتى غيرهما • هو شىء لا يعقل أبدا ـ كيف تمكن الألمان من الوصول الى جرامات •

الله يعلم كيف ينتهى الأمر بعد هذا الطريق ، وسماء يولية المشرقة من فوقه كأنها تريد الاقامة فى الأبد ، وهؤلاء الفلاحون ينظرون الى وقد تشابكت أيديهم على ظهر الفئوس ، والفلاحات يرسمن علامة الصليب كأنها سلام جنائزى •• وقد لا أرى يوم انتصارنا • فما معنى هذه الحياة، واى معنى يكون لها أبدا ؟ بيد أنى أتوق بفضول فاجع ، الى معرفة ما ينتظرنى •

طالعنى منذ البيوت الأولى ، صف من الدبابات تملأ الشارع • والفرنسيون ينظرون الى بقلق ، والألمان بدهشة • دخل بى الحمالان الى مكتب فى جاراج • استفهم أحد الملازمين من الضابط الذى يصطحبنى • ثم سألنى عن أوراقى •

كانت فى جيب سترتى ، فلم يشق على أن أخرجها • ومددت اليه المحفظة وأنا اقول :

ـ انها أوراق مزيفة •

ترجم كلامى دون ان ياخذ المحفظة • كان منظر الملازمين منظر فرختين تقفان أمام الفونوغراف • عاود الحمالان السير • ودخلنا هذه المرة فى جرن صغير • ونصبت النقالة على أرجلها المفصلة • وخرج الألمان وادير

المفتاح فى القفل · أبصرت امام الطاقة الضيقة جنديا يتولى النوبة · حاولت الجلوس على النقالة · ان ساقى اليسرى لتكاد تؤلمنى · انا احس بخمول شديد وخبل . لابد أنى فقدت كثيرا من الدم فما زال يسيل على الرغم من المناديل التى ربطت حول فخذى .

رأيت شبح الديدبان وهو يعظم بالسلاح ، ودار المفتاح ودخل ضابط يشبه « ليستر كيتون » :

ــ اية خسارة لعائلتك المسكينة ! انت كاثوليكى ، أليس كذلك ؟

ــ اجل ·

لم يكن الوقت مناسبا لعرض فى فلسفة اللا أدرية ·

ــ أنا القسيس الكاثوليكى ·

ونظر الى المناديل الدامية وقال :

ــ أية خسارة لعائلتك المسكينة !

ــ لم يكن طريق الآلام شيئا سر به عائلة المسيح يا ابى ، صحيح اننى لست المسيح ·

نظر الى وهو اشد خبلا منى · خبلنى الارهاق وخبله البله · سألنى : ــ هل لك أبناء ؟

ــ للأسف · هل أحاكم ام لا ؟

ــ لا ادرى · ولكنك تستطيع أن تستدعينى اذا احتجت الى نجدة من الدين ·

وفتح الباب · ولاح منه شبح أسود تماما على سماء لا يزال بها الألق · وقال كمن يريد الاستئذان :

ــ على كل حال فهى خسارة كبيرة لعائلتك المسكينة ·

هو قسيس عجيب أم هى ديانة عجيبة · لو كان قسا زائفا لالقى على بعض الأسئلة على الأقل ·

جاءنى صف ضابط امرنى بالخروج باشارة من يده · وكان الفناء مليئا بالعساكر · واستطعت أن أسير بضع خطوات · أدار وجهى الى الحائط ورفع يدى فوق راسى واسندهما الى الحجارة · وسمعت أمرا يصدر بالألمانية «أختونج» (انتباه) فاستعدت · كنت امام طابور الاعدام ·

ــ كتفا سلاح !

تذكرت أن السلاح يرفع قبل الاعدام وتبادر الى ذهنى حلم حلمت به

حديثنا : كنت في قمرة باخرة ، وطار زجاج الكوة فتدفقت منها الميــاه ؛ ورأيت حياتي قد انقضت ولا مناص ، وعلمت انها لن تكون غير ما كا نت ، فانفجرت في ضــحكة لا تريد أن تنتهي (مات أخي رولان بعد ذلك بوقت قصــير في حادثة غرق «الكاب ــ اركونا») وقد اشرفت مرارا على الموت العنيف ·

ــ تصويب !

نظرت الى الرءوس المنحنية على خط التنشين ·

ــ صفا !

تأبط الجنود بنادقهم ومضوا وهم يتمايلون بضحكة آسفة ·

لماذا لم يطلقوا النــــار من حولي ؟ ولم يكن في اطــــلاقها خطر على الآخرين ، فقد كنت واقفا امام الحائط · لماذا لم اعتقــد حقــا في وقوع الموت ؟ لقد رأيت الموت أشد تهديدا لحياتي على الطريق الى جرامات · وأما هنا فما احسست بالشعور الذى أعرفه خير المعرفة ، بأنني موشــــك ان يبتغيني الرصاص ، ولا أحسست بشعور الانفصال العاجل عن الحياة · سألني سانت اكسوبيرى فيــما مضى عن رايي في الشجاعة فأجبته بأني اخالها نتاجا غريبا وعاديا لاحساس الانسان بأنه محجب · ووافقني سانت اكسوبيرى وان لم تكن موافقته خالية من الدهشة · والتمثيلية التيحضرت فصـولها لم تنل من هذا الاحساس في نفسي · اعوزتها الهالة التي تحكم الموت والجو الذى يسود طقوسه ؟ أو ربما كنا لا نوقن بالموت الا اذا رأينا رفيقا يسقط الى جانبنا ؟ عدت الى الجرن وقــد بدأت آلفه · ورقدت من جديد · دخل ضابط وجنديان امسكا بالنقالة وخرجنا · ملازم ثان ، ليس من شباب الضباط ، فقد تجاوز سن الاربعين · منتصب القوام ، فارع ، أحمر الشعر ، خشن · حليق · تقدم النقالة بعد قليل فلم أعد أرى منه غير ظهره ·

ذهبنا الى العيــادة · حدجتني الممرضة بنظرة حاقدة · اما الطبيب والممرضون الذين عاشوا ورأوا ، فقد بذلوا عنايتهم في تضميد جراحي · ومضيت في النقالة من جديد · ونزلنا الى قبو · كنت أعرف فيما تستخدم الأقبية ، وأذكر قول داميان : «سيكون اليوم عصيبا» · كلا · فقد صعدنا من جــديد ، وسرنا ما يقرب من الكيلومتر ، وليست جرامات بالمدينــة الكبيرة · الدبابات في كل مكان · والسكان امام النقالة ، يهربون · بلغنا عزبة منتحية ودخلنا الكرار · زحافة وجرافات ومدار خشــبية · لقد رأيت في معارك ١٩٤١ أمثال هذا الكرار الذى يبدو كأنه من صنع الأزل · ولكنني لم اتبين حينذاك الى أى حد تبدو هذه الأدوات (والزحافة بالذات)

عدة للتعذيب . وانطلق الموكب من جديد وتوقف مرة بعد اخرى فى مكانين مشابهين . وانتابنى شعور بأنى فى رحلة تبحث عن زينة تجدى مشـــهد التعذيب . ولم اعد أرى الجنود فلا بد أنه قد تم تجميعهم . العزلة ومدينة تسكنها الدبابات النائمة ومنازل افترشـتها مدار وزحافات تصلح لتعليق الجثث . بعد خمس دقائق توقف الحمالان أمام « فندق فرنسا » وقال الملازم :

ـ كومنداتور (الحكمدارية)

كان للمقاومة فى هذا المكان صندوق بريد .. لقد قام الألمان بإخلاء المكتب . وجلست صاحبة الفندق عند خزائنها . شـــعر أبيض وملامح متناسقة وياقة مشدودة : مديرة بنسيون . لقد رأيتها قبل ذلك مرتين .

والقى الألمانى بسؤاله على الماشى : ـ هل تعرفينه ؟

اجابت منصرفة ولم تكد تنظر الى : أنا ؟ لا .

سألنى : وأنت ؟

ـ رجال المقاومة لا ينزلون فى الفنادق للأسف

لم يكن يفصل المكتب عن البهو الصغير غير باب بمصراعيه يرتفعان عن الأرض .

وجلس الملازم خلف المكتب . وضعت على البلاط الأسود والأبيض دون أن ترفع مساند النقالة . ودخل جندى يحمل لفة فى يده ، وتفحصنى بفضول أكثر منـه بعـداء ، ثم جلس الى يـسار الضابط . الشارع ضيق وقد أضيء منذ هذه الساعة بنور الكهرباء . الكاتب امتد جبينه وذقنه مثل قرن الفاصوليا . والمحقق استطلع أنفه الهواء واستدار فمه الصغير مثل العصفور الدورى . ليس فيه من الألمان غير شعره الأحمر قص مثل الفرشاة وجز من حول أذنيه المنفصلتين . وقد ترفه كلاهما فى جلسته .

ـ أوراقك ؟

قمت وتقـدمت خطوة وناولته محفظتى . ثم استلقيت من جـديد وكنت مشرفا على الاغماء . ولكننى مازلت فى وعيى ، فقد بدأت الجولة

ـ قلت لزميلك ان هذه الأوراق مزيفة .

وكان العصـفور العجوز يتأملها بامعان . بطاقة شخصية وتصريح بالمرور وما الى ذلك من الترهات باسم برجيه . وورقة من فئة الألف فرنك . وصورة فوتوغرافية لزوجتى وابنى . صنع منها كوما صغيرا وضعه الى جانب المحفظة .

ـ هل تتكلم الالمانية ؟
ـ كلا ٠
ـ اسمك وصفتك ؟
ـ القائمقام اندرى مالرو ، المسمى بالكولونيل برجيه ٠ انا القائد العسكرى لهذه المنطقة ٠

نظر متحديا الى سترتى الحالية من الشرائط ٠ اية حبكة كان ينتظر ؟ لقد أخذت وأنا فى سيارة تحمل علما مثلث الألوان عليه صليب اللورين.

ـ من اى تنظيم ؟
ـ ديجول ٠
ـ لديكم ٠٠٠ اسرى ، اليس كذلك ؟

كان يتحدث بلهجة اهل الشمال ، المانية خشنة ، وليست تيتونية اصلا ٠ وعلى استجوابه صفة الوعيد ولكن ليس فيه روح العدوان ٠

ـ حوالى مائة من الأسرى ، فى الوحدة التى تتبعنى مباشرة ٠

اية لعبة غريبة يلعبها القدر ! كان العرف يقضى ، ولا أعلم لماذا ، بأن يحاكم اسرى المقاومة امام مجالس حربية ٠ وقد حضرت مثل هذه المحاكمة وقد نصب قادة المقاومة من أنفسهم قضاة ٠ وسمعت مرافعة الاتهام وكانت مقبولة لأن الحقد يشبه الحقد دائما ، ثم تمثيلية دفاع يلقيها كاتب من كتبة المحاكم يشبع فيها رغبة عشر سنوات فى تأدية دور المحامى ٠ وكان ذلك فى قاعة واطئة رطيبة فى قصر بمقاطعة لوث ، ومن الخارج يأتينا صياح الماعز فى جو شديد الحرارة وبين زهور صفراء ٠٠٠ وقد سلمت بالأمس السترة التى كنت ارتديها ، لكى اراس مجلسا حربيا ٠ وكنا قد حررنا زهاء العشرين من أبناء الألزاس ٠ وكان الألزاسيون كثرة فى صفوف الفرق التى تحاربنا وفى صفوف المقاومة ٠ وقد انشىء منهم فيما بعد لواء الألزاس لورين. وقد اقترح احدالملازمين من ضباطنا، وكان يعمل مدرسا فى منطقة كولمار ، أن يتولى الدفاع عن الألمان ، وقال باللغة الفرنسية ، ثم بالألمانية : « ليس بين هؤلاء من ينتمى الى فرق العاصفة أو الى الجستابو . فهم جنود ولا يمكن ان نعدهم جنودا لأنهم جندوا للحرب ونفذوا الأوامر التى القيت عليهم ٠ وكان رجالنا كثيرين فى آخر القاعة ، وكنت احس بقلق أبناء الألزاسيين ٠ ثم تقرر أن نسلم الأسرى لأول وحدة من الحلفاء نلحق بها .

●

ـ كيف يعاملون ؟

وضع كاتب الاختزال قلمه ٠

ـ يقضون وقتهم فى اللعب على العقلة ويطعمون مثل رجالنا ٠ لقد انتهت الحرب بالنسبة اليهم ٠

كان العصفور العجوز يتساءل هل أنا أسخر منه ، دون ان ياخذ بهذا الظن ٠ قلت :

ـ كانوا يتوقعون وحوشا فى ثياب مهلهلة ، فوقعوا على جنود فى كسوة عسكرية ٠

ـ أنزلوا بالمظلات ؟

ـ بل جنود المقاومة الفرنسيون ٠

ـ أين هم ؟

ـ من ؟ الأسرى ؟

ـ الأمر سواء !

ـ رجال المقاومة أكثر من الأسرى على كل حال ٠

ـ أين هم ؟

ـ لا أعرف شيئا لحسن الحظ ٠ ولكن واضحين ٠ لقد كانوا فى غابات سيوراك ٠ ومنذ ساعتين على الأقل ورجالى يعلمون أنى قد وقعت فى ايديكم ٠ ومنذ ساعة ونصف الساعة تولى خليفتى القيادة ٠ وهو حائز على شهادة الامتياز من كلية اركان الحرب ٠ ففى الوقت الحالى لم يبق فى المعسكر أحد من جنودكم أو من رجالنا ٠

اطرق ثم قال :

ـ ما هى مهنتك فى الحياة المدنية ؟

ـ أستاذ وكاتب ٠ وقد ألقيت بعض الأحاديث فى جامعتكم ٠ فى ماربورج وليبزيج وبرلين ٠

الأستاذية لقب وقور ٠

ـ أنت تعرف الألمانية بالتأكيد ٠ ولكن لا اهمية لذلك ٠

ـ كتابى الأول « الأمل » ، ترجمة ماكس كلاوس ٠

لقد أصبح ماكس كلاوس نازيا ٠ وكان يعمل وكيل وزارة فى مكتب جوبلز أو شيئا من هذا القبيل ٠ وازدادت حيرة الرجل الفنى يحقق معى ٠ فبدأ يلعب لعبة القط والفار ٠ وبعد عشر دقائق كنت اقول :

ـ يا سيدى الملازم ، أرانا نضـيع الوقت سدى · انت فى العادة تستجوب أسرى يزعمون انهم ابرياء ، او هم أبرياء فعلا ، وعليك أن تحملهم على الاعتراف · وليس لدى ما اعترف به : أنا عدوكم منذ يوم الهدنة ·
ـ ولكن الماريشال بيتان هو الذى وقع الهدنة ·
ـ تماما ، فلست أنا الذى وقعتها · تراني اذن من الرماة الأحرار · ويمكنك لهذا أن تحكم باعدامى ـ بعد أن تزن عواقب الأمور · أما اذا أردت أن تعرف الباقى فان مساعدى كان يقـود الفرقة فى مراكش وأنا كنت اقود ··· فى مكان آخر · وليست حرب العصابات حرفتنا · وليس لنا موضع واحد للهبوط. ولا اتصالات الا على المسالك المكشوفة يغطيها أربعة من الراصدين · والقوات الألمانية لم تأسر واحدا من جنودى أبدا · وما وجودى هنا الا لأنكم قمتم بحركة بارعة جدا وأنى القيت بنفسى مثل الأحمق تحت نيران رشاشاتكم . ولكنكم بالقبض على قد اطلقتم جهاز الانذار . فتم اخلاء كل المواقع المركزية الى مسافة مائة كيلو متر . واذا اردت ان تعرف مدى انتشار قواتنا ـ وتعرف بالمثل الطريقة التى يعامل بها الأسرى ـ فما عليك الا ان تستدعى الميليشيا . ويمكنك ان تامر بتعذيب جنودى اذا قبضت على بعضهم ، دون ان تنال منهم شيئا · لأنهم لا يعرفون شيئا · فان تنظيمنا كله يقوم على انه ليس فى امكان اى كان من البشر ان يعلم كيف يكون تصرفه عندما يواجه التعذيب ·
ـ ان الفيرماخت (١) لا تعذيب ·
ـ وفوق ذلك فان وحدة مثل وحدتكم لديها ما يشغلها اذا اجتمعت كل الفرقة ·
وسألنى عن الأماكن القديمة لمواقعنا المركزية . وذكرت له قصورا هجرها المتعاونون ، وباحات فى الغابة قد يجد فيها بعض المسالك وآثار نيران · لا حديث عن أشجار السنديان القزم التى يظنها الألمان غير صالحة للاستخدام · اما عن حقيقة الشخصيات القيادية فى عصابات المقاومة الأخرى فان الجستابو والميليشيا يعرفان أسماءهم الحربية مثلى ، وأما أسماؤهم الحقيقية ، فلا ازيد معرفة عنهما (بأسماء بعضهم على الأقل ···) ولا شك أن العصفور العجوز قد تلقى امرا بمعاملتى معاملة أسرى الحرب ، ولكن هذا كله ليس بالطبع الا بداية · وتكلمنا فى شئون المقاومة · وضخمت من عدد قواتنا · وأوشكت الجلسة أن تنقلب الى حديث بتجاذبنا ·

---

(١) قوات الدفاع الوطنى ·

ومضى الالمانيان عنى ، ربما ذهبا لتناول العشاء ؟ على الجانب الآخر من الباب ديدبان يتولى حراستى · أراه الى ارتفاع الساق فقط · وكثيرا ما يمر الألمانى بالبهو الصغير فيقف ليثرثر معهم · كنت أريد التفكير - ولكننى قد عبات قواى كلها لمواجهة التحقيق ، ففشينى الارهاق ونؤت بوطاته ·

وفى الساعة التاسعة مساء (كان فوق المكتب ساعة حائط ضخمة سوداء) وصل المانيان آخران ومعهما أوراق لابد انها تحتوى على ملخص لاستجوابى · القيا على الأسئلة التى القيت من قبل · ورددت عليها بنفس الاجابات · هل كان ذلك لمراجعة أقوالى ؟ لا يهم · ذهب الألمانيان ·

وبعد ثلاثة ارباع الساعة ، تقاربت منى طرقات كعوب · وفتح الباب على مهل وكان فى العادة يدفع دفعا · وجلس خلف المكتب ضابط برتبة الأميرالاى · وليس معه سكرتير · هو يشبه الذين سبقوه · كلا · ماتبادر ذلك الى ذهنى الا لأنى لم أتعود ان ارى البشر من أسفل الى أعلى · ولكن شعره كان ابيض ·

سألنى : ـ ما الذى تأمل فيه ؟

ـ من اعمالنا العسكرية ··· أم من قدرى ومصيرى ؟

ـ من أعمالكم ·

ـ اعاقتكم بالطبع ·

اطرق براسه كأنه يصدق على كلامى او كأنه يريد ان يقول : هذا ما كنت أظنه ·

ـ علام ترتكبون اعمال التخريب وفى امكاننا اصلاحها بسرعة ؟

ـ هذه هى الخطة ·

(وكان ايضا لأننا لا نستطيع فى بعض الأحيان أن نفعل خيرا من ذلك) ·

ـ ألم تشترك فى الحرب الأولى ؟

ـ كنت صغيرا · بطاقة شخصيتى مزيفة ولكن تاريخ الميلاد صحيح : ١٩٠١ ·

ـ وقد حاربت فى هذه ؟

ـ اجـــل ·

ـ فى أى سلاح ؟

ـ الدبابات ٠

(واية دبابات ٠ هذا شيء لا يعنيه ٠ لقد كنت بالأمس أحد دباباته)

وكان ينظر الى أوراقي لاهيا عنها ، كأنما يريد أن يشغل يديه بشيء ما ٠

ـ هل لديكم أسلحة مضادة للدبابات ؟

ـ اجـــل ٠

لا يمكن ان يجهـل الجستابو أن لنـدن تلقي الينا مدافع البازوكا بالمظلات منذ شـهر واكثر ٠ فهو شيء يعلمه ، أو يخشاه اذا أردنا الدقة. فالدبابات في الغابة لا تتاتى لها التغطية الا عن طريق المشاة ٠ وكانت الفرق المصفحة الألمانية مزودة بمشـاة محملين ولكن اذا بقي المشـاة في اللوارى فهم لا يحملون الدبابات ضد مدافع البازوكا ٠ واذا انتشروا لحماية الدبابات على جانبي الطريق ، لم يعد بامكانها ان تسير باسرع من خطوة القدم ٠ ولم يكن يبـدو عليه شيء من الدهشة ولا كثير من الاهتمام ٠ يبدو عليه الفضول بالأحرى ٠ هل اراد أن يرى ضـابطا يرى فيه خفايا المقاومة التي تحيط به ؟ أم هو يعاود اللقـــاء بالجيش الفرنـسي « وبرغوث الخنازير » أبناء فردان ؟

رتب الأوراق الى جانب المحفظة ٠ ثم نهض ولف من حول المكتب ، فمر من أمامي وتناول محفظتي واعادها الى ٠ تأكدت من اللمسة الأولى أنها لم تعـد فارغة ٠ ودق الديدبان كعبيه في الخارج ٠ كان الضابط الألمـاني قد أعاد الى جيب محفظتي صورة زوجتي وابني ٠

●

ولا يخلفه أحد ٠ فهل انتهينا لهذه الليلة ؟ السبات يطفو على الفندق٠ والمصباح الكهربائي لا يزال مضـــاء في المـكتب ٠ ظننت أني لن أنام ٠ أخطأت ٠ غلبني النعاس كبعض أيامي في اسبانيا عندما كنا نتبع معارك الطائرات بوجبة غذاء ٠ ورحت نائمـا طينة مثلما يقال سكران طينة ٠

●

الشروق ٠ والنهـار ٠ بدأت الأبواب تخفق في الطوابق العليـا ، وابواب الدور الأرضي تروح وتجيء ٠ صوت مياه ٠ عاد الصفور ذو الراس الفرشاة ٠ وجلس خلف المكتب دون أن يقول شيئا ٠ كثرت أحذية البوت فوق الدرج ٠ تبينت الهمهمة التي تسري في الفنادق والعنابر وتسري على الأخص في ســاعات الرحيل ٠ لماذا تبدو اللغة الألمانية عندما يتصايحـون بها وكأنها تعبر دائما عن الغضب ؟ وكانت الأصوات تتلاقى وتشتبك ٠

ـ هل عندك زبد يا مدام ؟

ـ كلا ٠

ـ عندك شوكولاته ؟

ـ كلا ٠

ـ عندك عيش يا مدام ؟

ـ بالتناكو ٠

ثم لا يعودون الى الطلب ٠ لا شك ان صاحبة الفندق قد تركت خزانتها ٠ فترة تمضي ٠ أسمع أحذية البوت صاعدة ومعها رنين القروان ٠ ثم جاءتني من الطوابق العليا همهمة غريبة ، تزايدت وهي تدنو ، همهمة الأطفال عندما تكشف امامهم شجرة عيد الميلاد ٠ وفتح الباب ، أزاحت ما بين مصراعيه صينية عليها طاسة قهوة اللبن ما زال دخانها ، وشرائح كبيرة من الخبز الأبيض مدهونة بالزبد ٠ تحملها صاحبة الفندق ٠ هي قد اجملت زينة راسها الشائبة ؛ وارتدت كأنها ذاهبة الى الكنيسة فستانا اسود، ولأنها قادمة من المطبخ مريلة بيضاء. نظرت الى رقع البلاط ملطخة بالدماء (نزفت جراحي في الليلة الماضية) فاقبلت نحوي وركعت : ثنت الى الارض ركبة ثم أخرى . ليس من السهل على امرأة مسنة ان تركع وهي تحمل صينية ٠ نهضت بعد أن وضعتها على صدري ، واتجهت الى الباب ، وهناك التفتت ـ وفي موضع الركبة ، بقعتان كبيرتان قانيتان على المريلة البيضاء ـ ومثلما كانت تقول من أربعين سنة مضت ، عندما تزجر بعض أبنائها : « سيسعدني ألا تمد يدك الى شطائر اخوتك » ، قالت ولكنها اكتسبت هذه المرة لهجتها شيئا من الجلال لا يكاد يبين ٠

ـ هذا للضابط الفرنسي الجريح ٠

وانصرفت ٠ وكنت أسمع أحذية البوت تفسح لها الطريق ٠

كان عصفوري يتأملني وقد فغر منقاره ٠ انتزاع الشطائر من رجل جريح لعمل هزء ٠ ولكن الأمر مثير من جهته ٠

قلت له : ـ فلنتقاسم ٠

نهض من مكانه وخرج ٠ وعاد بكوب ٠ وتناول احدى شطائري ووضعها على المكتب ٠ وتناول الطاسة ليصب منها نصف القهوة واللبن في كوبه . لسعت يده، وضع الكوب على المكتب وتناول الطاسة بمنديله وصب وهو معني بحساب النصيبين ٠ واعاد الطاسة ٠ وعلى الدم السائل فوق البلاط الأبيض ، اصبحت الآن آثار نعال كبيرة تتجه الى المكتب ، وأخرى صغيرة ٠

قمنا حوالى الساعة الثامنة ومضينا • وكانت صاحبة الفندق قد عادت •

ـ اشكرك يا سيدتي • لقد كنت رائعة منذ حين • كنت تشبهين فرنسا •

توقفت عن الكتابة . لقد ظل وجهها بلا حراك، وتبعتني نظرتها حتى اغلق باب الفندق من جديد •

بعد اقتيادى الى العيادة ، وتضميد جراحي ، حلولت الوقوف والسير لبضع خطوات • بلا جدوى • دسونى فى سيارة نقل مصفحة ، ربما كانت عربة الاسعاف • فى مؤخرتها باب مزدوج متربس من الخارج • كان بها اربعة قطاعات ولكننى كنت وحيدا ، ممددا على ظهرى.أرى المناظر وهى تفر من شبكة النافذة الصغيرة المثقوبة فى الباب ، وصفا متتاليا من اللوريات • هل يهاجمنا رجال المقاومة ؟ لا اعتقد ، لأن المنطقة ، وكانت جبلية الى حد ما ، خالية من الأشجار ، وليس هناك فيما اعلم ، وحدات مقاومة مهمة قبل الجارون . لابد ان الفرقة المدرعة تقوم بحملة تاديبية . لقد شاهدت فوق الطريق ومنحنيات النهر قرانا وهى تحترق تحت خيط طويل من الدخان ، منحرف فى الهواء •

اصبح من حقى أن انزل كلما وقف الطابور •

وفى فيجاك (التى كان يسكنها روجيه مارتان ديجار •••) حمل الى بعض الفلاحين عصا واختفى •

وتقول لى كل عين فرنسية اقابلها : أنت مقضى عليك • ولم يكن ذلك اعتقادى حتى الساعة على الأقل • كنت افترض اننى مساق الى استجواب جديد أو الى المحاكمة • على انه يتحتم أن يحدث شىء ما •

وفى فيلفراش دى رويرج ، عرفت من الوهلة الأولى كنيستها التى يقترب بناؤها من الكنائس الأسبانية ، والتى استفدت منها ديكورا لبعض المشاهد فى رواية « الأمل » • وتوقف الطابور هناك لقضاء الليل • وانزلت فى الدير • وما ان رقدت على فراشى حتى جاءتنى رئيسة الراهبات بالقهوة • جميلة لم تتجاوز من الأربعين •ابتسمت وهى عابرة للجندى الذى يتولى حراستى ، بسمة لا نفاذ اليها •

لقد تساءلت أحيانا عن الانجيل وما يصبح من شأنه امام الموت •

ـ يا أمى ، هل يمكنك أن تعيرينى انجيل يوحنا ؟

ـ طبعا !

وجاءتنى بنسخة من التوراة وذهبت • أردت البحث عن سفر يوحنا ، ولكننى استفتحت حيث وضعت هى الشريط • قد كان فى الامكان أن

اقتل مرارا فى آسيا وفى اسبانيا وفى بلادنا · أنا لا أسأل هل كان فى الامكان أن أظل فى حال منزلى بدلا من انتظار المحاكمة أمام مجلس حربى او الاعدام رميا بالرصاص على شفا حفرة من الأرض ، فهى فكرة أتفه من أن تنتظر · حتى فى هذه الليلة ، كانت التهلكة تبدو لى شيئا غير ذى بال · أما الذى يستحوذ على اهتمامى ، فهو الموت ·

انا لم اصادف القديس يوحنا أمام الموت · لقد التقيت به فى افيسوس وبالذات فى العالم البيزانطى والسلافى الذى بجل ضريحه تبجيلا يضاهى به قبر المسيح · وحفظت ذاكرتى من خلاله صورة ليسوع على جانب من التعقيد : صورة مقنعة وقريبة مثل القديس فرانسوا داسيس . ولم يكن ذلك الا من بين شغاف النص الذى يشير فيه يوحنا الى نفسه بقوله : « التلميذ الذى كان يسوع يحبه » · وكنت أذكر تجار الحمام الذين طردهم من المعبد ، وأذكر بعض الفقرات التى تجعل من الانجيل ترنيما مرتلا : « لأن ساعته لم تكن قد جاءت بعد » و « ألعل شيطانا يقدر أن يفتح أعين العميان ؟ » وأذكر نبرة الليل فى قوله « يا أبى ، انقذنى من هذه الساعة » ، وفى الكلمات التى توجه بها الى يهوذا : « ما أنت تعمله فاعمله بأكثر سرعة » · كنت اذكر قصة المرأة الزانية التى تروى كثيرا على أنها حكم ، بينما المسيح لا يلتفت الى المدعين ولا يلتفت الى المرأة ، ويقول : « من كان منكم بلا خطية ··· » وهو لايزال يكتب على الأرض وعثرت من جديد على قول الانجيل : « لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكى لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية · لأنه لم يرسل الله ابنه الى العالم ليدين العالم بل ليخلص به العالم » · انا لم اصدق طابور الاعدام الهزلى الذى وقفت امامه فى جرامات ، ولكن لا شك انى قد التقى قريبا بطابور لا يهزل · وكان من الممكن فوق الطريق أن تصيبنى الطلقات فى راسى مثلما أصابت السائق ، بدلا من أن اتلقاها فى ساقى · واحسست احساسا قويا بأن كل ايمان يذيب الحياة فى الابدى والسرمدى وانا منهما مبتور . لقد كانت حياتى من المغامرات البشرية التى يصفها شكسبير بالأحلام حتى يبرر وجودها ، وليس هى بالأحلام · قدر يختتم مصيره أمام عشر بنادق ، بين مصائر أخرى كثيرة ، تزول وتمر مرور الأرض · ان جزءا لا قيمة له من ذاتى ، لشديد الاهتمام بما سوف يقع بى ، كالرغبة لى الافلات من الماء ، عند الغرق · ولكننى لا أطلب مغزى الدنيا من وثبات منتفضة · انما كانت العبقرية المسيحية فى اعلانها بأن صراط اعمق الأسرار الخفية هو صراط المحبة · محبة لا تحد بعاطفة البشر · ولكن تسمو بها وتجلو منها روح

العالم ، أقوى من الموت ، وأقوى من العدالة · « لأن الله لم يرسل ابنه لكى يدين العالم ولكن ليخلصه » · لقد التقيت ، وأنا وحدى أمام الموت ، بهذه النجدة المسعفة التى حدبت وأحاطت لمئات السنين بأنات اليائسين وحسراتهم ، عداد القبور التى سوف تدحرج فى يوم الدين · « يا رب أعنا فى سكرة الموت » · ولكن الايمان يقوم على التصديق · قد كنت معجبا بالهمهمة المسيحية التى غطت هذه الأرض التى سأرقد قريبا فوقها ـ ولم أكن مصدقها · ان ذكرى القديس يوحنا تقوى على الشفاء أكثر مما يقوى وجوده على الموت . ترى فى أى سفر شرقى قرأت ؟ «يمتنع معنى العالم على الانسان ، مثل سير مركبات الملوك عن العقارب التى تسحقها» وكانت الأمور من حولى تجرى وكأنما القيمة العليا عندى هى « الحقيقة » ـ ولكن ماذا كان يهمنى من «الحقيقة» فى هذه الليلة ؟

ماضى وسيرة حياتى ، لم يكن لهما اية اهمية · فانا لا أفكر فى طفولتى · وانا لا افكر فى أهلى · كنت أفكر فى الفلاحات غير المؤمنات يحيين جراحى برسم الصليب ، وفى العصا التى جاءنى بها الفلاح الخائف ، وفى قهوة فندق فرنسا وقهوة الأم الرئيسة · لم يبق فى ذاكرتى الا الأخوة · وطوال الساعات التى قضيتها فى سكون الدير الذى تؤدى فيه الصلوات ولا شك من أجلى ، وتطرقه من بعيد مناورة بعض الدبابات ، طوال هذه الساعات ، وحتى عندما خطرت على ذهنى عقارب بابل ، كانت تعيش فى صميم نفسى ، عميقة مثل قربى منيتى ، تلك اللمسة اليائسة التى تغمض بها الأيدى عيون الميتين ·

●

كان اتجاهنا دوما الى الجنوب ونمر دوما بقرى تحترق · وفى مدينة البى رقدت على اريكة فى قاعة كبيرة لا بد أنها كانت لدار العمدة · وجاءنى صاحب النوبة الذى لم يكن يتبع سلاح الدبابات ولكن سرية تعسكر فى المدينة · وجلس الى جانبى وأخرج من جيبه صورتين ، فرايت الماريشال بيتان ـ ولفرط دهشتى ـ الجنرال ديجول · وضع اصبعا على بيتان وقال : «كويس جدا» · ثم انتقل الى الجنرال ديجول وقال مستهجنا : « ارهابى ! » وتطلع الى فوجدنى فى انتظار البقية · رفع اصبعه كمن يريد أن يلفت الانتباه وقال « غدا » ، وانزلها الى ديجول : « يمكن : كويس جدا ؟ » ثم الى بيتان : « ارهابى ؟ » ، واتى بحركة تعنى : من يعلم ؟ وهز كتفيه وعاد الى نوبته ·

وفى « ريفيل » انزلت فى الدور الأرضى من فيلا مهجورة ، فكان عندى حديقة صغيرة · وتمكنت من السير قليلا وأنا استند الى العصا ·

وفى وجبة العشاء (وكانوا يصرفون لى طعام الجنود ، كما يصرفونه لضباطهم أيضا) طالعنى الى جانب الطبق ، سيجارة وعود كبريت ٠

وفى اليوم التالى ، حضر ضابط وجنديان لاصطحابى ٠ وجلست فى مؤخرة السيارة الى جانب الضابط ، الذى عصب عينى عند مغادرة البلدة ٠ لم أشعر بخطر يتهددنى بل احسست كان فى وجود العصابة حماية لى ٠ وعندما انتزعها الضابط كنا ندخل فى حديقة قصر أقرب الى القبح ٠ وامام عتبة القصر وقفت خمس عشرة سيارة : المجلس الحربى ٠

لم تكن تمثيلية الاعدام مقنعة ٠ اما هذا القطيع من السيارات فقد كان ٠ وهذا القصر الأبله ــ هل هو آخر قصر أراه ؟ ــ قد اكتسب الوجود الجم الذى يتميز به كل ما يمس المصير ٠ قال لى والدى قبل أن ينتحر بأيام ، ان الموت يلهمه حبا شديدا للفضول والاستطلاع ٠ وكنت أحس بالمثل ، لا بالنسبة الى الموت ، ولكن بالنسبة الى هذا المجلس الحربى ٠ وربما كان ذلك لأنه الشىء الذى مازال يفصل بينى وبين الموت ٠ فرجىء حراسى بأنى أسرع من خطاى فانقادوا عليها ٠ وكانت ابواب النوافذ التى تطل على الدرج تفتح على بهو فى طرفه قاعة كبيرة فيها حوالى العشرين من الضباط يراقصون « فارات رمادية » ٠

لم يكن هناك مجلس حربى ، ولكن حفلة بالو ٠٠٠

وفى الطابق الأول ، سرنا فى دهليز طويل أوصلنا الى باب مزدوج ٠ دخل الضابط ، دق كعبيه ، عظم هتلريا خرج ٠ اغلق الباب الذى اقف أمامه ٠ غرفة واسعة يأتيها الضوء من ثلاث نوافذ كبيرة مفتوحة على حديقة وبحيرة صغيرة ٠ خلف مكتب من طراز لويس الخامس عشر ، يلمع فيه البرونز المذهب ، جلس جنرال ٠ صليب حديدى مزخرف بأوراق السنديان ٠ جلس معاكسا لضوء النهار فلم اتبين وجهه تماما ٠ كان يلبس نظارة سوداء والضياء يبرق على شعره الشائب ٠ اتجه الى منضدة صغيرة تحيط بها مقاعد ، فجلس وأشار الى بالجلوس ٠ على المنضدة ، علبة فضية ٠ قدمها الى :

ــ شكرا ٠ لم أعد ادخن ٠

أشعل سيجارة ٠ ظهر لى فى الضوء الفجائى ، قناع غريب ، يتلاشى من جديد فى الضوء المعاكس ٠

ــ أريد أن أسمع منك لماذا لا تعترف بالهدنة ٠ ان الماريشال بيتان جندى عظيم ٠ هو بطل فردان كما تقولون ٠ لقد التزمت فرنسا ٠ ولم تكن البادئين باعلان الحرب عليكم ٠

ـ ان الأمم لا تلتزم بالموت ، عن طريق التفويض . اسمح لى أن افترض فرضا : أن يكون الماريشال فون هندنبرج رئيســـا للجمهوريه الألمانية ، فينشب نزاع عالمى ، تهزم فيه المانيـا كما هزمنا ، فيتعاقد الماريشال على الاستسلام . فيلقى الفوهرر (وهو ليس فى هذه الحالة مستشارا بالطبع) نداء من روما يدعو فيه المناضلين الألمان الى مواصلة الحرب . من الذى يلزم المانيا ؟ ومع من تقفون ؟

ـ لماذا يقيم ديجول فى لندن ؟

ـ قادة الدول فى لندن ، ما خلا واحدا يقيم فى فيشى . والجنرال ديجول لا يقود فرقة فرنسية تعمل فى خدمة الحلفاء .

ـ فيم يفيد ما تفعلون ؟ وأنتم تعلمون جيدا أن كل مرة تقتلون فيها جنديا ، نعدم مقابله ثلاثة من الرهائن .

ـ كل من يعدم بالرصاص ، يأتى المقاومة بثلاثة جنود . ولكن وجهة نظرى أن ليست هذه هى المسـالة . وسوف أطلعك على رايى مادمت مهتما به . هناك فى صفوف المقاومة كل لون من الناس . . .

ـ وعلى الأخص الذين يخافون من العمل الاجبارى .

ـ فيها بالفعل أناس يرفضون أن يخدموا المانيا . ولكنك تعلم جيدا أن كل نضـال يفترض روحا تحركه . وأنتم لا تدركون روح نضـالنا . تظنون أننا نقاتل لننتصر .

رفع رأسه . وكانت نظارته تخفى عينيه المندهشتين بلا شك .

ـ ان المتطوعين فى القوات الفرنسية الحرة والمتطوعين فى المقاومة ، لا يزيدون على حفنة أمام الويرماخت . ولهذا السبب فهم يوجدون . لقد منيت فرنسا عام ١٩٤٠ بهزيمة من انكر الهزائم فى تاريخها . والذين يقاتلون شـــهداء على بقاء فرنسا ، ســـواء انتصروا أو هزموا واعدموا بالرصاص أو عذبوا .

ـ الويرماخت لا تطلبه . ولكننى أعتقد فهمكم . وأرثى لحالكم الى درجة ما . أنتم الديجوليون شىء يشبه فرق العاصفة عندنا . ستكونون أتعس الخلق . اذا قضى علينـا فى النهاية أن نخسر الحرب ، ستجدون حكومة من اليهود والماســـونيين ، فى خـــدمة انجلترا . ثم يتسلمهـا الشـــيوعيون .

ـ اذا خسرتم الحرب ، فاعتقادى انه لن يحدث شىء مما يمكننى أو يمكنك التنبؤ به . فى عام ١٩٢٠ ، كان العالم كله يظن أن الأمر الحاسم

فى حرب ١٩١٤ هو انهيار القوة العسكرية الألمانية . ونعلم اليوم أن الامر الحاســم كان هو الثورة الروسية . وقد يكون هذه المرة نهاية أوروبا بوصفها سيدة على العالم . ولمدة عشرين عاما ، أو خمسين ، ستسوء الحال بالنسبة لفرنسا ، وتسوء بالنسبة لألمانيا . ثم تعود فرنسا من جديد ، وتعود المانيا ــ وربما عادت الحرب مرة أخرى ...

قام فظننته متجها الى مكتبه . ولكنه راح يمشى بلا هدف وهو ينظر الى السجاد . وأمام النافذة الوسطى انتقل وجهه الى الضوء . وادركت ما الذى اقلقنى عنــدما اشتعل عود الكبريت : تحت النظـارة وبقعتيها السوداوين ، كانت الوجنات عالية جدا تضفى على قناعه شـكل الدمية المتحركة .

ــ هل الذى قلته الآن عن المانيا يعبر حقا عن رايك فيها ؟

ــ سنصبح اخيرا اعداءكم من جديد . ولكن أيا كان مصير الحرب وايا كانت الأنظمة الحاكمة ، فأنا لا اعرف كثيرا من المثقفين الفرنسيين على استعداد الا يتقبلوا هولدرلين ونيتشه وباخ بل فاجنر ...

ــ انت تعرف روسيا السوفيتية ؟

ــ نعم . ان المانيا لا تنتزع من أوروبا .

ــ ارجوك ان تعيد ؟

ــ لا يمكن انتزاع المانيا من اوروبا ولا من العالم .

ــ سيحاولون ... وحوش الشرق وتجار الســيارات والأطعمة المحفوظة الذين لم يحسنوا الحرب يوما ، وانجلترا التى تسير وراء سكيرها الشكسبيرى ...

وكان قد التفت نحوى . والحجر المدخن يخفى نظرة عينيه . وكان هناك جنرالات المان يعدون للمؤامرة على هتلر . وكنت أجهل ذلك ، وربما كان هو لا يجهل .

ودق الجرس .

اجتاحت الأنغام الراقصة غرفتنا وتلوت مثل الأنبيق حول « الموت » المضطرب الحيران فى سترة الجنرال الألمانى . ومن النافذة بحيرة صغيرة لأصحاب الزوارق . تلوح من حولها الكبائن المهجورة . ودخل الضابط الذى كان يصطحبنى واشار الى بأن اتبعه .

وعدت الى حوض القرنفل فى حديقة ريفيل . عدت الى سيجارتى وعود الثقاب . وفى اليوم التالى جاءت سيارة مصفحة أخرى فى طلبى .

وجلس الى جانبى فى المقعد الخلفى ، جندى بالمدفع الرشاش . لم نكن نتجه هذه المرة الى الجنوب ولكن شرقا . وبعد ساعات دخلنا تولوز . وكان الليل يهبط . ميدان ويلسون ومقهى لافييت . ياما جلست هنا أثناء حرب اسبانيا . ذات يوم كنت فى الحديقة الصغيرة التى تتوسط الميدان ، ويدى فى جيب معطفى تلعب بالمسدس وفوهته الى الأرض ، واطلقت سهوا . ولم يلفت الصوت الذى أحدثه الرصاص أحدا . وجاءت سليمة لم تكلفنى غير ثقب ، وكنت اصفر بهجة ومرحا ؛ لأنى رايت فى واجهات المكتبات رواية « آل تيبو » يلفها شريط جائزة نوبل ...

وزجوا بى فى منزل بالميدان . غرفة جلوس برجوازية فى الدور المسروق ليس بها نافذة غير نصف طاقة دائرية .

فى الداخل قضبان . وفى الخارج ازواج يدورون حول الحديقة الصغيرة ويجلسون على أسطح المقاهى : حياة المساء لولا ازياء الجنود الألمان . وزوجة اخى تقطن حينذاك فى شارع الألزاس لورين على مسافة مائة متر من الميدان (أما أخى فقد ألقى القبض عليه منذ أكثر من شهر) .. وامر لى القائد الألمانى بطبق من البيض بالجامبون وزجاجة من نبيذ بوردو . هل يعتبروننى من الأسرى ذوى الحيثية ؟ لا يمكن أن تكون فيشى هى السبب ، فلم يحقق معى أى شخص من الفرنسيين . تذكرت نصيحة تقول : لاتفرغ زجاجة أبدا ؛ لأن الجستابو يستخدمها فى الضرب ، والزجاجات الفارغة أشد الهراوات ايلاما . لم أصل بعد الى هذا المقام . وكان الحوار تحقيقا بالكاد ، تجرى فيه كالعادة كلمات مثل : « الماريشال بيتان قد وقع الهدنة » و « الويرماخت لا تعذب » . وتكلمنا عن معركة فردان ، فقال القائد : « فى ذلك الوقت كنت أسير الفرنسيين » . وحملتنا السيارة المصفحة الى حى واسع الطرقات ولفت حول نصب الشهداء الكبير وتوقفت امام فندق فاخر . سرنا فى بهو ليس فيه من الأثاث غير مكتب يعمل خلفه اثنان من الضباط . ناولهما القائد أوراقى وقد انتقلت اليه من أسلافه الذين تتابعوا على حراستى . قال واحد منهما : « اربعة وثلاثين » (رقم غرفة ؟) . وقام زميله لمصاحبة القائد . وسرت بينهما . تركنا المصعد وطلعنا على الدرج الذى يغطيه بساط سميك تثبته شرائط من البرونز الناصع . وكنت متعبا ولكن الألمانيين قد أبطآ من سيرهما ليتفق مع خطواتى . وفى الممر وقف رجال الحرس الحربى ولا سلاح الا المسدس فى الجراب . وصلنا الى الطابق الثانى . والى الباب رقم ٣٤ . فتح الحارس الباب وأغلقه ورائى . ومضى الألمان الثلاثة ، وكتم بساط الممر خطواتهم .

كنت في قاعة استحمام كبيرة ، حولت الى غرفة . في احد أركانها سرير عليه غطاء وملاءات بيضاء . وقد اصطنعوا دولابا في الحائط الآخر . لا جرس . ولا مقبض للباب ، فخبطت عليه بقبضة يدى . جاءني الحارس ، والغدر في عينيه .

ــ المراحيض .

قادني الى قاعة فيها عشر مباول من الفخــار ، عمودية ، كالتي في المقاهي . ووقف خلفي . عدنا . اخذ يشخط وينطر . يعنى بلا شك أنه لا يجب أن أدق البــاب . هل يطول زعيقه ؟ نظرت اليه ثم صحت فيه بصوت لا يقل حدة عنه :

ــ ربما احضرت الى هنا لكى أعدم بالرصاص ، ولكننى لم احضر بالتأكيد لكى ترفع صوتك على ! كفى !

وقف مشدوها ، كما لو كنت تحولت بين عينيه الى أرنب ، فخرس واغلق باب غرفتي ، بعناية تحتمل الوعيد .

كانها صيحة ، غير أن الحارس منذ حين نهق . فتحت الدولاب . وجدت على الرف بعض الفضلات واقلام الرصاص ومسطرة برى طرفها بعناية . ولم يكن الحارس قد فتح الباب بالمفتاح ولكن بطفاشة . تفحصت الكالون . اللســان داخل في الرزة . لم يكن الباب مغلقــا الا لأنهم قد انتزعوا مقبضه والساق الحديدية التابعة له . ومن الثقب المربع الذى ادخل فيه الحارس طفاشته ، كنت أرى ضوء الممر وكأننى أنظر من خرم كالون .

كان طرف المسطرة موائما للثقب . ومسكته كافية لأفتح . وهــذا ما فعلته دون شعور . كان الحارس في الممر ، واقفــا على مسافة منى ، يعطينى ظهره . اغلقت الباب في صمت واعدت المسطرة الى الدولاب .

لم اكن لأقوى على الجرى . ولا السير على أطراف قدمى . ولكن في امكانى أن اتخلص من حــذائي . لا يكتب النجــاح لعملية الهروب دون الأخذ بمخاطرة تربك العدو . وهذه مخاطرة مثل غيرها . ولكننى استغربت وجود المسطرة في الدولاب . لعل من سبقنى الى هذا المكان قد براها ثم استدعى قبل أن يتمكن من استخدامها ؟ لا تترك الآلات الحادة في حوزة المساجين . يستطيع ان يصنع سلاحا من اى شيء كان (على ما يقال) . ولكن هذه المسطرة قد أحكم بريها تماما . وكيف لا يفتشون الدواليب ؟ « لقى مصرعه أثناء محاولة الفرار ... » . ما هذا السجن الذى يظهر فيه أنهم يكتفون بتسجيل المسجونين ؟

افترضت أن القائد يمثل السلطة التى سلمتنى اليها الفرقة المدرعة ٠ وقد رات هذه السلطة أنى جدير بالنزول فى بنسيون للعائلات غريب ولكنه لا يمت بصلة الى غرفة تمهيدية بعدها طابور تنفيذ الاعدام ٠ والمكان خال من النوافذ ٠٠٠ اذا كانوا لم يتخذوا قرارا باعدامى - على الأقل فى الوقت الحالى - فلابد أنهم يزمعون استجوابى فى باريس ٠ وعلى أن أعلم هل السطرة يمكن ان تفيد ؛ واذا كان النهار فى هذا البيت المحترم يشبه الليل . بدات فى خلع ملابسى . فتح الباب. الجندى الذى كان يصاحب القائد ، يصاحبه هذه المرة صف ضابط ٠ ارتديت ثيابى من جديد ٠ وفى الدور الأرضى أخذ الضابط أوراقى ٠ وركبنا السيارة المصفحة مرة أخرى ٠

الى حى ناء وبرج وسور طويل جدا . وازت فرامل السيارة وهى تنعطف الى الشمال ثم دخلت تحت قبة بناء ٠ وكان سجنا ٠ اجراءات التسجيل التقليدية ٠ لم يأخذوا منى غير الساعة ، وسلمونى ايصالا ! حبسونى فى قاعة كان بها حوالى العشرين سجينا تم احضارهم فى نفس اليوم ٠ كل واحد منهم يرتاب ويتحرز من الآخرين ولكن داء الاعلام يتحكم ويستبد بالجميع ٠ الداء الذى عرفته قديما فى معسكر سينس : « بيتان قتله فيجان فى قلب مجلس الوزراء ! - غير صحيح ! بيتان وفيجان قبض عليهما ماندل ! » واما فى هذه الليلة فكانت الأنباء تقول : « لقد تصدعت جبهة نورماندى واستولى المظليون على مدينة شارتر » ٠

وفى الغداة ، تم توزيعنا حوالى الساعة العاشرة ٠ بعد الدهليز المفروش بالبساط جاءت طرق السجون الواسعة وأبوابها ذات النوافذ ٠ كنت أتوقع زنزانة ولكننى دفعت فى عنبر - نافذتان كبيرتان بشباك من القضبان ، تحجبهما من الخارج صناديق لا تسمح بدخول الضوء الا اذا كان عموديا ٠ وجدت عشرة من المسجونين فى ثيابهم المدنية ، نظروا الى قدومى دون أن يتركوا الزكائب التى يفترشونها ٠ الا واحدا ، أحمر الشعر ، عريض البسمة ، صافحنى بحرارة وهو يقول :

- انا رئيس العنبر ٠ ارحب بك باسم الزملاء ٠ وأنا ادعى اندرى ٠

- وأنا أيضا ٠ شكرا ٠

- متى القى القبض عليك ؟

- الأسبوع الماضى ٠

تأمل سترتى الحالية من الشرائط وقال :

- انت من قادة المقاومة ٠

- أجل ٠

ـ من حسن حظك انهم لم يبهدلوك ·
ـ لم يفعلوا بعد · ربما كان ذلك بسبب السترة · ثم لأننا نحن ايضا قد أسرنا منهم عددا لا بأس به ·
ـ لا يا شيخ !
من كل فرشة اتجه المسجونون نحوى ، متشدين ، مثلما يحدث فى المسرح ·
ـ ما هى اخبار نزول الحلفاء ؟ لقد مرت ثلاثة أسابيع على آخر وارد الى هنا · عندنا التليفون ولكنه يكثر من نقل الأخبار الملفقة ·
ـ انتم تتصلون ببعضكم البعض ·
ـ اى نعم ، ولسوف ترى · ولكن بعد أن يحضر الألمان الشوربة ·
وجاءت الشوربة . فظيعة ، دون مبالغة . وقطعة الخبز تكفى ليعيش الانسان من الخبز .
وعندما اختفى صوت الصفائح من الطرقة ، اتجه اندرى الى النافذة وقال بصوت مسموع دون أن يصيح : « الو ، الو ، الو » · سكون تام · ردت الزنزانة المجاورة «الو» . اتجه اندرى الى الركن وجلس على الأرض، ودق بيده ثلاث مرات على الجدار الفاصل · وجاءته نفس الدقات من الناحية الأخرى · وكان المساجين يقفون بينه وبين المنور · قال بنفس الصوت :
ـ الحال ماشى ؟
كان هناك اثنان من زملائنا ، ينقلان الاجابات ، وقد انبطحت آذانهما على الحائط ·
ـ ماشى · وأنتم ·
ـ لقد استقبلنا اليوم عقيدا من عند ديجول · قبض عليه يوم ٢٣ يولية · يقول انه قد تم الاستيلاء على كان وسان لو · وان طائرات الحلفاء قد أنزلت المظليين فى وضح النهار · ولا يعرف شيئا بعد ذلك ·
ـ اخبار اكيدة ؟
ـ نعم ·
(قال لى أندرى : ولايهمك . الكل هنا متأكدون من كل شىء) ؟
ـ طيب · سنقوم بنقلها ·
وجرت نفس اللعبة عند الحائط الأيسر . ووالى الطرقة وامامى الشبابيك . وكانت الفرشة التى تركها صاحبها مجاورة لفرشة أندرى، فسنحت لنا بعد « التليفون » فرصة الحديث بصوت خافت · غلب النعاس

على الآخرين ، وقد فرغ ما لديهم من اقاصيص يتبادلون حكايتها ٠

ـ هل تظن انه لا يوجد هنا خرفان ؟ (١)

ـ لا تكثر من الحديث عن نفسك ٠ هذا كل ما فى الأمر ٠

وفهمت ما يعنيه ٠ ان الخرفان لا يمكنهم أن يبلغوا الا عن مشاريع هروب بعيدة الاحتمال أو مبالغات الذين يحبون التفاخر ٠ فسجن سان ميشيل محطة للانتقال ٠ عميد المقيمين فيه لم تزد مدته على الثلاثة الأشهر٠ وكل شهر تقوم قافلة الترحيل الى المانيا ٠ فكان الجو فى السجن جو محطة مقلقة وبانصيب وقلعة ٠ ولم نكن نجبر على القيام باى عمل ٠ وكان السجانون من جنود المشاة فهم لا يهتمون بامرنا كثيرا ٠ كان اندرى يقول : الهم « لا يبحثون عنا » ٠ وهم لا يجهلون الاتصالات الدائرة٠، لأن كل عنبر كان يلتقط الاشاعات مثلما يلتقط الأمواج جهاز اللاسلكى ٠ ولا أهمية لأى شيء ما دام « التمام » تماما ولا ينقص أحد من المسجونين ٠ وكان الترحيل الى المانيا لا يعنى الا ارجاء يوم الخلاص الى أجل بعيد جدا ٠ ولكن عند الساعة السادسة كنا نسمع خطوات تسير فى الطرقة ، لجنديين وموظف ، يقومون فى معظم الاحيان بفتح باب او بابين ويقتادون سجينا أو اثنين ٠ للجستابو ٠

فما ان تدق الساعة السادسة فى ابراج الكنائس ، حتى ينحفر الصمت على طول العنابر ٠

وقد عاد بعضهم ٠ وكان منهم واحد من عنبرنا ٠ قص علينا تعذيب « البانيو » بروح الفكاهة السوداء التى تسرى فى السجون ٠

ـ ليس مؤلما جدا ولكنه يعاود. ويكرر ، حتى تصبح كانك لا تفهم شيئا بالمرة ٠ ولا يتوقفون عن الشخط والضرب ، فعليك أن تنتبه تماما لكى لا تجيبهم الى ما يطلبون ٠ عليك أن تنتبه تماما ٠ المرة الرابعة من أقسى ما يكون ٠ ويمتلىء البانيو بالقىء وما اليه ٠ ظننت انهم سيغرقوننى مثل الفأر ٠

وانطلقت منه ضحكة متشنجة ، وربت على فخذيه وهو يقول :

ـ مثل الفأر !

« وعلى ذكر الفئران كانت هناك فأرة فى الزى العسكرى ، وهى أيضا تدق ـ ولكن على الآلة الكاتبة ٠ هل تعلمون ماذا قالت لى تلك

---

(١)مرشدون لادارة السجن ٠

الموسخ فى المرة الثالثة · « اخلص · كفاية · أنا استبشع هذا ! » كانت البهيمة ترى اننى اتقندر ! اليس عجبا ؟

« اذا كتبت لنا النجاة فخير لها الا تقع فى يدى ··· » ·

من هذه الحكاية وامثالها ، كان يتألف فولكلور سان ميشيل · قبل وصولى قام احد الضباط بجولة فى السجن لابد أنها كانت لمراجعة القوائم فقد أخذ يسأل كل سجين عن اسمه · وكان الجميع واقفين ماعدا صاحبنا الذى كان لا يقوى على النهوض · وعندما جاء الدور عليه نطق باسمه فنظر الضابط الى القائمة وقال : « تيروريست » (ارهابى) · فتقدم جاره الذى اطلق عليه المساجين بعد هذه الحادثة لقب الأستاذ (وقد رحل الى المانيا) ورفع اصبعا متفقهة وقال باحترام شديد : « لا تيروريست ، ولكن توريست (سائح) » · ثم عاد الى مكانه · وواصل الضابط تفتيشه حتى اذا أراد الخروج ، القى على العنبر نظرة دائرية وصاح بسخط وازدراء : « انتم كلكم توريست ! » ·

وصفق الباب من ورائه ، وهات يا ضحك ···

كانت القوافل القادمة هى شغل المساجين · كل منهم يريد الا تضمه · والذين نوديت اسماؤهم للترحيلة الأخيرة قد عادوا الى أماكنهم مع امتعتهم· ولم يكن للمسجونين شأن فيما يرد بالكشوف · وانما يجتهدون فى الا يجذبوا الانتباه لكى لا تدرج أسماؤهم فورا · لهذا السبب قال لى اندرى : لا تكثر من الحديث عن نفسك · الا أن الجميع ـ فيما عدا قلة من الذين قبض عليهم للاتجار فى السوق السوداء ، كانوا يتحدثون عن ظروف اعتقالهم . هو الموضوع الأثير المبتذل الأساسى الذى ينضب معينه . وبفضله علمت أن الفندق الذى قضيت فيه بضع ساعات ، بالقرب من نصب الشهداء ، كان مقر الجستابو فى تولوز . وأن قاعات الاستحمام تستخدم فى التحقيق والاستجواب · ولكنها فى العادة تخلو من الأسرة · والحارس الصياح الذى اشتبكت معه حتى صعق من جراتى ، كان بلا شك من الذين يتولون التعذيب · سخرية مشئومة تشبه رؤيتى البالو فى رحاب القصر · وشعور بأنى لامست القدر المحتم · يزيد من هذا الشعور أن روح السجن منذ أن تأجل قيام القافلة الأخيرة ، تحولت الى الانتظار العقيم العاجز ، لما تأتى به الأقدار : ترحيلة جديدة أو الجستابو · وتمضى بنا الأيام ، كما تمضى فى كل السجون ، فارغة الملامح ، الا توزيع الطرود التى يرسلها الصليب الأحمر أو الماريشال احيانا ووقع احذية العذاب كل مساء فى الساعة السادسة · حتى كان ذات صباح ، جاءتنا من بعيد زلزلة طويلة مكتومة ، صعدت من الجدران · تصلب الجميع بلا حراك ·

والصق البعض آذانهم : فالحجارة اصلح من الهواء فى نقل الأصوات التى تصدر من الأرض . ومرت ساعة . ساعتان . ثم عادت الألعاب التى تشبه ان تكون العابا ، وعادت السرحات الحالمة ، وعاد العدم .

وجاءت زلزلة أخرى أخف من الأولى . لم تكن من قصف المدافع . هل هى من اعمال التخريب التى تقوم بها المقاومة ؟ ولكن انفجار الجسور المنسوفة لايختلف عن القنابل التى تلقيها الطائرات . هل هى غارة من الحلفاء لا ترد عليها المدافع المضادة ؟ لم يكن شىء مما سمعناه عام ١٩٤٠ ، ولكن لحظة من المعارك الطويلة الساكتة تنقلها الأرض ، هدير فردان الذى لم يكن احد منا قد سمعه .

هذه الزلزلة التى امتنعت عن التفسير ، ولا تشبه عمليات النسف التى نزاولها ، كانت هى تقدم الحلفاء ـ ولو ان هديرها الثانى كان ابعد من الأول . لا صياح فى الشارع . ولا بنادق تطلق . ان ما يجرى كان يجرى بعيدا جدا . ولم تتغير حياة السجن .

ولكنها مقبلة على التغيير .

●

فى الساعة الثانية ، توقفت احدى الدوريات فى بعض الزنازين ، ثم فتح باب عنبرنا . وقال رجل المانى يرتدى الثياب المدنية .

ـ مالرو ، الساعة السادسة .

هو استجواب الجستابو .

تنبهت الى أننى كنت أعتقد أنهم نسونى .

حاولت ان اطلع من زملائى على ما لديهم من معلومات دقيقة . احاطتنى ، منذ ان أغلق الباب ، اخوة مثل اخوة السهر فى ليلة المأتم . حتى من المهربين فى السوق السوداء . معظم رفاقى يقصدون بالجستابو الشرطة العسكرية التى صرعتهم بالضرب . اما السجين الذى مارس البيسانو ، فهو يتحدث عن دراية وخبرة . ولكن الألمان قد استجوبوه ليكرهوه على البوح بالأماكن التى توجد فيها محطات الارسال التابعة لمجموعته . وقد عذب مرتين تفصل بينهما ثلاثة أيام . ومحطات الارسال تنقل من اماكنها كلما وقع احد أفراد المجموعة . وقد صمد فى المرة الأولى . واعطاهم فى المرة الثانية عنوان شقة أصبحت خالية .

عبثا احاول ان أستوضح معالم الأرض التى سوف يجرى الصراع فوقها . قال أندرى : « ان ما يقصه الرفاق لا يجدى فى شىء : الحالات

تختلف دائما ... » . هل هو استجواب عن مواقع المقاومة ؟ لقد اعتقلت منذ وقت طويل . هل هي مواجهة ؟ أم يريدون استخدامي طعما ؟ لقد احتطنا من قبل . وكنا نمتلك في مونتينياك مغارات لا يمكن للالمان أن يلاحقونا فيها . واتفقنا على أنه اذا اقترب احد منا وهو يحك أنفه ، فمعناه أن الألمان يتبعونه . وعلى رجالنا قبل أن يفروا ، أن يطلقوا النار في رأسه ، لكي لايقع تحت التعذيب مرة اخرى . وكان لي في هذه المغارات رفيقان من أسبانيا .

والمرجح أن ادارة الجستابو قد اطلعت على ملفي . ومعلوماتها أدق من الصحف ، فهي تعلم اذن أني لم أكن في يوم من الأيام عضوا في الحزب الشيوعي ولا الفرق الدولية ، ولكنها تعلم أني كنت أحد رؤساء اللجنة العالمية المعادية للفاشية والرابطة ضد معاداة السامية ، وأني توليت قيادة الطيران الأجنبي الذي كان يعمل في خدمة الجمهورية الأسبانية وقت أن كانت الأحزاب الشيوعية لا تعرف بعد ما تريد أن تفعله . للجستابو أكثر من عشرة أسباب تدعو الى اعدامي . فعلام يستجوبني ؟ ليس هناك انسان يسر بتوقع التعذيب . فكرت في أني كثيرا ما كتبت عن التعذيب، ويوشك ما كتبته أن يصبح كالنذير .

الساعة السادسة . فتح الباب وقد وقف المسجونون على جانبيه ، كل منهم يمد لي يده بالتحية .

المدني الذي جاء في الصباح . والحارسان . هبطنا الدرج . ظننت أني عائد الى الفندق ولكننا انعطفنا من الجهة المقابلة للشارع . وكان الفناء كثير البواكي . والحراس الألمان يلعبون النطة . سقط أحدهم في قفزته وراح يسبني . ثم توقفنا أمام باب أقرب الى الصغر ، مثل أبواب المكاتب في ثكناتنا . انفتح قبل أن يدقه الحارسان ، على جنديين يحملان رجلا يبدو أنه اسرائيلي ، قد تورم وجهه ، ويسيل من طرف فمه خيط من الدم ، وما زال يعمل بذراعيه القصيرتين كمن يريد أن يتفادى الضربات .

دخلنا الى مكان يشبه النقطة العسكرية . ضجة هوجاء : جندي يخبط بالشاكوش على لوحة من الصفيح معلقة في سلسلة يمسكها بيده اليسرى . ضجة تغطي عويلا وعواء .

وسجينة زائغة العينين تحاول وهي تنتفض ، أن تدخل ملعقة شاي من بين أسنان سجين مغمى عليه . سحق وجهه فلا أبصر ملامحه . وهي تذرف الشاي على الأرض وتعاود محاولتها . أوثقت يداي من الخلف ، وأدخلت في الغرفة الثانية . على اليمين واليسار أبواب مفتوحة على رجال

شدت ارجلهم الى ايديهم وانهالت عليهم أحذية البوت وأنواع من الهراوات لم أكن أميزها . ورغم الضجيج ، تهيأ لى أننى أسمع وقع الضربات المكتومة على الأجساد العارية . وارتفعت عنهم عينى لتنظر أمامى ، فلعلى شعرت بالخجل أكثر من الخوف . وكان وراء المكتب ، عيل أشقر أكرت ، يرمقنى بنظرة لا تعبر عن شىء . وكنت أتوقع أن يبدأ الاستجواب بالتحقيق فى شخصيتى .

ـ لا جدوى من الاجابات البلهاء : الست جاليتزينا تعمل الآن لحسابنا .

ماذا يقصد ؟ قد يفيدنى أن يسلك طريق الخطأ . المهم ان ابقى على وعيى ، رغم الجو والضجة واحساسى بانى أكتم .

ـ هل أمضيت ثمانية عشر شهرا فى روسيا السوفيتية ؟

ـ لم اتغيب أكثر من ثلاثة اشهر خارج فرنسا ، منذ عشر سنوات . ومن اليسير أن تأمر بمراجعة أقوالى فى مصلحة الجوازات .

ـ هل أمضيت سنة فى بلادنا ؟

كان مضطرا أن يصيح ، وانا بالمثل .

ـ لم أمض أكثر من خمسة عشر يوما ابدا . وقد أعطيت تواريخ واماكن محاضراتى فى جامعاتكم للشرطة العسكرية التى قامت باستجوابى .

كأنما تملكته نوبة عصبية (نوبة خادعة ؟ نهض وهو يصرخ فى وجهى :

ـ انت اذن برىء ؟

ـ مم ؟ لقد أعلنت منذ البداية ودون أى ضغط ، انى القائد العسكرى لهذه المقاطعات .

عاود الجلوس . وقذفنى بالنشافة ، فأخطأنى ، ولم يلح . كان هناك شىء يحيره . وكان يتفحص سترتى الخالية من الشرائط والنياشين وينظر الى تزلكى الوحيد .

ـ هل قلت : منذ عشر سنوات ؟

ـ نعم .

ـ وانت الآن فى الثالثة والثلاثين .

ـ فى الثانية والأربعين .

وكان الحلاق قد حضر الى عنبرنا بالأمس . اللحية الكثيفة قد تخالط فى السن . ولكننى كنت حليقا وكان من الواضح مع ذلك انى تجاوزت الثالثة والثلاثين

ودق الجرس ، فتوقف الخبط على الصفيح • وتحولت الصرخات الى أنات باكية ، راحت تبتعد • هل استمر العرض ما يكفى ؟ غير أنى أحس بالخطر الذى يتهددنى أشد مما كان أمام المدافع الرشاشة على طريق جرامات او طابور الاعدام الكاذب • وكان قد استعاد صـــوته الطبيعى وكاد ان يتخلص من لكنته •

- هل تزعم أنك لست ابن فرنان مالرو وبرت لامى المتوفيين •

- بلى •

- باى مرض مات والدك ؟

- انتحر

كان يقلب صفحات الملف •

- باى تاريخ ؟

- فى عام ١٩٣٠ او ١٩٣١ • ولكن الخطأ مستحيل ، فلم يكن فى عائلتنا من يدعى « فرنان » غيره •

نظر الى كأنه يريد أن يقول ، متهجما : فسر لى اذن ماذا حـدث ؟ فارد عليه عندئذ بحركة تفصل بين يدى المفتوحتين وتعنى : لا أدرى أكثر مما تدرى • ولكن يدى مقيدتان وراء ظهرى • الا أننى كنت أخمن ماحدث •

الثالثة والثلاثون سن أخى رولان • وهو قد امضى عاما فى المانيا قبل حكم هتلر ، وثمانية عشر شهرا فى الاتحاد السوفيتى • والأميرة الرفيقة جاليتزينا كانت خليلته • وارسلت باريس ملفه • فقد وقع رولان بين أيديهم • ولم يعثروا بعد على ملفى لأننى أنسى دائما اننى لا ادعى أندرى . فلم اناد بغير هذا الاسم ابدا . ولكننى فى السجلات المدنية ادعى جورج • والمرجح ان الفرقة المصفحة لم ترسل كل التحقيقات التى اجرتها معى واكتفت بان تطلب ملف اندرى مالرو الذى لم تتمكن مصلحة السجل المدنى من العثور عليه وذلك لأنه لا وجود له • فاختاروا من بين الملفات التى تحمل اسم مالرو ، أكثرها شبهة (فى منطقة دنكيرك اثنان وخمسون من أبنـــاء اعمامى ، يحمل ثلاثون منهم لقبى) • ولكن الملف كان يحتوى على أشياء أخرى ، لأنهم لم يبدأوا بضربى •

- هل قلت ان الأسرى من رجالنا يلاقون معاملة طيبة ؟

ان التحقيقات التى ارسلتها الفرقة المصفحة أتم اذن مما كنت اظن •

- كان فى اســتطاعتكم منذئذ ان تتأكدوا عن طريق مرشـــدى الميليشيا •

ـ لا داعى ، فقد استعدنا الأسرى ٠

اشك فى أن يكونوا قد فعلوا ٠

ـ انت برجيه ، اليس كذلك ؟

ـ نعم ٠

ـ تعترف اذن بانك مذنب ؟

ـ ان هذا ، من وجهة نظركم ، شىء لا نزاع فيه ٠

الموظف المدنى يجلس ورائى ويسجل اقوالى ٠ والمحقق لا يزال يقلب فى الملف ٠

ـ كل هذا يجب أن يعاد ! ٠٠٠

ثم نظر الى ، مثلما يتحفز الكلب ، وصاح بلهجة الساخط المحنق من فرط حماقتى ٠

ـ ولكن بحق الله ما الذى دفع بك الى الانزلاق فى هذا كله ٠

ترددت ثانية قبل ان اقول :

ـ عقيدتى ٠

أجاب كأنه يبصق ٠

ـ عقيدتك ! سوف نرى ما يكون منها !

وترك مكتبه وانتقل الى الغرفة المجاورة . فليكن ما يكون ، لقد اقدمت منذ حين ، كما اقدم الكثيرون من قبلى ، على اشجع مااستطعته فى حياتى ٠

وامامى خمس دقائق على الأقل ٠ ثم يبدأ كل شىء ، أو ينتهى ٠

●

دق الجرس للاستدعاء ٠

لحق الموظف المدنى بزميله فى الغرفة المجاورة ، وعاد فى الحال تقريبا ليأمر الحرس باصطحابى ، ثم ذهب ٠

وعدنا من حيث أتينا . وما زال الحرس تحت البواكى يواصلون العابهم ٠

واخذت فى « مشاهدة » الغرفة التى تم فيها استجوابى ٠ وكنت اظن انى لم اتطلع اليها ٠ على الحائط ، فوق دولاب الملفات ، اعلان عن مشروب « بيرنو بونتارلييه » كان معلقا فيما مضى على جدران كل المقاهى ٠

وحشرات تجرى . والرجل المربوط الى اليمين والذى يرفصه جلاده بضربات من حذائه ، كان أشقر وكان ملطخا بالدماء . وملامح المحقق الأكرت - العيون متقاربة والأنف والفم صغيران - قد اجتمعت كلها فى دائرة أصغر كثيرا من وجهه .

السلالم . العنبر . المصافحات . الدهشة تعم الجميع . قلت :

- تأجلت الجولة فلم يكن لديهم الملف الصحيح .

اشتغل تليفون الحائط . وجاءتنى التهنئات من الزنازين المجاورة . وبلغنا أننا قد استعدنا نانت وأورليان وتم استسلام الفرق الألمانية التى تحتل كوريز . اذا صدق الخبر ، فقد استسلمت لحليفتى ، مما يفسر كثيرا من الأشياء ... وكان زملائى يأملون فى تلقى أنباء عما يسمونه « قنف المواقع » ، فقد سمعوا هزة تقل بعدا عما سبقها . وفى أثناء الليل سمعنا ثلاث هزات أخرى - ربما كان ذلك بسبب السكون .

وفى الغداة تقاربت الانفجارات واشتد عنفها حتى ظننا أن تولوز تقذف بالقنابل . ولكننا لم نسمع أزيز الطائرات . وحفر اندرى ثقبا فى أسفل احدى السقائف المقلوبة التى كانت تسد نوافذنا ، فلم نر من خلاله غير قطعة من السماء تفرقها سحابات الدخان . من صنع مدافع بعيدة المدى ؟ أين تكون الجبهة اذن ؟ ان بعض الانفجارات لا يمكن أن تعزى الى القنابل . « الو ! الو ! ان الألمان ينسفون العوباتهم ! » أية العوبات ؟ سواء كانت مخازن المانية او مبانى فرنسية فهى تنسف وفقا لخطة المانية لا وفقا لتقدم الحلفاء ، وهذا ما يفسر دنو الانفجارات منا ثم ابتعادها أحيانا أخرى . استمع ، انتظر ، افترض ، تلك هى حياة السجن ...

قد كان يجرى ما يأمل فيه معظمنا منذ ان جيء بنا الى هذا المكان . لقد تصدعت الجبهة وقوات الاحتلال ترتد من الجنوب الى باريس .

اصطفقت جميع الأبواب وقد توالى فتحها واحدا بعد الآخر . وصاح السجان بعنبرنا : « الكل ينزل لتحمت بأمتعته » وهرع الى الزنزانة المجاورة . « بأمتعته » كانت تعنى ، من حيث المبدأ ، الترحيل الى المانيا . عندما اعتقلت كانت أغلب الخطوط الكبيرة مقطوعة . هل يتم نقلنا باللوريات ، عبر مراكز المقاومة فى منطقة الجبال الوسطى ؟ أدخلنا فى القاعة الكبيرة التى قضيت فيها ليلتى الأولى . هل جمع كل المسجونين ؟ كنا حوالى الخمسمائة ، خدودنا خدود أبناء الليمانات ، وصرر الملابس الى جانبنا يرثى لحالها . مفترشين الأرض كلنا تقريبا . كمضارب المهزومين منذ الأبد . وتختفى الشائعات لتظهر مثل أطواق الحواة . بعد ثلاث ساعات قضيناها فى الانتظار ، أعدنا الى عنابرنا .

هل راح وقت الترحيل الى المانيا ؟ فعليهم الآن اما أن يتركونا لحال سبيلنا واما ان يعدمونا بالرصاص · لا يلزم كثير من الرشاشات لقتل الف من البشر ·

لم تات الشوربة · خبط بعض المسجونين بعنف على الأبواب · وانطلقت فى هواء الطرقة بعض الأعيرة النارية من بنادق الحرس · وساد الصمت ·

وعبرت الجيوش طوال الليل · فواجهة السجن تطل على طرق رئيسية · وفى الصباح لم تات الشوربة · ولكن عند الساعة العاشرة اعقبت صوت اللوريات طرقات الدبابات المهرولة · اما ان الحرب تجرى فى شمال تولوز (ولو أننا لا نسمع المدافع ولا قذائف الطائرات) واما أن الألمان يتركون المدينة .

وتعلقت انفاسنا فجاة : فى فناء السجن ، أصوات نساء تهدر بنشيد المارسيليز · لم يكن غناء المسجونين المهيب ساعة الرحيل الى معسكرات الابادة ، ولكنه الهدير المدوى الذى ربما استمعته باريس عندما زحفت نساؤها على قبر فرساى · ليس هناك شك فى أن الألمان قد ذهبوا · هل عثرن على بعض المفاتيح ؟ فى طرقة السجن رجال يركضون وهم يصيحون: «اخرجوا ! اخرجوا !» وفى الدور الأرضى طبلة ماردة من الخشب دوت طويلا ثم دمدمت · أدركنا جلية الأمر · كل عنبر لا يوجد فيه من الأثاث غير مائدة · هى مائدة السجون القديمة ، ربما كان يرجع عهدها الى الامبراطورية الثانية ، وهى غليظة وثقيلة · هرعنا اليها جميعا · فرفعناها واقمناها واقفة تجاه الباب ، ثم رجعنا الى الوراء حتى النوافذ · وعد اندرى : «واحد ، اثنين ، ثلاثة !» زلزلت العنبر دقة ناقوس مهولة . وتوتر الباب مثل القوس ، على الرغم من أن مجهودنا لم يكن منسقا ·· وسقط بياض الجبس والتقط أندرى قطعة منه ، ورسم على الباب علامة ، عند ارتفاع قامتنا ، وقال « الكل يسدد هنا ! » · عدنا الى النوافذ ، وكانت أصوات الدك تصلنا من الدور الأرضى : « واحد ، اثنين ، ثلاثة ! » انبعج الباب كأنه يريد أن ينفجر · تقهقرنا · نال منا الجهد ولكن جنون الحماسة مازال يشدنا . نسمع المدكات تعمل فى كل الجهات ونسمع ما تحدثه من فرقعة · نحن ، من أسابيع . نعيش على طرقات الأصوات والمخاطر · الاتصالات عبر الجدار ثم خطى التعذيب ثم بناية الصمت هذه التى تنهشها الأصوات الحذرة كما تنخر الديدان فى عروق الخشب · ونحن دائما أبدا نصيخ . ومازلنا حتى هذه اللحظة نعيش على الأذن . ما زلنا اسرى لهذه البراكين العارمة من الأصوات تقرعها زلازل الدك العميقة · والسجن كله

يرتج بالدبيب . ومن فوق دمدمات الموت (فما زال من الممكن أن يعود الألمان) استعادت المارسيليز صيحاتها المتنبئة : « يوم المجد » هو التحرير الذى نحن فى سبيله ، و « الطغيان » نحن نعرفه ، و « هل تسمعون فى فراكم » تشير الى احتمال أن تعود الدبابات ، و «الى السلاح» تأمرنا بدك الأبواب . حاول البعض من هنا وهناك أن يغنى المارسيليز فى الزنازين وخابت محاولاتهم فالأبواب لا تدك على ايقاع الأناشيد . ولكن المدكات التى زاد عددها فتعاظمت ذباتها المتتالية ، كانت تصاحب الهدير السارى ، وكأنها طبول هائلة تأذن للزحف من بطن الثرى . وفى الضربة الخامسة انفجر باب عنبرنا .

أصبح علينا أن نرفع المائدة . وفى الطرقة على اليمين ، كان المساجين يفرون من فجوات الأبواب المحطمة أو المنزوعة . وفوق الدرج من ناحية اليسار ، تطلع علينا ، شاهرة قبضاتها ، مجاوبة بغنائها هزيم الدك ، جماهير التمرد ، حشود أنبتها الدهر فى كل العصور . وكانت فى هذه المرة كأنما جعلت لتحلى صدر مجلة نسائية ، فالنساء اللاتى اختلطن بصعاليك النزلاء ، لم يرغبن عن المظهر الأنيق . وعلى رأس الجمع ، رجل يشرع فى يده ربطة مفاتيح راح يفرج بها عن الأبواب التى لم تحطم بعد . توقف الغناء ، الا المنشدون من فوقنا ، ولكن الحرية فى كل مكان تدق طبلتها العنيدة . وهبطنا عكس التيار حتى وصلنا الى الفناء فسمعنا هناك بعض أنات الألم وباب السجن يغلق دفعة واحدة فيحدث ضجة هائلة تعلو على صوت الدبابات والمدافع الرشاشة التى أخذت فى الابتعاد . عشرة من المساجين يعودون أدراجهم ملطخين بالدم أو يمسكون بطونهم قبل أن يقعوا . هنالك من فوقنا نشيد المارسيليز البعيد والمدكات ، وتحتنا صمت لا تصدقه الأذن . وفى الخارج صيحات . وفيما عدا الجرحى الذين سقطوا لجأ الجميع الى القاعة الكبيرة ، وكان عددهم ما بين الثلاثمائة والأربعمائة .

— برجيه فى القيادة ! برجيه ! برجيه !

لابد أن هذه الصيحة قد صدرت من أصحاب الزنازين المجاورة . الكل يريدون النجاة من هذه الحرية الشوهاء ويريدون العمل معا . كانوا عزلا من السلاح ، والدبابات الألمانية على الجانب الآخر من الباب . وأنا المسجون الوحيد الذى يرتدى زيا عسكريا ، يضفى على سلطانا غريبا . قال أندرى : « هيا ! تدبر ! » .

صعدت فوق بعض الصناديق .

— انتظموا !

تكونت منهم صفوف ٠

ـ اريد الأطبـاء !

جاءني أربعة ٠

ـ هل بينكم ممرضون ؟

تقدم واحد ٠ فلناخذ أيا كان من المسجونين ٠

ـ العشرة الأوائل ، فى خدمة الأطباء من أجل الجرحى ـ من أصيب الآن ومن سوف يصاب ٠

قال الطبيب ـ ماذا افعل بهم ؟

ـ افعل ما تشاء ٠ انصراف ٠

« فليتقدم الثمانية الذين بعدهم » ٠

كانوا بالقرب منى ، ولكننى ما زلت أصيح مملنا ما نفعله ٠ وكانت هناك فى أركان السجن اربعة ابراج للمراقبة ٠ قلت :

ـ لكل برج اثنان ٠ واحـد يظل يراقب والآخر يأتى للافادة فى الحال ، ويظل يعمل فى الاتصـــال ٠ ٠

وقام اندرى بتعيين رجلين لكل برج ٠ وارسلته هو الى برج من اثنين كانا يطلان على الطريق ٠

لا صوت الآن غير صياح الجرحى ٠ لو ان الفرقة الألمانية كانت هنا لحاولت ان تحطم الباب ؛ ولو أن الدبابات كانت هنا لحطمته بالفعل ٠ لن يجرى شيء من الأحداث لبضع دقائق على الأقل ٠ بعض المساجين يصلون من طرف الممر وبعضهم يذهب ٠

ـ اريد ضباط المقاومة والمسئولين فيها !

تقدم ثلاثة ٠

ـ اريد من يعرف منكم سان ميشيل ولو قليلا ٠

جاءنى حوالى العشرين من الذين استخدموا فى اعمال السخرة منذ بضعة اسابيع ٠

ـ من منكم يعرف مكان الأسلحة !

مسجونان بشوارب ٠

ـ « لا يوجد فيها شيء بلا شك ، ولكن اذهبوا لتروا » ٠

ـ « من منكم يعرف أين توجد السلالم الخشبية ؟ » ٠

لا احـــد ٠

ـ الذين يعرفون أين كانت المعاول أو الشواكيش ؟

خمسة ٠ لا بأس ٠

ـ اذهبوا لتروا !

ناديت على جريح اصيب في ذراعه ، صنع له زميله مرقاة واخذ يوثقها ٠

ـ ما الذى حدث ؟

ـ خرجنا متدفقين وكانت هناك دبابات قذفتنا بالنار ٠

ـ وبعــد ؟

ـ عاد الذين تمكنوا من العودة ٠

ـ والدبابات ؟

ـ لا أعرف ٠٠٠

فلأعد الى الصياح ٠

ـ اريد ان يأتينى كل المصابين !

حضروا ٠ أمرت الطبيب الثانى بمحاولة علاجهم ٠

ـ الدبابات التى قذفتكم ، هل اتخذت لها اماكن ام ذهبت ؟

الكثرة لا يعرفون ٠ وقال اربعة او خمسة ان الدبابات قد ذهبت ، بينما قال واحد انهــا بقيت ٠ وتذكرت أن الطرقات قد اخذت تخف تدريجيا ٠٠٠

ناديت على احدى النساء ، حالتها اقرب الى الهدوء :

ـ كيف دخلتن السجن ؟

ـ عنــدما رحل أول الألمان ، انشغلت الكثيرات منا بالمراقبة لأن أزواجهن فى السجن ٠ وعندما أبصرن جنود سان ميشيل يذهبون ، دخل بعضهن على طريقة الاستعباط وبحجج مختلفة ٠ ولم يكن الباب مغلقا ٠ لم يكن هناك أحد ٠ فتصايحن ودخلنا جميعا ٠

ـ لم يكن هناك دبابات ، بالطبع ؟

ـ لا شىء ٠ والذين خرجوا أولا ، لم يرتابوا لهذا السبب ٠

عاد واحد من ذوى الشوارب ٠

ـ لم نعثر على السلاح ولكنا وجدنا قنابل يدوية ٠

ـ كم قنبلة ؟

ـ حوالى الخمسين ٠

ـ جربوا احداها ، أينما استطعتم ٠ وخذوا معكم اربعة زملاء وهاتوا الباقى على جانبى مدخل القبوة ٠

وعـاد أندرى ٠

ـ تحررت باريـس ! لقد تحدثت من البرج مع رجل من جيرانى ٠ وقد شاهد كل شيء ٠ وفى رأيه أن الألمان قد تركوا السجن ولم يعد لهم شأن به ٠ ولكنهم لم ينتهوا بعد من الجلاء عن تولوز ٠ ونحن فى احـدى الطرق التى يتم منها جلاؤهم ٠ ان بعض الدبابات التى كانت تهجر المدينة قد عرفت السـجن وادركت بسهولة ما يجرى ، فاطلقت النار فى الكومة ٠

ـ ارسـلت نفرين آخرين للاتصـال ٠

ووصل عامل الاتصال فى البرج الثانى المطل على الطريق ، ليؤكد معلومات أندرى ٠

صحت بما ينبغى أن نفعله واتجهت الى باب السجن وامرت بفتحه ٠ كان الطريق خاليـا . وثلاثة اجـسـام مرت عليها الدبابات ، تركت على الأرض نجيعـا داميا ٠

قلت لأحد الضـباط الذين كانوا يرافقوننى :

ـ خـــذوا الرمل من الفناء وافرشوه على الأرض لتغطية الدم ٠ لا تتركوا شيئا يمكن أن يلفت نظر الألمان ٠ واذا أخبركم البرج بقدومهم ، ارجعوا بلا عجلة ، كأنكم عائدون من بعض أعمال السخرة ٠

فى مواجهة السجن بيوت فقيرة وحوانيت متواضعة ، كان الأهالى فيما مضى يشترون منها السلال للمسجونين ؛ ومن ورائها بساتين صغيرة ٠

أرسلت عددا من الذين حولى ، ليقوموا بفتح كل الأبواب ٠

ـ وانطلقوا بعد ذلك من الباب الخلفى ، تاركين كل ما تستطيعونه مفتوحا ٠

ساروا ٠ وانطلق معهم الذين كانوا يفرشون الرمل ٠ وقد أخـذ المـــسجونون كلهم فى التجمع وكل ثلة تضم عشرين . وانطلقت من البرج صفارة ٠

لاجدوى . فالدبابات على مسمع منا ، ثبتنا فى الباب قضـــبانه الضخمة ٠

الدبابات اما أن تهمل السجن وتتجاهله ، فيخرج المسجونون جماعات بعد مرورها ٠ واما أن تحاول تحطيم الباب ٠ ولكن القبوة اضيق من ان

يدخلوها مائلين ، فعليهم اذن ان يناوروا ويعودوا الى الوراء ولن يجدوا في هذه الحالة منطلقا كافيا ، حتى لو قاموا بتحطيم حانوت او اثنين . وفي خلال ذلك نكسب بضع دقائق لنتدبر أمرنا اذا دخلوا تحت القبة اصبحوا هدفا يمكن أن تصيبه القنابل اليدوية ، بينما تحمينا زاوية الجدار القائمة . واذا شقوا لنفسهم طريقا فسوف يحذروننا ، ولكن عليهم أن يشقوه . يكفي أن تشعل قنابلنا النار في الدبابة الأولى حتى تسد الممر . ولا يمكن عندئذ للدبابات التالية أن تضيع وقتها في ضرب الحصار . ولحق بي اثنان من الضباط كانا يعملان من قبل في المدافع المضادة للدبابات ، ومعهما اثنان من الأشداء ، متعودان على القنابل اليدوية . ان القنابل ذات المقابض التي وضعت على جانبي الفجوة السوداء من القبوة ، اسهل في استخدامها من قنابلنا . ولم نكن نسمع الا طرقات الدبابة (الخفيفة نوعا ما) وهي تقترب . واصبحت الحياة في السجن مرة أخرى هي السمع . ولم تكن الدبابة لتستطيع ان تناور دون أن تبطىء من سيرها ، ولم تكن تبطىء . وربما كتبت لنا النجاة . وجثا المراقبون في أبراجهم . واخترقت بعض الطلقات أعالي الباب متتابعة مثل النحل الهائج . وتنامت الدبابة عن السجن .

وفعلت الدبابتان التاليتان بالمثل . وابل من الرصاص للوداع . للمزاح الأخير ، فقد انتهت القصة ، اما لأنهم لا يبالون واما لأنهم أمروا بالانسحاب دون توقف .

ثم مرت تسع دبابات أخرى مرت من أمام جميع البيوت ومرت من أمام السجن .. ومر ضجيجها .

هرعت الى برج اليسار . والدبابة الأخيرة على المنحنى . جنزيرها قد مزج الدم والرمل ، فما عادت تشذ عليه البقع . « افتحوا الباب » .

خرج أول الخارجين كالذاهبين الى النزهة . ولكن سورة الحرية غلبت فانبثق الآخرون مثل سيل جارف من الأطفال التلاميذ . قد تعود المذبحة اذا عادت الدبابات .

ولكنها لم تعد .

إغـراء الغـــرب

- ١ -

١٩٦٥/١٩٥٨

قبل المغارات المقدسة ، اردت ان ارى بنارس من جديد واشاهد المعابد الكبيرة فى الجنوب . وكان على ، حتى أصل الى مدينة شيفا المقدسة ، أن أمر من سارنات حيث وعظ بوذا فى حديقة الغزلان . وعلى حافة الطريق الشبيه بالجسور الملكية التى أعلن من فوقها ازوكا ، منذ ثلاثة وعشرين قرنا « أمرت بزراعة هذه الأشجار لأقى الناس والدواب من لفحة الشمس » ، وجدت المعابد المهجورة واكواخ البوص تهدمت تحت سقوفها الخشبية والفلاحين يجلسون حلقة فى ظل اشجار البانيان ، حملت بعقود من الورد وفاء للنذور . وجمال كانها تندم على ايام الاسلام ، تمر أمام محراب شيفا .

منذ عام ١٩٢٩ ، التقيت بالبوذية كثيرا من سيلان الى اليابان ، وكولومبو من اهدا مواقع الدنيا . وشعبها المتكاسل يهيم تحت ظلال نباتات بألوان القرمز والبنفسج ، وبين شجيرات تشرف عليها الاكاسيا الوردية . وطرق الأسفلت تندر فيها السيارات وتعبرها ليلا مواكب من لابسات الساري لا تختلف الوانها عن ملابس الآنسات الانجليزيات الراقدات فى المقابر المجاورة . وبالقرب من الأضرحة الفكتورية التى اصطفت وشمخت مثل مدرعات طغت عليها أزهار الأوركيد ، جلس موسيقى سيلانى وراح يعزف ، وأمامه ، تحت العواسج يأكل الصدأ البطىء ما كان فى يوم من الأيام امبراطورية بريطانية . . .

وفى بورما (ولكن هل من احد يذكر طريق مندلاى ؟) رايت الآلاف من فروع الجلاديولس وقد أمالتها صلاة النساء ، تحيى بوذا مثل السنابل تنحنى فى الريح . وفى اليابان رايت معبد نارا عندما كانت تغطى جدرانه أشهر التصاوير الأسيوية — تمثال عنابى لبوذا وامراء برءوس

متوجة وراحات من اللوتس – ثم التقيت بهذه الجدران بيضاء مثل عيون الضرير ، من حول أعمدتها المتفحمة . كل ذلك كان هو الهند أيضا ..

« وفى تلك الأيام ، عند أطراف نيبال ، ولد فى كابيلافاستو الأمير سيدهارتا .. » تبدو لى الهند فى هذا الوجه الذى يلامس التاريخ ويموج بأحلام عديدة ، كعقود من الزنابق المخضلة فوق جواهر ملكية ولكن هذه التيجان وهذه العقود لم تطالعها عيناى أبدا ، والزنابق التى يفوح منها عبير أنهار الجنة ، لم أطالعها الا فى أعناق الزوار : فهى الزهور التى تتألف منها قلائد الترحيب . ولكن تيجان اجانتا وجذوع التماثيل الاغريقية البوذية تستدعى دائما الى ذهنى الحياة الأسطورية العظمى . وفى سارنات كل شىء كان يستدعى العبارة التى تجاوب العبارات المشهودة المدونة فى رواق الديانات الكبيرة يقول القديس يوحنا « فى البدء كانت الكلمة » ، يقول أتباع بوذا : «حزينة هى كل حياة» . وفى سارنات أصبح الأمير سيدهارتا ، « ساكيامونى » . وعندما بدأ فى التأمل جاء ملك الكوبرا الذى نشر شملته ليقيه حرارة الشمس وقال له : « فوق رأسك سرب من طيور الزريق يدور فى السماء من اليسار الى اليمين . » وكانت البشرى بمهبط الوحى . وعندئذ تدخل الابليس بسهامه المزهرة وكتائبه الشيطانية ذات البشرة الغبراء المنقطة بالحمرة .. « وفى الساعة التى يبزغ فيها الفجر وتدق الطبول . عندما أعلنت النجوم عن رابع أيام سهاده ، بلغ نور الالهام » . ولم يعد يعرف غير التبشير بالحق حتى حضرته الوفاة . وقال : « أقيموا سريرا بين هاتين الشجرتين وأديروا الرأس شطر الشمال ... » وغطت الأشجار زهورا أخذت تتساقط وتدثر جسده .

وأضاء حطب الحريق دون أن تشعله يد .

●

ان ألسنة اللهب القصيرة التى ارتفعت من هذا الحطب وعبرت القرون ، كانت هى التى شاهدتها فى بنارس . والحدائق التى لاقى الأمير الحياة فى الطريق اليها ، وهجعة النساء المبعثرات على مفارش من الأزهار مكتنزة بالورق ، والجنى الذى يفتح باب المدينة ، و « المنزل لا سبيل اليه منزل الناسك لا عودة له » ، والشجر الصديق ، والطيور السائحة ، والطواويس تحيى وهى تختال بمراوحها والأمير الذى أصبح

ناسكا والحصان الذى « يهزه النشيج » ويعود الى القصر وحيدا ، هذا كله هو الهند . والرداء بلون الثرى كان رداء المجرمين يساقون الى العذاب ، ورداء الفرسان الراجبوت عندما يذهبون الى لقاء الموت الأكيد . « الخلاص » قمة من قمم الفكر الهندى ، ولسوف يصبح خلفاء بوذا المتتابعون تجسيدا لبوذا الذى لم يخلق والذى اتحد بالحكمة السامية .

ولكن حديقة الغزلان لم تعد الا معرضا لانقاض احسن كنسها ؟ تتبع علم الآثار مثل ابى الهول ومثل كل الماضى الذى انقذه عصرنا ، وفيما وراءها يمتد بستان عادى وغير مألوف ، اعد نجيله ليلعب عليه نواب الملوك . وتمرق من بعيد حيوانات شقراء لم يكن الطريق ليسمح بالاقتراب منها . لن اشاهد ابدا غزلان سارنات .

رقة البونز الفرنسيكان فى بلاد البراهمة ، وباقات تلاحمت ازهارها ، تتلألأ بقطرات رطيبة فى أتون الظهر ... ولكن امام هذا المعبد الفقير بهندسته الاسبرانتية وتصاويره اليابانية الهزيلة ، كان الكاهن الرقيق الذى ينحنى بركته باللغة البالية يشبه النساك الذين باركوا الأمير سيدهارتا .

ولكن بوذا كان اشد حضورا فى بنارس على الرغم من ان هذه المدينة قد اهديت لشيفا عندما جاء اليها منذ الفى وخمسمائة عام . وكان مسجد أورانج زيب قد نقد منذ عام ١٩٢٩ مئذنتيه الشاهقتين مثل ذراعين تهددان المدينة . ولكن الجانج كان لا يزال قناة جنائزية كبيرة تسكنها الأرواح . والمعابد تغطيها المياه حتى منتصفها ويزيد انغمارها بين المراكب والأطفال يغوصون مثلما كانوا فيما مضى . والقرود ما زالت تعدو على افريز القصور . ولا تزال المدينة بلون النيل والصلصال على الرغم من بقعة المستشفى البيضاء والاعلانات الهائلة . وتحت القباب ، نفس الدرجات البابلية ، تصعد الى الدرجات التى تركتها سحابات الملاحم : كان فصل الرياح الموسمية قد انتهى .

وفى هذه الساعة ، كانت بنارس هى نهر الجانج . وكانت هناك حداة تتبع مركبنا بين نيران تتجدد فى المواقد وأكوام الحطب لحرق الجثث . وفى خفقان النهر بلون النيل مثل المدينة ، كان صوت صامت فى داخلى يستشهد : « هذه هى مياه الجانج المقدسة ، التى تطهر افواه الموتى الفاغرة .. » كانت صلاة الهند الكبرى التى عرفها الغرب بلا شك، عندما انطلقت اسراب الأجراس الأولى لتوقظ الشعب المؤمن فى الفجر الميروفنجينى . كانت هذه الصلاة تصعد من الجموع التى تحيى من

سنوات عديدة نفس النهر ونفس الشمس بنفس الأناشيد ـ وبنفس اكوام الحطب تحرق باهمال ما يطلق عليه الغربيون اسم الحياة ...

مثلما تطرح الثياب البالية ،
كل شيء يتغطى بجسد ، يطرح
الأجساد البالية ...

ولم يكن صوت المؤمنين الذين تطهروا ، ليصبح أقل نفاذا في مكان بلا معابد وبلا قصور وبلا تماثيل وبلا مدنية ـ عند منحنى تغمره أكوام الحطب فوق نهر افريقي بطيء ومتسع ...

في عام ١٩١٤ ، أخذ تلاميذ مدرستي الى حقول المارن ، بعد أيام من المعركة التي دارت هناك • وعند الظهر وزع علينا الخبز فالقينا به بعيدا ونحن مفزعون لان الريح قد غطته بطبقة خفيفة من رماد الموتى الذي تكوم على بعد منا . اما هنا فكانت احدى ربات البيوت تطل من نافذتها على دخان الجثث التي تنظر الجموع الى زوالها مثلما نظر أهالي بنارس الاولون الى زوال الطيور المهاجرة في انطلاقها الهادىء « ثوب نخلعه .. »
كان الابن البكر يشعل الحطب لجثة أبيه ، ويثرثر الاقارب وهم يدخنون، وتمر الكلاب الهزيلة وهي تتشمم الارض من أمام صفوف النسور الصابرة ـ امام حطب الاغنياء اكواما كبيرة وحطب الفقراء والاطفال أكواما صغيرة والنساك بمثل أعدادهم فيما مضى • واستقام الجرف فكان الموتى يهبطون وقوفا . واستكانت المدينة المقدسة الى مواصلة الحياة ، وهي ساهمة . هذا الحطب وهذه الجموع التي تصعد النهر في بطء وهي تسبح باسماء الله تعالى ، كانت أقدر من صلبان مقابرنا ، على أن تبعث في نفسي ذكرى الصفوف التي صعدت في بطء نحو الغارات وقصف القنابل ، من طريق فردان المقدس ، ومن طريق ستالينجراد . فهذه الاستكانة الى القدر ، في أوروبا ، هي الحرب .

اما هنا ، فهو الزهد في الحياة ، يعبر عنه الناسك والحطب .
ولهذا فان بوذا هنا مقيم في بيته : « النجاة من العجلة ! » ان البلاد التي تنافس بنارس مدائن حياة أخرى بينما هي مدينة موت آخر . هل هي عاصمة التناسخ ! ولكن التناسخ يتم من روح الى روح بقدر ما يتم من جسد الى جسد . ان السنة الصارمة متصلة ، صريحة دقيقة منذ أن أوردت « الميليندابنهما » تلك المحاورات التي دارت بين ناجازينا البوذي والملك ميناندر في مكان ما بجندارا يأتيه النسور من جبال بامير كما تأتي النوارس من المحيط ، و « يتوافر فيه كل شيء يصلح للاكل والمضغ والاستحلاب والشرب والتلمظ » .

ـ صعد رجل يحمل مشعلا الى الطابق العلوى من بيتـه وتنـاول غذاءه • وامتدت النار من المشعل الى القش فوق السطوح ، ومن القش الى البيت ومن البيت الى القرية . وامسـك القرويون بالرجل وقالوا له : « لمـاذا احرقت القرية ؟ » واجاب الرجـل : « لم أحرق القرية . النار التى اكلت فى ضوئها غير النار التى أحرقت القرية » .

ـ النار التى احرقت القرية خرجت من النار الأولى .

لا شك ان الذى يولد من جديد غير الذى يموت ولكنـه يصـدر عنه : فلا يمكن القول بأنه تخلص من الخطايا السـابقة .

ولا شك أن كل حضارة ، تتسلط عليها بطريقة مرئية او غير مرئية فكرتها عن الموت• وحقيقة الموت ، وهى مجال يستعصى على التحقيق ، لا يمكن ان تكون الا موضع الهام . وهذا الالهام هو العلاقة بين الهند والدنيـا ، فى تمامها . تقول البوذية « اللهب نفس اللهب دائما ، من شعلة لا تتوقف لحظة عن التغير وهى تحترق » .. ويقول البراهمة : « الأمواج المختلفة دائما من نهر الجانج المتشـابه دائما .. » ويرش الجانيون سفوف السكر فوق الميادين ليطعم النمل بها . وتطلعنا الاسطورة على طفل من البراهمة (هو فيشنو) يستقبله اندرا فينفجر ضاحكا أمام موكب من النمل • « لم تضحك ايها الكائن الخفى فى هيئـة طفل ؟ » ـ كل نملة من هـذه النمال كانت فى يوم من الايام اندرا . ولابد أن يتعاقب فى ملكهم ثمانيـة وعشرون اندرا ليـكتمل من أيام البراهمة يوم وليـلة .. انه زمن دينى بالطبع ، مثل الأبد المسـيحى ولكنه يتعارض مع الأبد مثلمـا يتعـارض التناسخ مع البعث . ان الدورة الكونيـة تشـتمل على اكثر من اربعـة ملايين من السـنوات ، واليوم البراهمى اربعة مليارات والدورة البراهمية أكثر من ثلاثمائة الف من المليارات ، وأيا كان العدد فان الديانة الهندوسية مستعدة لأن تضاعفه . ولـكن هـذا الزمن الذى تحركه ميـلاد دوراته وحياتها وموتها ، يدخل فى جدل لا نهاية له مع جوهر العالم الذى لن يولد من جديد مشـابها لما كان عليه ، رغم عودته التى لا مفر منهـا الى أصله السرمدى . وتحملنا الدورات الكونية الى التفـكير فى السـنوات الضوئية ، ولكننا لانعيش فى السنوات الضوئية بينما الهندوسى يعيش فى الدورات الكونية . وليس شيفا ، ولكن فيشنو اله الحيـاة هـو الذى يقول : « ان العصور المتوالية على العالم هى وسائلى المفضلة فى « المايا » • ان اسمى هو موت الكون » • وقد أخبرنى أساتذة الجامعة السانسكريتية ان قصة الناسك نادارا ، التى سبق لى أن نقلتها ، تدرس فى جامعتهم (ذات الاشـجار المقدسـة والقـاعات على الطراز القـوطى الانجليزى

والأساتذة فى ارواب صفراء) فى « الماتسيا بورانا » ، ولكن المرضعات ايضا يروينها للأطفال ...

●

فى عزلة الغابة ، نارادا يتأمل وقد ثبت نظره على ورقة صغيرة تتوهج . وتاخذ الورقة فى الارتعاش ، ثم ترتجف الشجرة بأسرها . وكانها فى مهب الرياح الموسمية ، بين الغزارة الهامدة فوق سبات الطواويس : هو فيشنو .

وحفيف الأوراق فى السكون يقول :

ـ لك أن تختار بين امنياتك

ـ اية امنية اختار غير أن اعرف سر المايا .

فليكن ، اذهب أولا لتأتينى بالماء .

وفى حرارة الجو تشتعل الشجرة .

ويصل الناسك الى أول عزبة ، وينادى البهائم نائمة . تفتح الباب فتاة . « صوتها مثل عقود من ذهب ، طوقت عنق الغريب » . وتلقاه اهل البيت كانه واحد منهم ترقبوا عودته طويلا . وكان واحدا منهم منذ الأبد . وقد انسى الماء . وتزوّج الفتاة . وكان الجميع يتوقعون هذا الزواج .

وتزوج الأرض أيضا ، والشمس الجاثمة على دروب الأرض المعزوقة تعبرها بقرة ، ومزرعة الأرز الدافئة ، والبئر تدب فيها الحياة عندما يمشى على عروقها الأفقية ، والأصيل على سطوح من سعف ، واللهب الوردى المنبعث من نيران الروث الصغيرة بالليل . وعرف النجع الذى يعبره الطريق الذى لا يفرغ ، وحيث البهلوانات والمرابى والمعبد الصغير بآلهته الطفلة . واكتشف البهائم والنباتات المسفة ، وهبوط الليل على الجسد المنهك ، وعمق الهدوء بعد الحصاد ، والفصول التى تعود مثلما يعود الثور من موقع الماء عند زوال النهار . وابتسامة الأطفال المهزولين والسنين المجدبة . قد مات حموه فأصبح هو راس البيت .

وفى ليلة من السنة الثانية عشرة ، جاء الفيضان الموسمى فاغرق المواشى وجرف المساكن . وسند زوجته وساق ولديه وحمل ثالثهم هاربا فى مسيل الطين الأول . وسقط الطفل عن كتفيه ، فترك الآخرين وزوجته ليلتقطه فاكتسحتهم المياه . وما ان عاود القيام فى الليل الذى

يغص بالضجيج اللزج ، حتى وقعت عليه شجرة فاردته . والقى به السيل الغليظ على الصخور ، ولما استعاد بعض وعيه لم يكن يحيط به الا الطمى يجرف جثث الأشجار المحملة بالقرود .

واعول فى الريح التى اخذت تبتعد : « ولدى يا ولدى ... »

وجاد به صوت الريح الجليل ، مثل الصدى : « يا ولدى ، أين الماء ؟ لقد انتظرت اكثر من نصف ساعة » .

كان فيشنو ينتظره فى الغابة الساكنة وهى تشتعل ، تحت الشجرة المرتعشة الكبيرة .

●

والاسطورة تنتمى ايضا الى المسيحية حيث اتخذت شكلا آخر . فى دير من الأديرة الضائعة فى غابة العصور الوسطى ، راهب يسال عن واجبات المصطفين ، فى السماء : « لا واجب : انهم يتاملون المولى . — على مدى الأبد ؟ هذا وقت يطول .. » رئيسه لا يجيب . ويعود الراهب لينكش الأرض فى الغابة . وفوق راسه يحط عصفور بهى رائع . ثم يفر ثانية ، ولكنه لا يذهب بعيدا ، فهو ضعيف الجناح ، ويتبعه الراهب . ويفر العصفور من جديد . ويؤخذ الراهب ببهائه ويستهويه سره ، فيتبعه من جديد . وتستمر المطاردة حتى المساء . ويختفى العصفور ، ويسرع الراهب فى العودة ليبلغ الدير قبل الليل . ولكنه لا يكاد يعرفه : المبانى اكبر كثيرا ، وقد مات الاخوة المسنون ، واصبح رئيس الدير « شيخا هرما » ، كان عصفور واحد كافيا لترى عشرين سنة كأنها بضع ساعات ، فماذا عن الأبد وخلود المصطفين ؟ .

من وراء النادرة وعبرتها ، نلمح العالم الآخر ، والزمن عند الله فى الأبدالمسيحى . ولكن الزمن الوهمى الذى عرفه الراهب ، زمن سحرى مثل العصفور . ولا يتصدى للسؤال فى حياة البشر . لقد وقع الراهب تحت فتنة السحر ، والزاهد ايضا ، ولكن السحر الذى فتن الزاهد يضع الحياة موضع السؤال ، لأن وجوده الأرضى ، حتى فى نظره هو ، من نفس طبيعة وجوده الوهمى (المايا) . ومن سفر «بورانا» الى حواديت المرضعات ، نرى العودة الى « الواقع » تخضع هى ايضا لدورة مظهرية — ولا يخضع فيشنو نفسه الا لدورة اسمى .. ان وجود نارادا الثانى لا يحسب ، لا لأنه كان حلما ، ولكن لأنه كان حقيقة واقعة بقدر وجوده الأول . و « المايا » بالتأكيد لا تحد يحكم الزمن ، ولكن كل ما يقع عليه الزمن ، مايا .

مايا الخفية فى بطن الثرى ، مايا التى لا تقهر ، هى التى أنشأت كرنفال الموت هذا ومظلات القش المعلقة فى جدران القصور مثل الدروع ، ولكنها فى المقام الأول أنشأت روح هذا الحشد المزدحم الذى نلو نفسه لنيران الحطب وطقوس الحمامات التقليدية . وعلى الرغم من مصابدها الألف والخمسمائة ، لم تترك المدينة المقدسة فى ذاكرتى تمثالا واحدا . وكانت المايا العليا عندها ، جسدا يحترق فى عصر انحدار أوروبا ــ عصر من عصور عديدة ــ تحت عيون ناسك زاهد ، ترشده هذه النيران الزائلة الى الحقيقة العظمى ، فيتلو من « الريج فيدا » .

خذى يا نار هذا الجثمان بلطف فى ذراعيك

اجمليه كاملا ومضيئا وخذيه هناك

حيث لا يعرف الأسلاف هما ولا موتا

وفى هذا اليوم كانت المايا العليا عندى ، هى الشيء الوحيد الذى ينجو عند الهند من طائلة الموت : الحقيقة العليا ، الروح التى لم تخلق ــ الهندوسية .

●

أقوى تعبيرين فى الهند عن التحول ، أى عن روحها الدينية ، هما : الاحتضار والأصيل . وهذا هو السر فى تميز الليل هناك . عدت ، عبر الظلمات الضيقة فى الحوارى ، فى سكون معتم . وكانت السلالم قد فقدت طابعها البابلى . اختفت السقائف ، والدرج لا يكاد يرى . والليل أخف سوادا من الحوارى ، تنام فيه العصافير صفوفا .

وجاءنى من بعيد ، صوت يرتل أبيات من « الجيتا » تعرف معنى الالهى :

انا بداية ونهاية كل الكائنات

وفى الأحياء ، أنا الضمير

وفى المنجبين ، أنا الحب

وبين الأنهار ، انا الجانج

وأنا الريح بين المطهرين

وأنا الزمن الذى لا يزول والجمال والمجد

وتصاعد الصوت ليقول :

... وأنا الموت ...

وكانت هناك أضواء حمراء عند مدخل المعابد ، أمام التجاويف التى حفرت فى الجدران لتضم الأصنام ، وعلى النيران الذهبية الزائفة التى رشقت فى رءوس تماثيل الزهاد الحجرية . وبائع فقير لتماثيل

الآلهة الصغيرة ، يغلق حانوته . هذه كانت حوارى كابيلا فاستو ، عندما هجر الأمير سيدهارتا قصره . لقد خلت من زحام المجذومين فهى خاوية مثل المبانى بلا طيور . ولكن أكوام الحطب لا تزال تشتعل ، وحملة العصى شغلوا بدفع الجثث التى انفرجت أصابع أقدامها ، وانتشرت الشرارة الخفيفة متآلفة مع حفيف النيران الذى لا يكاد يبين . وتغير اتجاه السلم ومرقت تحت سقف جديد . ومن فوقى ، كان هناك جثمان يتلظى وسط دائرة من الرجال الصامتين بلا حراك ، فتشع ظلالهم مثل مجلة القانون ، وما زال صوت الترتيل مسموعا :

... وأنا موت الكل ، وأنا ميلاد الكل
والكلمة والذاكرة والوفاء والرحمة
وصمت الخفايا ...

وكنت أفكر فى حلقة ثمار الجوز الميتة هناك فى الالزاس ، حول الجذع المقتول ـ مثل هذه الحلقة من الاحياء حول جثمان كأنه يحترق آسفا . « وبين الأنهار ، أنا الجانح ... » وكانت الأمواج التى لا ترى تجذب فى الليل بعض الأشعة الزرقاء والحمراء .

●

وعلى مدى مئات الكيلو مترات ، لم أطالع من قبيل الفن غير تماثيل الآلهة الصغيرة المصنوعة من القماش والخشب المدهون ، ملأت كل مكان وتشابكت فوق ابراج المعابد الحديثة . ابراج ، متعددة الألوان ، توحى بدنيا « الرامايانا » التى تصطخب فيها ملايين الشوارب والرجال ، أكثر مما توحى بعالم المطلق فى المغارات المقدسة . ولكن من حول هذا التكاثر الالهى ، كان هناك جلال الشجر ـ وألفة الحيوانات وعرى الأطفال ما أشد ضحكهم حزنا ، ورزانة الشيوخ ، ومواكب السارى فى نور الشمس المشرقة . فى هذه الهند التى لا تؤمن بالحياة ، كان المقدس هو الحياة بنبلها البائس ، وليس هذا السيرك الالهى . ولكن هناك تآلف لا يمكن تفسيره ، بينه وبين الرياح الموسمية التى تجرفه ، والرموز الجنسية التى اعتبرتها انجلترا الفيكتورية شيئا فاحشا ، ونرى فيها اخوة لشخوص الظلام . كذلك كانت حركات الآلهة المتحجرة فى أواء معبد صغير رأيته فيما مضى ، تتآلف مع رائحة الاعشاب العطرية التى تعلق فى الهواء بعد سقوط المطر المدارى ...

قال بول فاليرى ان الخرافة أعمق من الدين . وتعود قوة هذه النكتة الى أن معنى الخرافة فيها يختلط بمعنى السحر . وكان السحر

طبعا موجودا فى كل مكان ، كما وجد بلا شك طوال عصرنا الوسيط ، وهل غاب السحر فى لورد وفى فاتيما ؟ رأيت النبات المتسلق فوق كل المحاريب على جانب الطريق ، كما رأيت الحنظل يتسلق بلبلابه المهول سقوفها الخشبية . وخيولا من الفخار بالقرب من الجداول المقدسة ، علقت بين آذانها ازهار الحظمية ، هى الرعية المخلصة المسكينة للخيول الالهية التى شبت على قوائمها على طول أعمدة مادورا . وقد قال لى نهرو : « حتى النساء الأميات يعرفن ملاحمنا الوطنية ويقصصنها على الأطفال مثل الحكايات » . ملحمة الراماياانا أمامى منحوتة من الصلصال تشهد للأسطورة الذهبية الهائلة التى تغطى ارجاء الهند . وكنت أعلم أن الأطفال ينامون تهدهدهم اغنيات مستوحاة من الباغافاد جيتا : «ياولدى، انت انت عندما تنام ، وعندما تحلم ، وحتى عندما تصحو ، أنظر الى الدنيا التى تمضى .. » واذكر كلمات إبسط الصلوات ، التى تماثل عندنا « السلام يا مريم » وتقول : « خذنى من اللاواقع الى الواقع ، ومن الليل الى النور ، ومن الموت الى الخلود ..

ومعبد مادورا اكبر كثيرا من الكاتدرائية . وابراجه زرق الوهج فى السماء الزرقاء ، تشرق على المدينة ، وتبزغ امام العين عند منعطفات الحوارى ، شاسع الوجود كوجود البحر فى شوارع الموانىء . وكان تقوى الايمان فى قلوب الفلاحين رفعت الى السماء هذه الابراج التى تغطيها نباتات الآلهة ، كما رفعت أبراج « شارتر » . وعند مدخل المعبد ، لقينى رجل من البراهمة عارى الصدر وسم جبينى بمسحوق قرمزى وفى الصحن لفحتنى الرطوبة ، والمكان يغص بباقات تكدست مثل معارض بائعات الأزهار فى مقابرنا ، يوم زيارة الموتى ، الكركم لواجبات الطائفة ، والحبق والصندل والكافور الذى يشعل امام المحاريب ويختلط عطره المحروق بعطر الأزهار ، والاقحوان (هنا وفى هذا الفصل من السنة) وعقود الياسمين الهندى التى شاهدتها فى عنق خروشيف ، وسيبقى عطرها يذكرنى بالهند ، طول حياتى . وكانت هناك فتاة جميلة مصابة بالجذام تمد الى عقدا من هذه العقود ، وعلى وجهها إبتسامة تعصر القلب ... وكلما التفت الى الرواق ، كنت أرى العربات المالية التى سقفت براحات النخيل ، قد اصطفت فى الضوء المرتعش ، وعريشها فى الهواء ، كمثلها فى مخيمات الهجرات الكبيرة .

وكانت مادورا هى السماء تعكسها ثقوب الماء المظلمة فى الاحواض الشعائرية خضراء الزبد ، وثلاث زهرات بيضاء أمام اله لا يرى ، والهة تشبه « كالى » سوداء تدثرت بملاءات دامية ، ورائحة الفساد تغطيها

رائحة الزنبق ، وبريق الدهاليز الدهنى الاســود من عرق النــاس ومن عبور الدواب ، والمتجولون الظاهرون فى الشقوق المتوهجة او الضائعون فى اعمــاق الظــلام : واكتشــفت ان كاتدرائياتنــا عامرة بمســـيحيين « لا يتحركون » . وسرت عبر الدهاليز التى لا نهاية لهــا فى المعبد الذى تبزغ ابراجه التــسعة كل حين وحيث لا أنتظر ، وشقة بعصافير الــنونو تحت طيران النــور المهيب . هذا المعمار الهنــدسي الذى حكمته الدقة الشــديدة وحدد تصميماته ضاربو الرمل، كان يبدو مثل فوضى ملحمية : ليس للتماثيــل فوق ابراجه وفى كهوف دهاليزه من الاهميــة اكثر مما للمتجولين فى انحائه . وكانت القرود المطاطة تصطحبنا وتتركنا دراكا . وعند مرورى أمام تمثال دورجا الدامى هبط من فوق كتفه قط اســود واتجه فى بطء نحــو الأركان المظلمــة ، عابرا من تحت قنطرة الخيــول الالهية ، كما لو كان سر الكون . . .

كل ما يمت الى الغسق يمت الى نشيد الظلمات ، فى حين ان الآلهة المتشابكة فوق الأبراج تبدو كانها ملك الايمــان والتقوى اليائســة التى تمتد من قرية الى قرية . وما ان يثبت النظر على البرج الذى يتــوهج ضــياؤه العلوى فوق اشجارالجوز الســاكنة ، حتى يظهر كريشــنا وبقرته ، وراما وقرده ، و « الباندافات » وافيالهم . وحتى الأفيال المقدســة ، محدثة الــسحاب وذات الاجنحة ، وانفرا أمام الشجرة التى تستجيب الى الدعاء ، وجنيات الناجا اللواتى يسكن تحت البحر ، قصورا من المرجان النير ، والأميرات الثعابين اللواتى « اشتهرن بالرقص والذكاء والفتنة » وتنحدر من اصلابهن كثير من الاسرات الحاكمة فى الجنوب . وان الثعبان يلعب ، فى عالم الهنــد الروحى ، دورا ملحميا لا يخلو من الســذاجة ، مثل كل شىء ينتمى الى الضخامة الجبارة ، ولكنه هو الذى يسند بوذا عندما يمســه نور الالهام ، وينشر شملته القاتلة من اجل حمايته . ومن اشد النصوص المقدســة قتامة ، ذلك النص الذى يُصور اخا كريشنا غير الشقيق وروحه التى يتتابع تقدمها الى الأمام بدفعات متموجة شاهقة : « ... وكان الثعابين ينشدون ثناءه ... » كان نهرو على حق فى كلامه عن الحكايات . كان حلم الأسطورة الموسيقى يملأ لا واقعية الحيــاة . لم يكن كريشــنا وراما حقيقــة واقعة أكثر من الامبراطور أكبر فحسب ، ولكنهما ايضا لا يقــلان حقيقة عن غاندى ، فى هــذه الديانة التى ترسم للآلهة والأبطال صــورا ، ولا ترسم صــور الملوك . ان عالمنــا الرومانى المسيحى ايضا لا يصور الا ما يحمل شــعاع الاســطورة الالهية . كانوا يبيعون تماثيل صغيرة من الفخار عند مدخل المعبــد ، تمثل جانيشــا المهيب ، اله الحكمة ، وله رأس فيل ، وقدم جاثمــة فوق فأر ، ولــكن

البائعة الشابة كانت تغنى : « وعندما يمضى جانيشا على فاره ، كان القمر يضحك بين السحاب ... » وبعد ملايين من السنين ، سيجول جانيشا من جديد فوق الفار ، ويضحك القمر من جديد ، عندما يهل من جديد فى ليل بلا نجوم • وفيشنو ، براس خنزير برى ، يحمل الهة الأرض ويقول لها بصوته الحزين الأبدى ، امام دورة المواليد التى لا تنتهى : « كلما حملتك هكذا ... »

وكان دخول المحراب مقتصرا على البراهمة • هناك ينبعث بريق مبهم من « الالهة ذات عيون السمك » صاحبة المحراب ـ تغطى جسدها يواقيت تنتشر مثل القشر ، وتحمل مروحة من شعر الياك ، وترنو بعينين من الماس ـ أقرب الى صنم قروى تغطيه الجواهر الالهية ، منها الى أعماق هذا البازار العلوى •

وكان هناك موكب يبرز من الظل رويدا • وبدا واضحا أن الرجال والنساء قد ارتدوا أحسن ما لديهم من الثياب ، وأنهم لم يالفوا السير بها • ولكن الرجل والمرأة اللذين يتقدمان الموكب يخطوان باصالة راقصى الملاحم ، ولا ريب فى أن السارى أجمل ثوب نسائى فى العالم • وساروا فى اتجاهى وقد انضمت كفوفهم واستطالت اناملها لتادية التحية الشجية التى لم يلتفت اليها الفن الهندوسى الا نادرا والتى احسن الفن البوذى الالتفات اليها . وقال لى راجا راو اننا نحضر حفلة زفاف ، فتقدمت نحو العروسين • ولم أكن أعرف كلمة واحدة من لغة التامول ، فتمنيت لهما السعادة باللغة السنسكريتية (تبحر فى علم الاستشراق لا يزيد على : حود لاك) • واخذت عندما رايتهما يركعان • واردت فى اضطرابى ان انهض المرأة • ولكن جارى الهندى أوقفنى ، ومضيت ، بعد تبادل الكلمات الطيبة ، الى حفل الآلهة الذين يزخر بهم المكان . وقال لى راجا راو : يظنونك فيشنو : وهم على حق فى ذلك • وشرح لى وجهة نظره بعد قليل • قال ان اهلهما ، بعد أن خطبوا الفتاة الى الصبى ، أمضوا سنوات فى الادخار والتوفير ، ليذهبا بهما يوم الزفاف الى المعبد الكبير ليجلب لهما السعد فى الحياة • وهناك التقيا بوزير جاء من بلد بعيد ـ بلد لم يسبق له آن أرسل وزيرا الى مادورا أبدا : وهذا غريب • وقد اتجهت أقدامه اليهما : وهذا غريب جدا . ليمنى لهما الحظ السعيد : والوزراء لايتمنون الحظ السعيد للفلاحين وباللغة السنسكريتية (العروسان لا يعرفانها ولكن احد البراهمة قال ان .. الخ) . وهذا ليس من الواقع فى شىء مطلقا . اذن ، فلم يكن هناك وزير . الآلهة هم الذين أرسلوا هذه الكلمات المبشرة • وعليه ، ركع العروسان •

وبعد ، فهل كنت حقا وزيرا ؟ ان هذه اللاواقعية تصل مثل سريان العدوى ٠ اولا لأن عملها لم يكن فنيا ٠ هذا الهياج المجنون ، من الخيول المجنحة والآلهة ، كان ينتمي الى لاواقعية الاحتفال ٠ والحيوانات الخرافية المصنوعة من الورق من أجل المواكب الأخيرة . قد ألقيت في الأركان ٠ تظن اوروبا ان كل ما لا يحاكي واقعها يمثل حلما ٠ ولكن هذه الشخوص لم تكن تحاكي حلما ، كذلك شخوص البوابة الملكية في شارتر لا تحاكي ملوك فرنسا ٠ وفي المعبد سيل من التماثيل يفيض تحت الأبراج المحملة بمشاهد أسطورته الذهبية ، ويجتاح المكان كله : خيول شبت على قوائمها وحيوانات وشخصيات الهية تواصل منذ قرون ، رقصتها الملتهبة المحنطة ٠ والمؤمنون هم العالم وفقا لمايا البشر ؛ والمعبد هو العالم وفقا لمايا الآلهة ٠ واليوجا تعني الاتحاد ٠

وكنت أتخيل مثل هذا المعبد مقاما في بنارس ، وليس أقدر منه على خلط الشخوص الحيوانية والبشرية والالهية في رقصته الساكنة . هي رقصة الكون ، وروح المعبد رقصة شيفا ، ولكن كلمة الرقص توحي الينا بعكس ما تعنيه في الهند ، فالهند لا تعرف رقصات « البالو » ٠ ان رقصة الآلهة تعظيم لجلال الحركة ، كما أن الموسيقى المقدسة تعظيم لجلال الكلمة ٠ ويرقص شيفا أصلا فوق الأعداء الذين أبادهم ، محتفلا بانتصاره؛ ولكنه يرقص ايضا رقصة « الموت » ، التي يراها الهندوس في النيران المرتفعة من أكوام الحطب ، والتي يعاود شيفا رقصها في الظلمات التي تتبع الى الأبد ختام كل عصر من عصور البشرية ٠ زال عالم وانقضى وانطفأت نيران الجانح لآلاف مؤلفة من السنين وفي الليل الكوني رفع شيفا بمهابة ، اذرعه المتعددة ، ليرقص العودة الى الأصل الأبدي ٠ ومن خلال هذا يحاول الهندوسي أن يحقق اتحاد الروح التي يتم بها التجلي لأرواحه المتعاقبة ، باللامخلوق الذي يتم به التجلي للآلهة ولعصور العالم :

مادمت يا شيفا تحب الموضع الذي تحرق فيه الموتى
جعلت من قلبي موضعا لحرق الموتى
لكي ترقص فيه رقصتك الأبدية ٠٠

وعدت بالليل ، كما فعلت في بنارس ٠ ولم تكن الجموع أكثر تدينا مما كانت في ساعة العصر ، ولكنهم إقل انهماكا في مشاغلهم — أصابهم الكلل مثل البقر الراقد الذي كان يسجع فوقه اليمام ٠ وأضاءت المعبد مصابيحه ، وخلا من الأحواض والأبراج ، فاصبح اشد خرقا للخيال وأقل قدسية . وكان تمثال شيفا اكثر التماثيل تبجيلا ، وقد وقفت أمامه جماعة من الحجاج يصلون بصوت مرتفع :

هانذا أمامك لكي اعبدك

يالهي الذي ليس غيري أنا

وكان هذا أيضا – في الاتجاه المعاكس – نفس التطابق بين الالهي في البشر وفي الكون ، الذي عبرت عنه صلاة العصر وبدا لي (بفعل الليل وايهامه ؟) وكان وقار تلك الصلاة قد استبدل الآن به حال يشبه التنويم. ولكن البراهمة أزاحوا الساترين نياما : فقد جاءت ساعة اتحاد شيفا وبارفاتي .. وضاع صوت الهمهمة الأجش ، ليغطى عليه عواء الابواق الطويلة ؛ وكان الأنغام في الزمان تغوص ، فتلهث المزاهر والدفوف التى توقع الأحداث الكونية وينضم اليها مزمار الغاب . ويحمل البراهمة شيفا في محفة سوداء وفضية تطرد الحيوانات اللاهية البائسة بين أفواج النيام المبعثرة · وتوقف الموكب أمام تمثال بارفاتي · وعرجت في الهواء خفافيش كبيرة تصوت مثل الفئران · وتماثيل اللنجا الحجرية تضيئها المساريج تتابعت الى أسفل الظل · وعاود الغاب شكايته والحنين المتيم الذى ناح به عند أسوار بابل فيما مضى ، ثم صمت · فالاتحاد بين شيفا وبارفاتي يدعو السكون ، ويدعو الكواكب · ويهبط الليل رويدا فوق الأبراج السوداء ·

●

وكانني البي الداعي الى الحج تحت شعار شيفا · فقد زرت بنارس ومادورا وأنا الآن في ايلورا ، وعما قريب في ايليفانتا ·· ومثلما حدث في مصر وفي انجكور ، طرد التنظيف عن الأنقاض خمولها الذى كان يتآلف تآلفا شديدا مع آلهة الدمار فيمامضى·ان معابد كيلاسا لم تقم على التشييد والبنــاء ، ولكنهم حفروا الجبل فاستخلصت منه · وما زالت هناك في أغواره ، في بطن كهف بلا طوابق وبلا أبراج ، أنظر الى قبـــابها المجزعة فاتخيل اقفـاص صـــدور المسوخ الأسـطورية · ليس فيها شيء يشبه الكاتدرائيات فما الذى يلح على ذهني بصورة الكاتدرائية ؟ انه الفضـــاء اللانهائي . والطوابق المدفونة في شق من جهة كيلاسا، تشرف من الناحية الأخرى ، على السهل وامتداداه الشاسع · وعلى الرغم من أن تصميمات المعابد من عمل الضاربين في الرمل، فان مجموعةايلورا تحتفظ بلغز المغارات الأصلية وبفوضى أرض تنقب فيها الصدف · وكانت الأجزاء المظلمة تذكرني «بلاسكو» . وغبش الدهليز يقود غابة من الأشخاص نحو الفراغ، وفيما وراء تسقط الشمس مثل الشلال لتضيء معركة تقتتل فيها مسوخ مكللة وآلهة متوجون ، تتلاحم أذرعتهم المتعددة وتتشابك بين فيض من الجواهر والحلى · واذا تذكرت خليط مادورا ، تكشف لي الى أية درجة يحكم النظام هذه التماثيل . وكان مشاهد المياه المقدسة ، «الجانجا» و « الجومنا »

نحتها الذين يخرطون جـرار الملاحم الأسـطورية ، والجن الطـائر على انفراد رسمت خطوطه من لهب . ورغم شيفا ، ورغم « الأمهات » المريعة، لم يكن هذا اللهب لهب الجثث . ان مسوخ ايلورا وأبطالها يشتعلون فوق حطب من زهور الجلاديولس الحمراء .

وهؤلاء النحاتون ، قد اراد القديرون منهم أن يمسكوا بما لا يدرك ولا ينال ، بطريقة تفضل أو تختلف عن طرائق أسلافهم . « يا أيهـا المولى ، انت يا من يتخذ الاشكال التى يتصورها المؤمنون بك .. » ولكن المؤمنين لا يخترعون اشكال الآلهة ، وانما يتعرفون عليها . الصـلاة التى تلزم هنا اشد غموضا ، وهى من صنع نحات يقول : « يا سـيد الآلهة جميعا ، علمنى « فى الأحلام » ، كيف أنجز الاعمال التى فى ذهنى ! وليست ايلورا لذلك أكثر انغماسا فى خيال الأحلام من معابد اخرى كثيرة. ولكن الشىء الذى يسود رحابها ، وتدعو اليه الصلاة الهندوسـية ، هو مجال المثل العليا والرموز الكبيرة ، الذى لا تعيه الذاكرة ، ويواصل حياته الليلية خلال أجيال من النائمين ، كذلك الروح ، عند الذين يتضرعون الى هـذه الآلهة ، تواصل حياتها من خلالهم . والمعابد والتماثيل والنحوت الغائرة تؤلف جزءا من الجبل ، كأنما ازدهر فيه ما هو الهى . وسـواء كانت هندوسية أو بوذية أو جائية فهى تعنى بما لا تراه الأنظار، وتقل محاكاتها له ما دامت الصور التى تتابع فيهـا تمثيله ، مشروعة كلها . والحوار بين النيرفانا الساكنة ورقصات الآلهة يجرى من نفسه . وانا انظر الى رقصـة من رقصـات شيفا يقال انها رقصة « الجوهر » ساعة أن يخلصه الموت من الجسد والروح والنفس . وهذه الرقصة ، حتى اذا هى وضعت فى متحف ، لا تنتمى الى عالم الفن وحده ؛ وكمالها ليس من قبيل الفن ، ولكن من قبيل الاقناع الملغز فى الخرافة والوحشى والزهر . من صـنع الآلهة . ولم أشعر من قبل ، فى أى مكان آخر ، بمثل هذه القوة ، كيف أن كل فن مقدس يفترض فى الذين يتوجه اليهم اليقين بوجود سر للعالم ، ينقله اليهم ويشركهم فيه دون أن يزيل الحجاب عنه . كنت فى حديقة احلام الهند .

وبدأ مجىء الليل ، وتراكمت فوق وهاد كيلاسا ظلال خضراء داكنة بلون الموت. وتذكرت نهرو وحنينه الى جبل التبت وقوله «لن أرى كيلاسا من جديد .. » وعند الثغرة التى يتألف منها مدخل المعبد ، كانت الشمس لاتزال حمراء فوق الأزهار البرية ، وتراب السهل الممتد ، وكأنها تنعكس على صفحة البحر . وصلنا الى المغارات البوذية وصفوف النسـاك فى داخلها « مثل اللهب الساكن فى حمى من الريح » . ثم المغارات الجائية بكتلتها المصبوبة . ولكن ايلورا هى شيفا .

واتجهنا الى ماهالنجا ـ رمز شيفا واحد معابد اللنجا المقدسة الثمانية في الهند • وقد خيم الليل تماما • ولم يكن هناك معبد ولكن سطح واسع تؤدى اليه درجات قصر مهدوم • ومقام اللنجا فى مكان ما وسط الظلام • وارتفع صوت البوق التقليدى بهديره الأجش ، وتبعته همهمة التسبيح وموسيقى بعيدة • وكانت هى ساعة الاتحاد بين شيفا وبارفاتى • ولاشك أن المعبد على مقربة منا • ولكن موضع العبادة الحقيقى هو هذا الفراغ • هذا البلاط الذى بزغ على ضوء الفانوس ، فى سكون غابة بلا وحوش •

ليل تسكنه موالد أكوان ملكية والهية ، ولكنه يقول انه لم يحدث خلق أبدا • قالت المسيحية بالخطيئة والخلاص ويوم الدين فكان العالم عندها غرورا ؛ أما البراهمية فالانسان عندها مرحلة • وليس هذا بسبب التناسخ وحده ؛ ولكن لأن أبطال الدورات الاسطورية التى تفصل بين عودات الظلام المتعاقبة ، هم الآلهة والعناصر • لقد أحست الهند باللانهائى كما احس أيوب بجلال يهوه • وكيلاسا ، وهذا السطح الفراغ الذى طال فيه الحديث عن الآلهة منذ زمن سحيق ، وهذه الترانيم الليلية ، كانت كلها تتحد « بالكائن » من خلال اللانهائى ، وكأنها تعبد « اللانهائى » ـ الذى يلتقى بالانسان عبورا •• وفى معبد شيدامبرام • فى موضع يفترض فيه وجود اله المحراب ، يشير البراهمة الى فضاء دائرى فارغ ويقولون : « هذا هو شيفا يرقص •• » وفى وسطه يحرق الكافور الذى لا يخلف رمادا •

وفى ايلورا تتخذ المايا أعمق نبراتها ، لأنها هناك قد سبقت الديانات كما يسبق الصخر الشخوص التى تستخرج منه طورا بعد آخر • وفى نظر غاندى ، وفى نظر الناسكين الذين استقبلوا الأمير سيدهارتا فى الغابة ، وفى نظر الشعراء الفيديين الذين وقعوا أناشيدهم بأسماء الآلهة ، كانت الوسيلة المثلى للخلاص هى عدم الارتباط • ان العقبة التى تعترض سبيل الخلاص ، ليست فى مشاهد الأشياء وعبث رؤيتها ، ولكنها فى تعلقنا بها • الرغبة هى الشيطان فى كثير من الديانات • وعند المسيحية ان الشيطان فى الانسان منذ ان وقعت الخطيئة الأولى . وعند الهند ان التعلق قائم فى الانسان ، يشبه أن يكون شيطانا ميتافيزيقيا ، هو الحياة نفسها أكثر منه شهوة وغلمة ، هو عبودية الانسان الأعمى للجوهر الذى يسمو به ، وقد أسلمه عجزه وعماه الى الكون الوهمى • ولو مات كل الآلهة ، لبقيت المايا ، لأن الهندوسى يحملها فى ذاته كما يحمل المسيحى الخطيئة • وعامل المايا الذى لا يقهر ، ليس الفصل الالهى ولكنه قدر الانسان •

وسكت الترنيم · وبدأت موسيقى الليل ·

والهند منذ قرون تعرف ألحان الصباح وألحان الليل ، كما نعرف نحن ألحانا للرقص وأخرى للجنائز · هى الساعة المعلومة التى يتغنى فيها الانسان الزائل بالنجوم الزائلة ، كدابة أزمان الحج الأولى ، وأيام ان كانت كيلاسا مدفونة تحت الأدغال. ورأيت ضوءا يقترب. كان البراهمة الذين يحرقون الكافور تقدمه للآلهة ، يحملون الينا زهور الترحيب .

وكنت قد وصلت الى ايلورا عن طريق أورانج أباد ، وهى مدينة مسلمة يشرف عليها ضريح مثل تاج محل ، أقامه أورانج زب لزوجته ، فوق شجيرات الورد التى تحولت الآن الى زهور برية · وذكرنى منظره بمتحف الآثار فى مدينة أوتان وهو بستان تشق فيه النصب الكلتية والتماثيل الرومانية بين سيقان الخرشوف ·

ووصلت الى ايليفانتا عن طريق بومباى ·

وبومباى ، مثل كالكتا ، قد ولدت فى القرن التاسع عشر ، ولايمكن أن تعتبر مدينة هندية أضفيت عليها الصبغة العصرية ، بل هى مدينة هندية انجليزية كما أن أجرا ولاهور وأورانج أباد مدن هندية مسلمة · وما أن وضعت قدمى فى المغارات المقدسة حتى اختفت من ورائى واختلطت كل مناظر بومباى فى زخرف تافه ، من القلعة الحمراء التى رأيت بابها المارد ينفرج عن جمل يخرج آسفا ، الى قباب المرمر والحلوى تحيطها غابات تضج بالسناجيب ، الى العمائر الفيكتورية الزائفة كأنما نقل تصميمها من كاتدرائيات لا أعرفها ، وانتشرت فوقها اعلانات ضخمة لعيادة الأسنان رسمت عليها الأدعية السانسكريتية ، الى أشجار جوز الهند المتربة علقت فوق أغصانها عجلات المطاط القديمة · اختلطت ورائى هذه المناظر عندما دخلت الى المغارات وأحسست بصلتها مع أعماق الأرض · وكأن هناك هندا فى بطن الثرى ، تسهر سرا على هند القرى ، والحيوانات ، ومواكب حاملات الجرار ، والأشجار الجليلة ـ بينما المدن الخرافية والمسرحية تستعد لأن تعود الى تراب · ان مغارات ايلورا تشرف على السهل الشاسع الأجرب الملون الذى تطل عليه ، فى حين أن مغارات ايليفانتا تبدو كالمختبئة فى جزيرتها ، حيث كان الخليج يتلألأ ببهجة هيلينية ، تحت نوارس بحر عمان · ولكن هذه المغارات جميعا تشترك فى ظلمتها المقدسة · وما ان تدخل الى ايليفانتا حتى ينجرف من ورائها المحيط المتألق ، مثله مثل المدن ، ومثل هند الانجليز ، ومثل هند المغول، ومثل هند نهرو ، تقدمات فانية « لصاحبة الجلالة » الشهيرة ، رأس شيفا المثلثة الجلالة ·

لا الصور الفوتوغرافية ولا السينما تعطينا مداها . الرءوس ، من خمسة الى ستة امتار ، اصغر من رءوس معبد بايون فى انجكور ؛ ولكنها شاهقة هائلة اذا قورنت بالشخوص التى تحيط بها ، وتمتلىء المغارة بها مثلما تمتلىء الكاتدرائيات البيزانطية فى صقلية برأس البانتوقراطور . ومثل البانتوقراطور ، ينتهى تمثال شيفا الى ما تحت المنكبين دون أن يصبح لذلك تمثالا نصفيا . فينتاب الانسان احساس غامض بانه أمام راس مقطوع ورؤيا الهية . وهو اكثر من أن يكون « واحدا من أجمل تماثيل الهند » ، أيا كان المعنى الذى نقصده من كلمة : اجمل .

يتبدى من الوهلة الأولى ، آية من آيات النحت. ثلاثة رءوس ، قناع ومقطعان جانبيان ، فى غاية الضخامة ، على الرغم من رونق وفتنة ترجع الى الحلى والجواهر أكثر منها الى الوجوه ، التى أحسن تخطيط سماتها (والعيون بالذات) فكانت جديرة بأرفع الاعمال الفنية .

ثم هناك شيفا ، والكهف ، والمقدس . وهذا التمثال مثل تماثيل دير مواساك ، ينتمى الى مجال الرموز الكبيرة . والرمز يعبر عن اشياء لا يمكن لغيره أن يعبر عنها . وهذا القناع الذى يغمض عينيه على انسياب الزمن وكانه يغمضها على نشيد جنائزى ، يتصل بشيفا الراقص الذى يحنى فى ايلورا ناره الجليلة ، كمثل اتصال هذا الأخير « برقصات الموت » فى الجنوب ، بل الشخوص الأسطورية فى مادورا .

وأخيرا ، هناك لقاء يتم فى هذا العمل كما يتم فى كثير غيره من الاعمال التى تتالف منها ثروة المتحف الخيالى للبشرية . هو لقاء بين حدثه الفنى وحدثه الدينى وحدث آخر لا يمكن التكهن به . وهذا الحدث فى « الفرعون زوسر » يأتى من أن التحلل قد جعل منه راس ميت ويأتى فى « انتصار ساموتراقيا » من أن القدر قد اخترع المسخ الكامل الذى طلبه البشر عبثا فى الملائكة : فالأجنحة هى اذرع الطيور والانتصار لا يكمل الا بدون ذراع . والخط الشهير الذى يصل من قمة الثدى الى طرف الجناح ، قد تولد من عملية البتر . والكمال (بهذا المعنى) فى تمثال شيفا يعود الى الظل المقدس ، وغياب الجسد ، وان كان راقصا ، والمقطعين الجانبيين الغارزين فى الجبل حتى الآن ، والقناع المغمض العينين — ولكنه يعود قبل كل شىء الى الخلق الفريد الذى اصبح به تمثال شيفا فى ايليفانتا هو رمز الهند .

وفى المغارة المجاورة كانوا يرتلون ابياتا من الباغافادجيتا . وهى البيبلة لكل الهنود . وقد تليت ليلة السهر على جثمان غاندى وطوال

الساعات الأربع عشرة التى استغرقها حرق الجثمان . وكانت تتآلف تآلفا خفيا مع المعبد القائم تحت الأرض ومع تمثال شيفا الصلاق ، وتبدو كأنها نشيد هذا المحراب ولو أنها لا تدين له بشىء .

وفى العربة الكبيرة التى تقطرها الخيول البيضاء
كان كريشنا وارجونا واقفين ينفخان فى البوق الالهى
واستولى على ارجونا اشفاق عظيم ، فقال فى يأسه ...

الجيشان الاسطوريان متواجهان . والملك العجوز الذى يقاتل ارجونا ، أعمى . وقائد عربته يمتلك القدرة السحرية على معرفة ما يدور فى ميادين القتال . ويستمع الى الحوار الذى يدور ، فى وسط الجيش المعادى ، فى العربة ذات الخيول البيضاء ، بين الأمير ارجونا وقائد العربة ، وهو كريشنا الذى سيصبح الاله الأعلى . والجيتا هى كلمات الهية ، يسمعها السائق عن طريق السحر وينقلها الى الملك الأعمى الذى اغمض عليه ليل الظلام .

ينظر ارجونا الى الذين اقدموا على الموت . ويذكره كريشنا بانه اذا كانت عظمة الانسان أن يتخلص من القدر ، فليست عظمة المحارب فى أن يتخلص من الشجاعة . هو اقتتال الاخوة فى الملاحم ، وحزن ارجونا فى آذاننا يرن كالصدى الأسوان لصوت أنتيجونا :

عندى هواجس حزينة يا كريشنا
ولا أرى خيرا فى تقتيل الأهل فى المعركة ..
أنا لا أبحث عن النصر ، ولا السيادة ، ولا مسرات الدنيا ؛
فيم تفيد السيادة ، وفيم تفيد المسرة ــ وفيم تفيد الحياة ؟

وسمعت صوتا ثانيا يجيب مرتلا ، مثلما يجيب كريشنا على ارجونا فى القصيدة :

تبكى أناسا لا ينبغى لك أن تبكيهم
وتفوه بما لا يجدى من كلمات الحكمة . فالحكيم لا يبكى
على الأحياء ولا على الأموات .
لأننا لم نكن أبدا ، لا انا كنت ، ولا انت ، ولا هؤلاء الملوك ؛
ومن هذه اللحظة لن يكف احد منا عن الوجود ابدا ..

بهذه الكلمات تبدأ آيات « الالهام » التى يحفظها رفاقى عن ظهر قلب . وخفقان المحيط البعيد يوقعها فى الظلام . وتقطعها صيحات النوارس ؛ وهو نشيد الألوهية التى تسمو بالعوالم وتحركها وتدمرها ،

ونشيد الروح التي تتناسخ عبر الأجساد والنفوس ، وتطلق عليها القصيدة هذا الاسم الوحيد فقط : « ذلك » ٠

ذلك لن يكف عن الوجود أبداً ؛ لم يولد ، خالد ، سرمدي ،
قديم ٠ ذلك لا يقتل عندما يقتل الجسد
ومثلما تطرح الثياب البالية ، وتلبس غيرها ،
فكل شيء يتغطى بجسد ، يطرح
الأجساد البالية ٠٠

وكنت قد سمعت المقطع الأخير في بنارس ٠ ولكنه قد فقد هنا صلته بحرق الجثث ٠ وكانت المهابة هنا من حول الآلهة التي لا تنظر ، أعظم منها حول اكوام الحطب المشتعلة ٠

والذين يعرفون يوم براهما الذي يدوم لألف عصر ،
وليلته التي لا تختتم الا بعد الف عصر ،
أولئك يعرفون النهار والليل ٠٠٠
٠٠٠ وكل جموع الكائنات ، التي تعاد الى الوجود بلانهاية ،
تزول عند هبوط الليل وتولد من جديد عند بزوغ النهار ٠٠٠
٠٠٠ وكل الكائنات في ذاتي
كمثلها في ريح كبيرة لا تكف عن الانطلاق في الفضاء ٠٠٠
٠٠٠ وأنا الوجود والعدم ، الخلود والموت ٠٠٠

واجاب أحد رفاقي على الترتيل البعيد بآية من اشهر آيات القصيدة ، وامتد صـــوته من خلال الأعمدة الضخمة ، مكتوما ، لكن سقف المغارات الخفيض يحمله :

من ذا الذي يستطيع أن يقتل الخلود ؟

فهل كان هذا الرد الذي تصاعد من السكون ، طبيعيا بسره الملغز ، في نظر المرتلين ، قدر ما كانت تمنياتي في نظر العروسين في مادورا ؟ لقد سكت المرتلون ٠ وكنت قد طالعت الجيتا في بنارس من جديد ٠ ومن شبحها الخفي ، ومن كل ما تدين به للبراهمية التي سبقتها ، رأيت التبشير الالهي بالمحبة الذي تحتقره البراهمية ، ينفصل بطريقة مبهمة مثل الشخوص في هذه المغارات ، وتنفصل على الأخص الفلـــــفة الرواقية الكونية التي تدين لها القصيدة بمجدها ٠ والعودة الى الأصـــل مسيرة فلكية لا تعرف الرحمة ، وفيها يتحد الانسان بالاله عندما يكتشف تطابقه معه وعندما يراعي واجب « القـــانون » ، وهو واجب الطوائف ٠ والعمل

ضرورى لان الأغراض الالهية يجب ان تتم : يقول كريشنا لأجورنا : لست أنت الذى ستقتل أهلك ، ولكن أنا • والعمل يتطهر من الحياة اذا اتحد الانسان بالاله وأصبح قادرا على أن يقدم له الحياة مثل التضحية •

••• والقدماء المتعطشون الى الخلاص ، كانوا يعرفون ذلك وقد عملوا •
••• أما أنا ، يا أيها الأمير ، فليس فى العوالم الثلاثة شيء يستاهل الكسب الا وكسبته ؛ ولم أعدل عن العمل •
ضع على نفس المستوى اللذة والألم ، المكسب والخسارة ، النصر والهزيمة ، وتحزم للمعركة •••

وكانت هذه اللحظة الشهيرة لحظة خالدة عند رفاقى • ولكن التماثيل التى تحيطنى فى الظل ، والجيتا نفسها ، تعبر عن العزيمة المقدسة فى الآيات الأخيرة ، أقل مما تعبر عن الاتحاد الذى تحول اليه التقشف الميتافيزيقى: التصوف الذى اكتشفته البراهمية، مثل البوذية والمسيحية والاسلام • وحتى اذا لم يتم فى مغارة اخرى تلاوة آيات الاتحاد ، فان التحول الذى يحققه الايمان موجود هنا وجوده فى كنيسة القديس بطرس بروما عند ما تخطر هنالك الكاتدرائيات على بالنا • وتلح على الهند صورة الأمواج المختلفة دائما ، للأنهار المتشابهة دائما ، وكانت الأرواح المتعاقبة فى ديانتها تمر من أمام شيفا ، كما مرت جيوشها العابرة أمام حطب التضحيات • وسفر « الأوبانيشاد » القديم قد أصبح سفر « الجيتا » الجديد • وفى أغوار الزمن ، كان هناك نشيد « كالى » :

أنت يا أم البركات
أنت يا أيها الليل المريع ، ليل الكذب ، ليل الموت
السلام عليك !

وبعد أن قامت ايليفانتا ، جاء المثل المروى عن الصلاة :

« قالت ابنة التلميذ للأستاذ انى أصلى عبثا — ما الذى تؤثرينه بحبك فى هذه الدنيا ؟ — ابن أخى الصغير — لاتفكرى الا فيه عندما تخشعين ، وسوف ترين أنه كريشنا . فالحب وحده يعالج العميان .

كانت رموس « الجلالة » الشاهقة تتأمل فى الخلود والزمن، وهى اسيرة المقدس الذى يطوقها • ويبدو أنها تتأمل أيضا فى القدر الذى يقود الديانات من التبجيل الى المحبة كما يقود البشر من الميلاد الى الموت ؛ ويظل فى القدر ، رغم ذلك ، مداومة لا تقهر • واذا كانت الباغافاد جيتا موجودة

فى أكثر الأماكن المقدسة ، فلأنها تعبر عن هذا الدوام ! ومثل تمثال الجلالة ، هى الهند • وقد حاول غاندى ترجمتها • فقد كان أعظم الزهاد المعاصرين يرى فى العمل ، لمن يمارسه بروح التوكل على الله ، أسمى أشكال الزهد • « ان اخلاصى لشعبى مظهر من مظاهر الانضباط الذى أفرضه على نفسى لكى أحرر روحى • ولست فى حاجة الى البحث عن مغارة، فانا احمل مغارتى » •

« الموت أكيد لكل من سيولدون

« والميلاد أكيد لكل من يموتون ••• » •

الليل يهبط على صرعى المعركة الأخيرة بعد قتال استمر سبعة عشر يوما • والقلة الباقية على قيد الحياة ، انسحب أفرادها الى الغابة ، ليلاقوا الموت فى نسكهم • والكواسر صابرة ترقب • وبالقرب من السيوف التى سقطت ورقدت فوق الميدان تعكس ضوء القمر ، سارت القرود الشبيهة بتلك التى كانت تصطحبنى فى مادورا ، وملست بأناملها الحيرى عيون الميتين •

وفى الخارج كانت تمر الفتيات ، وزهرة حمراء فى اليد • ونوارس عمان لا تزال تتقابل فوق الخليج المتلألىء • وعدنا بالقارب البخارى • وبومباى السوق المجنونة ، التى تظن نفسها مدينة ، قد أخذت ترتفع شيئا فشيئا فوق المياه ونحن نتجه نحو القنطرة الضخمة التى تعلو باب الشرق• وكانت فيما مضى تسهر على البواخر الانجليزية ، كمعبد بحرى على أسطول حربى • أما اليوم فلم يرس عندها الا قاربنا ، قادما من الهند الأبدية الخالدة • وعلى سطح المحيط كانت تلمع المفاعلات الذرية •••

وكان علينا أن نعود الى دلهى فى الفجر • ووضعوا تحت تصرفى لقضاء السهرة ، بنجلاو (١) الحاكم القديم ، ويقع عند طرف الجزيرة • وكان كئيبا مثل كل المنازل الخالية من السكان على شاطىء الخليج • والحديقة أكثر خلاء رغم وجود بعض الجناينية الصامتين ، بدت لى كأنها مقبرة لضباط جيش الهند • وكان جيش الهند بعيداً بعد خيالة وفرسان الامبراطور أكبر •••

ان غرامى فيما مضى ، بآسيا وبالحضارات الغابرة وبعلم الأجناس ، يعود الى حيرة جوهرية أمام الأشكال التى أمكن للانسان أن يتخذها • ولكنه يعود أيضا الى الاضاءة التى تتلقاها حضارتنا من كل حضارة أجنبية، فتكشف الغرابة او التحكم الجزانى فى هذه الناحية أو تلك من مظاهرها،

---

(١) منزل من طابق واحد تحيط به الفيراندات •

ولقد التقيت من جديد بواحد من أعمق واعقد اللقاءات التى تحققت لى فى أيام شبابى ٠ أعمق واعقد من لقائى بامريكا قبل الأسبانية ، لأن انجلترا لم تقض على كهنة الهند ومحاربيهـا ولأن المعابد ما زالت تشـيد للآلهة القديمة ٠ ومن لقائى بالعالم الاسلامى وباليابان ، لأن الهند أقل تفرنجا ولأنها اوسع نشرا لأجنحة الانسـان الليلية . ومن لقائى بالمريقيا ؟ بفضل تصميمها واستمرارها ٠ بعيدة عنا فى الحلم وفى الزمن ، تمت الهند الى شرق روحنا القديم ٠ وليس آخـر المهراجات فراعنة ، ولـكن البراهمة يذكرون بكهنة ايزيس ، وقد أثار فقراء الهند خيال الاسكندر ، والطواويس فى قصور عنبر الخالية ذكرتنى بجموع الكلدان عندما فغروا أفواههم دهشة أمام سـفراء الممالك الهندية و « طيورهم التى تعرف صـنع المروحة » ٠ لكانها مصر اخرى ، لم يكد يتغير شعبها ومعتقداتها منذ أيام رمسيس ٠ وهى بلا شك آخر الحضارات الدينية ٠ وهى بكل تأكيد آخر عبادة عظيمة تتعدد فيها الآلهة ٠ اى شيء زيوس ، أمام شيفا ؟ الاله القديم الوحيد الذى ارى لفته جديرة بالهند هو الاله الذى لا معابد له : القدر ٠

ومن هذه الحضارة ، ما الذى كنت اعرفه حق المعرفة ؟ فنونها وفكرها وتاريخها ٠ هى معرفتى بحضارات كبيرة ميتة – يزيد عليها أنى سمعت موسيقاها والتقيت ببعض الرجال « الجورو » ، وليس هذا بالشيء القليل فى بلاد يعرب فكرها الدينى « عن حقيقة ، لا يجب أن تفقه ولكن أن تعاش ٠ « لا تؤمن بشيء الا أن تحس به أولا » – ولم يكن بى غرور الادعاء بأن « أعرف » – بالمرور العابر ٠٠٠ فكرا صمد لسبعة عشر سيلا من الفتوحات ولألفى حول من الزمن ؛ ولكننى كنت أحاول أن التقط الهمهمات الكبرى التى تلح على ذهنى ٠

يمكن للانسـان أن يستشعر حضـور « الـكائن » الـكلى فى كل الكائنات ، وحضـور كل الكائنات فى « الكائن » الكلى ؛ ويكتشف عندئذ تطابق كل المظاهر ، وان تكن هى اللذة والألم ، الحياة والموت ، يكتشف تطابقها أمام نفسـه ، وفى « الكائن » ؛ ويمكن أن يبلغ فى ذاته الى الجوهر الذى يتسامى بأرواحه المتناسـخة ، ويستشـعر تطابقها مع جوهر عالم أبدى العودة ، يفلت منه عن طريق اتحاده به ، اتحادا لا سبيل الى وضعه ٠ ولـكن هناك فى فكر الهنـد شيء يشبـه أن يكون فاتنا ومفتونا فى نفس الوقت ٠ ويعود الى ما يثيره فينا من احسـاس بأننا نصعد جبلا مقدسـا تتأخر عنا قمته دائما ابدا ؛ بأننا نتقدم فى الظلام على ضوء الشعلة التى يحملها الظلام ٠ وقد افادنا بعض قديسينا وبعض فلاسفتنا علما بهذه الحركة ٠ ولكن فى الهند ، وفى الهند وحدها لا ينفصل « الكائن » عن

المظهر الكلى والتحول الكلى ، بل يصبح بازائهما فى بعض الأحيان « كوجهى العملة » ، اذا أمكن لهذه العبارة ، أن توحى بطريق « المطلق » الذى لاينضب معينه ويتسامى حتى الوجود الأزلى ..

ولقد التقيت برجال من طائفة البراهمة ولكنهم لم يكونوا كهنة ، بل مثقفين وفنانين ودبلوماسيين - وزوجاتهم ! وبعض الشخصيات الكبيرة وعدد من السياسيين ، وهم سلالة من الناس لم تكن معروفة فى بداية هذا القرن . ولم أقابل تاجرا ولا فلاحا . وجلست وحدى فى الحديقة الكئيبة ، فى المدينة الضخمة ، وأمامى بلد هى أكثر بلاد العالم تدينا ، ولا شك أنها اعظمها حنوا ؛ فلم اجد فى ذاكرتى غير جمــــوع هائلة وصامتة مثـل حيواناتها الصديقة . جموع هندية أو بالأخرى هندوسية : حقولها تشبه حقول فرنسا وأحلامها لا تشبه الأحلام الفرنسية . ولم تكن لتستدعى الى ذهنى عن طريق التناقض جموعا مسـيحية ، ولكن جموع المترو ، وعلى الأخص تلك الجموع التى اعرفهــا خيرا من غيرها : جمــوع الحرب . وروحانية الهند جعلتنى أفكر سريعا فى قسيس جلبير . ولكن الجموع الهندوسية التى ترى أن الموت يهب للحياة معنى ، قد جعلتنى افكر بشدة فى ابناء بلادنا الذين لا يرون للموت معنى . واطياف الذين دأبوا منذ قرون على أن يضعوا زهرة أرجوانية عند أقدام اله اسود أو شجرة شبيهة بالبركة الالهية ، اخوة الفلاحين الذين لم ألمح منهم غير البسمة الحزينة التى ربما حيت سميراميس فيما مضى ، وصغار التجار اخوة ، آلاف من صغار التجار كانوا يحدثوننى عن أبنائنا الذين رأيتهم وهم يواجهــون الموت .

وما زال الخليج يلمع ، فيما وراء الحديقة التى لا تأتينى بصـــوت الأمواج . وستظل نوارس عمان تتقابل حتى الليل . وعدت أدراجى الى البنجلاو الحالى الذى كان يسكنه آخر حكام بومباى . وأخذت فى مطالعة ما كتبته عام ١٩٤٠ عن رفاقى الذين كانوا يقاتلون ويموتون عبثا ...

أدب

تعنى بنشر النصوص المتميزة فى الشعر والنثر والنقد الأدبى وتاريخ الآداب من أجل إثراء خبرة القارئ وتنمية وعيه الأدبى والسعى إلى نشر القيم الجمالية التى تحقق المتعة والفائدة فى آن.

لا مذكرات

يقول أندرو مالرو: «أسمى هذا الكتاب «لامذكرات»؛ لأنه يجيب عن سؤال لا تطرحه المذكرات، ولا يجيب عن الأسئلة التى تطرحها ثم لأنك تلقى فيه وجودا مرتبطا بالمأساوى فى كثير من الأحيان، وجودا لا يمكن رفضه .. وجود المستغرب وتفانين الصدف». وهو طريق ابتدعه مالرو فى السير الذاتية تغاضى فيه عن الحياة العاطفية المليئة بالتقلبات، كما أراد نظم الأحداث؛ لتكشف رؤية وكبرياء فى الانتصار على النفس والأفكار والآخرين.

أندريه مالرو

«أندريه مالرو ١٩٠١- ١٩٧٦» كاتب وسياسى وناقد فنى فرنسى. تؤرخ حياته بمعنى من المعانى لكل أحداث القرن العشرين الجسيمة والحاسمة، صاحب رؤية موسوعية، ويمتلك معارف دقيقة فى الآثار وتاريخ الفنون والأنثروبولوجيا. عين وزيرا للثقافة الفرنسية. تجنح أعماله إلى السريالية والسخرية والغرائبية منها: «أقمار على الورق»، «الأمل»، «قيود يجب أن تتكسر»، «اللا واقعية»، «عابر سبيل»، «الإنسان المزعزع والأدب».

ISBN# 9789772071531
6 221149 023598
مكتبة الأسرة ٢٠١٢